

دَهَّام
كهوف الظلام
سنية زايد
عصير الكتب
للنشر و التوزيع


دَهَّام



الكتاب: دهام

المؤلف: سنية زايد

تنسيق داخلي: سمر محمد

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 2019/28391

I .S .B .N: 978-977-992-078-8

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع



سَنِيَّة زَايد




عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

إِلَى

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ حُرُوبًا لَيْسَتْ باخْتِيارِهم،

أُرْغِمُوا عَلَيْهَا دُونَ أَن يَعْرِفُوا بِأَيِّ ذَنبٍ أُلقوا ببحُورِ

التَّهْلُكَة...

الاِسْتِسْلَام لَمْ يَعُد خِيارًا!!»

«قُوتك لَيْسَتْ فِي توجِيه الصَّفعَات، بَلْ حِيْن يَأتي

دَورك لِتَتلَقَّاهَا، تَظَلُّ رَاسِخًا عَلَى قَدمِيك!»

سَنِيَّة زَايد

الأوَّل

«الْحَقِيقَة الوحِيدة المُؤَكَّدة فِي الحَياة
ألَّا حَقِيقَة عَلَى الإطْلَاق»

آصَف

واقفة

هُنَاك مُتسمِّرة، خَارج حُدود الزمان والمكان، ساقطة في اللاشَيْء، منفية خارج كُلِّ شَيْء، لِلَحْظَة شكَّت أَنَّهَا انتقلت إِلَى الماضي، مُجَرَّد ذكرى ضالة لحقتْ بهَا، علقت بَيْنَ ثنايا عقلها المُشتت أَوْ بالأحرى علقت هِيَ داخلها! لَا يهم مَنْ علق بالآخَر! الأهم أَن تِلْك المُعلقة أمَامها لَيْسَتْ حيَّة بلحظتها الراهنة!

امْتَنَعَ كُلُّهَا عَنِ التنفس، عَنِ الحياة، لَا تَسْتَطِيع سِوَى النظر إِلَى العائدة مِنَ الماضي السحيق مُتجسدةً أمامها! بالتَّأْكِيد هِيَ تهذي! كُلُّ شَيْء الآنَ بَاتَ مُحتملًا! إِنْ كَانَتْ حقًّا هِي أمها فَكُلُّ مُسْتَحِيل هُوَ الآنَ المُمكن بعينه!

ارتعاشات جسدها واختلاجتها المضطربة لَمْ تخفَ عَنْ عين أَخْزَم! الَّذِي أيقن أَن مفاجأته المدوية، أصابت خافقها في مقتله كَمَا أراد!

ظلت العيون عالقة في تِلْك اللحظة مِنَ الزمان كَأَنَّهَا دهر، زُمُرُّدة الَّتِي لَا تَسْتَطِيع حمل رَأْسهَا مِنَ التعب والوهن، لَا تملك أَن يرف لَهَا جفن قَدْ يُبعد ناظريها وَلَوْ لِلَحْظَة عَنْ صغيرتها، الَّتِي انتزعها القَدَر غصبًا مِنها، ولَمْ يُفارقهَا وَجْهُهَا الَّذِي حُفرت كُلُّ تقسيمة بِهِ صغيرًا داخل روحها، لَمْ تخشَ يومًا القيود قَدْرَ مَا خشيَت أَن تفقد تفصيلة واحدةً مِنْهُ.

تُغمض عينها وتعود لِلَّحْظَة الَّتِي ابتسمت لَهَا بَعْدَ ولادتها، تُقبلها وتُمسكهَا بكُلِّ مَا استطاعت مِنْ ضَعْف، هَذَا مَا أبقاها حية، مَا جعلها احتملت كُلَّ مَا مضى مِنْ ألم السنين المُنصرمة في قيودها.

لأعوام تحسب الثواني والدقائق والساعات لرؤيتها دُونَ أمل فِي تحقيق حُلمها المستحيل، أَوْ هَذَا مَا تمنته ودعت بكُلِّ مَا امتلكت أَن يظل مُستحيلًا! أَلَّا يَحْدُثَ ويجتمعا فِي مِثْل هَذَا الوضع، أَلَّا تصل أيديهم إِلَى مَا تكبدت كُلَّ هَذَا لأجل إخفائه «**ابنتها**».

انتشلهما صوتُ أَخْزَم البارد مِنْ صفعة المُفَاجأة...

- لَم أشأ أَن أقطع هَذَا اللقاء الحميمي، لَكِن أَنْتِ تعرفين أننا لَا نمتلك الكثير مِنَ الوَقْت.

أَوْغَل النظر بعينها الَّتِي ما زالت مُتسمِّرة بوجه أُمِّهَا الشاحب، رَغْم أَن صوته راح يخترق كُلَّ حصونها الَّتِي شيدَتها بهدوءٍ وثباتٍ قَبْلَ دقائق...

- متى ستُسلمين لِيَ الكِتَاب يا أميرة؟

حوَّلَت عينيها نحوه، علا صوت تنفُّسها وضاقت عيناها تغضُّبًا، تقبض كفيها بحنقٍ يَشْتَعِل داخل قفصها الصدري، ليرفع يده نَحْو أُمِّها...

- أَنْتِ أعقل مِنْ أَن تتصرفِي بتهور، غَيْرَ أَنَّكِ لَا تمتلكين أَيَّ قُوَّة هُنَا، أعني دُونَ أَن يكون انتقالك كَاملًا.

- أُقسم أنني سأقتلع قلبك بيدي، ولَا شَيْءِ بِهَذَا الكون سيمنعني.

رَغْم يقينه بِمَا قاله عَنِ انعدام سحرها دُونَ اكتمال انتقالها، فإِنَّ داخله ارتجف وبقوة، ومَنْ لَا يفعل لِتِلْك النبرة الشيطانية والنظرة المُحتقنة بكُرْه الكون نحوه؟! تحرك خطوتين نَحْو زُمُرُّدة، زاغت عَيْنُه...

- أَنْتِ بِالتَّأْكِيدِ لَا تريدين تَكْرَار مَا حَدَثَ بالمخزن!

ارتجف جسدها لَكِن تِلْك المرة خوفًا، ليهتف بنبرة لَمْ يَسْتَطِعْ مُواراة شماتتها رَغْم تلعثُمه الخفيف...

- مَتَى سَوْفَ تُسلمينني الكِتَاب؟ بالطبع الرفضُ أَصْبَحَ غَيْر مُحتَمَل، أعدك أَن يلتئم الشمل بينكما، وتعودا معًا مِنْ جَدِيد.

عاودت النظر نَحْو أمها المُكبلة وقَدْ تَبدَّلَت نظرتها الحانقة إِلَى نظرة مُنكسرة، ضعيفة مهزومة، لَا تملك حولًا ولَا قُوَّة، لتَشعُر بصوت أمها الخائر يهمس داخل عقلها قَبْلَ لَحْظَات مِنْ تلاشيهما!!

انتفضت فزِعةً تلهث أنفاسها الهاربة، جسدها يغمرُه العرق، يخنقها سكونها المصدوم، طفقت الدموع تنسلُّ مِنْ عينيها، لَا تعرف أَهي دموع الفرحِ بكون أُمِّها مَا زَالت عَلَى قيد الحياة! أَمْ دموع الخوف أَن تفقدها قَبْلَ أن يتسنَّى لَهَا حَتَّى استردادُها! ألم تسترد أباها بلَّحْظَة وفقدَته بالتالية! فَلَنْ تَحتمل أَن تعيش هَذَا مُجَدَّدًا «**تبًّا لكَ أَخْزَم! أَنْت مُحق، لَنْ أحتمل تَكْرَار مَا حَدَثَ**» صَرَخَ داخلها بألم.

اعتدلَت، وأسندَت ساعديها لرُكبتيها ورَأْسَهَا إِلَى كفيها تهزها بنشيج يعلو وتعلو مَعَهُ أَنَّاتها ونحيب صوتها الطافح بألمها، لتجلس رُونَا أَمَامها، رفعت وَجْهَهَا نَحْوهَا وقَدْ تضببت الرؤية بِعينها مِنَ الدموع...

- زُمُرُّدة... أمِّي... هُنَاك... تَحْتَ يده.

تلعثمَت بكُلِّ حرف بنشيجها، فتصلبَت حَدقتا رُونَا، تبادل الجميع نظرات الصدمة بَيْنَمَا شهق آصَف بذهوله «زُمُرُّدة!» لتُحرك رَأْسَهَا نحوه...

- زَارَا لَدَيْه أمِّي.

- زُمُرُّدة قُتلت عَلَى الباب الدموي!

هتفت رَحيل بعَدَم فهْم، لتتقدم دَلِين خطوة...

- يُحَاوِل خداعك.

- رأيتها بعيني، تلْك أمِّي.

- زُمُرُّدة ماتت، إنَّهَا الْحَقِيقَة وعليكِ تقبُّلها.

- مَا رأته عيني هُوَ الْحَقِيقَة الوحيدة الَّتِي أعرفها، تِلْك المُعلقة فَوْقَ جِدَار هِيَ أمِّي.

انتفضَت صارخة باضطراب غاضب ودموعها تزداد، فصمتت دَلِين، وترقَّقت عيون الجميع بألمها، ظلَّت رُونَا فِي حالة صدمة لَا تَفُهْ بحرف، لَا تُحرك طرفًا، ليخرج آصَف عَنْ صمته ويُجلسها بجواره...

- أخبريني كُلَّ مَا رأيت هُنَاك؟

ابتلعَت اضطرابها واستردَّت أنفاسها، تفرك أصابعها...

- كَانَتْ معلقة عَلَى جدار، تِلْك الأصفاد الحمراء تُكبِّل أطرافها الأربعة، ذَاتَ الأصفاد الَّتِي قيدوك بِهَا فِي المخزن!

- سلاسل الخضوع!

خرج صوت تِيَّام مهزوزًا بدهشته، ليستطرد آصَف كأنه يُحادث ذاته...

- هَذَا منطقي جِدًّا، لِذَلِك لَمْ أرها كُلَّ تِلْك السنين.

- مَا تلْك الأصفاد يا آصَف؟

شرد قَلِيلًا قَبْلَ أَن ينتبه عَلَى نبرة رَيَّان تُعيد السُّؤَال مُجَدَّدًا، ليسترسل بتوتر لَمْ يخفَ عَلَى عين أَحَد...

- نوع مِنَ القيود، يُصنع مِنْ معدن الخضوع، هَكَذَا يُطلق عَلَيْه، ولَا يُستخرج إِلَّا مِنْ كهوف دَهَّام فَقَطْ، ومِنَ اسمه يُعْرف سبب تسميته وتأثيره، يُخضِع كُلَّ مَنْ يُوضَع داخله مَهْمَا بلغ سحره أَوْ قوته.

- لِمَاذَا؟

الْتَفَتَ الجميع نَحْو صوت رُونَا العائد مِنْ هاوية الماضي السحيق، ليُضيِّق آصَف بَيْنَ عينيه بذات النظرة القلقة فقَبْلها طرح السُّؤَال داخله **«هَلْ مَا رأته سِيًّا حَقيقَة؟! وإن كَانَتْ كذَلك فكَيْفَ؟! والأهم لمَاذا؟!»** تَقَهْقَرت أقدامها الثملة مِنَ المفاجأة أمامه تسحبه عنوة مِنْ جُب أَفْكَارِه المظلم المشتت، وكُلُّ اختلاجة بوجهها تشي أَنَّهَا أَكْثَر مِنْهُ تشتُّتًا...

- كَيْفَ احتفظ بِهَا كُلَّ تِلْك السنوات دُونَ أَن يدري أَحَد عَنْهَا شَيْئًا؟ لِمَاذَا تَكبَّد عناء إخفائها وإيهام الجميع أَنَّهُ قتلها؟

- الأهم لِمَاذَا لَمْ يفعل؟ لِمَاذَا لَمْ يقتلها؟!

فَغَرَ الجميع أعينهم ذُهُولًا لتساؤله! وحدها رُونَا مَنْ فهمَت مَا الَّذِي يدور بخَلَده! فأشعل بحور الذهول بداخلها أمواجًا فَوْقَ أمواجها! لتخرج سِيًّا عَنْ صمتها...

- لَا أكترث، كُلُّ مَا يهمني أَن أمِّي عَلَى قيد الحياة.

انتفضت واقفة، تنقل عينها بَيْنَهما، بَاتا لَا يريان وَلَا يسمعان غَيْرَ مخاوفهما وتزداد قَسَماتهما قلقًا وارتيابًا أيقنه الجميع! ليجذب صوتُ تِيَّام انتباهَ الجميع...

- كَيْفَ استطعتِ الوصول إِلَيْهَا؟

- أَخْزَم أحضرها إلَيَّ.

ضيَّقَت رُونَا عينيها بِعَدَمِ فهْم، لتسترسل...

- هُوَ مَنْ فتح لِي باب العبور مِنَ البداية، اليد الممدودة والصوت.

- هُوَ لَا يمتلك مِثْل تِلْك القوة لاستدعائك؟

تساءل تِيَّام بارتياب...

- لَكِن زُمُرُّدة تمتلك...

الْتفت الجمع نَحْو آصَف، وقف وتَلَبَّسَتْه شياطين أَفْكَارِه، راح يُرهق الغرفة جِيْئَةً وذَهَابًا، ويُمسِّد لحيتَه ونبرتُه كمن يُحادث نفسه...

- اللعين... كَانَ يستدعيك بقوة سحرها، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهَا مُحتجَزة بَيْنَ قصر رُوسيل وغابة رُوكَان! المكان الوحيد الَّذِي كُنْتِ تنتقلين إِلَيْه، حَيْثُ يَسْتَطِيع التحكم بالمعبر وبِهَا وبانتقالك.

لبث أمام سِيَّا وبِذَاتِ الهيئة المحمومة...

- مَا الَّذِي أَخبرك بِه؟

- هُنَاك كِتَاب داخل القاعة المحرمة ويريدني أَن أحضره لَهُ!

تَصَلَّبَ كُلُّه، اتسعت عَيْنُهُ ذُهُولًا وأنفاسه تباعدت رهبة! لَمْ يُبدِ اختلاجة تشي بِأَنَّهُ بعالَم الأحياء! تَجَمَّدَ كُلُّ شَيْء حَوْلَهُ، الزمان والمكان، حَتَّى الحياة تلاشت! عمَّ سكون دامس روحه، وذكرى واحدة أطلقت أنيابها تنهش قبور ذكرياته لتعود للحياة برَأْسِه المبهوت! أخرس الذهولُ الجميعَ لِتِلْك الهيئة الَّتِي تَلَبَّسَتْه بغتة ونقلَته مِنَ النقيض إِلَى النقيض بلمح البصر!

وجوم طويل خيَّم عَلَى الوجوه، تبادل الجميع نظرات مُتضاربة، كسرت رَحِيل سطوته بَعْدَ هُنَيْهَة طَالَتْ...

- أَيُّ كِتَاب هَذَا؟

«**كِتَاب القَدَر!!**» خرج صوته مُتقطعًا بنبرة خوف وارْتِيَاب، شهقت رُونَا واضطرب تِيَّام «تَبًّا!» ليتساءل رَيَّان ببلاهة...

- كتَاب مَاذَا؟

- أَلَيْسَتْ تِلْك خُرافة قديمة!

تهكمت دَلِين دُونَ مُجيب، حلَّق صمت خانق بالمكان، لتهمَّ رَحِيل واقفة...

- هَلْ للقدر كِتَاب؟

اقْتَرَبَتْ سِيًّا مِنْ رُونَا وَعيناها تُتابعانِهم بانتباه شديد...

- مَا هَذَا الكِتَاب؟ ولِمَاذَا هُوَ مهم لِتِلْك الدرجة الَّتِي تَصْرُخ بعقولكم ووجوهكم؟ ولِمَاذَا يريده أَخْزَم بشدة؟

- هَلِ الأقدار حَقًّا مكتوبة بداخله؟

تساءلت رَحِيل بسذاجة، لترد دَلِين بنفاد صبر...

- الأقدار مكتوبة لَدَى مَنْ خلقها يا حمقاء، غَيْرَ أَنَّهَا أسطورة قديمة!

اعتدل تِيَّام بمجلسه وحرَّك كلتا يَدَيْهِ بحركة عصبية، محاولًا السيطرة عَلَى اضطرابه وخفقان دقاته المذعورة، ليُنهي الجدال الدائر...

- إنَّهُ كِتَاب مكتوب بداخله كُلُّ تعاويذ السحر الَّتِي عُرفت مُنْذُ ظهر السحر، مَنْ يمتلكه يمتلك قُوَّة كُلِّ شَيْء، سُمي بكتاب القَدَر، لأن مَا بِهِ مِنْ سحر يمكنه أَن يُغير أَقْدَار عوالم بأكملها.

- أَنْتَ لَا تعني...

- هَذَا تَحديدًا مَا يعنيه يَا سيًّا، لِكُلِّ شَيْء وجهان، الْخَيْر والشَّر، كِتَاب القَدَر يحوي سحر النُّور النافع، لَكنَّهُ كذَلِك يحوي السحر الأسود، بداخل هَذَا الكِتَاب الجنة... والجحيم.

خرج آصَف عَنْ صمته ردًّا عَلَى تَشككُّها، حاول لملمة شتات روحه وتنافُر أَفْكَارِه المُتلاطمة سُدًى، جَثَمَ إِطْرَاق ثقيل عَلَى الصدور، الكُلُّ يترقب المشهد بتوجس، لَا يَجْرُؤ أَحَدُهُمْ عَلَى همسة خائرة. أَن يكون الجزع ينهش بنبرة آصَف ومفترسًا لملامحه شَيْء لَا يبشر بالخير لأي أَحَد!

جَلَسَتْ بَعِيدَة عَنِ الجميع، وإعصارٌ جارفٌ يضرب داخلها، ألف صورة مُبهمة عَنِ المستقبل تتصارع بعقلها، ليختفي كُلُّ ذَلِك ويَحِلَّ محله صورة واحدة راسخة واضحة لأُمِّها مُعلقة فَوْقَ جِدَار، انتفضت واقفة ليلتفت نحوها الجميع...

- إن كَانَ سبيلَ الوصول إِلَيْهَا فسوف أحصل عَلَيْه.
- لَا يُمْكنك فعل ذَلِك، إِن امتلكه زَارَا فهَذَا يَعْنِي نهايتنا جَمِيعًا.
- لَدَيْه أمِّي يا تِيَّام، مَاذَا تُريدني أَن أفعل؟ أتركها لَهُ ليقتلها؟

هَدَرَ حنقها بوجه تِيَّام لَمْ تعُد تحتمل كبحه أَكْثَر...

- لَمْ يقتلها كُلَّ تِلْك السنوات الماضية! بِالتَّأْكِيد لَنْ يفعل الآنَ!

حاولَت دَلِين تهدئة الأجواء المُحتقنة، هز تِيَّام رَأَسَه نفيًا بسخط...

- لَنْ يُعيدها إِلَيْك.
- إِنْ أخذ الكِتَاب فرُبَّمَا يفعلها؟ هَذَا كُلُّ مَا يريده؟
- لَنْ يُعيدها يا رَيَّان خَاصَّة إِن امتلك الكِتَاب.

وجَّه نظرة واثقة نَحْو رَيَّان الَّذِي زاد تعجُّبه، ثمَّ تَقَدَّمَ خطوة مِنها يكز أسنانه وقَدِ اسْتَشَاطَ غَضَبًا...

- أتعتقدين يا حمقاء أَنَّهُ سيترك الملكة الشرعية للسديم حية! يَعْرِف أَن الجَمِيع سينتفض ضِدَّهُ حِيْن يعلمون أَنَّهَا حية.

ارتمت رُونَا على الأريكة مِنْ خلفها، وضعت رَأْسَهَا عَلَى كفيها، فعاود تِيَّام الجلوس جوارها، يشعر الثُّقل الجاثم عَلَى عاتقها...

- الآنَ عرفت لِمَاذَا قاعة العرش تَحْدِيدًا! لَا علاقة للَّعنة بالأمر، فَقَطْ لأجل الكِتَاب! لَمْ يقتلها لأجله.

تَنهَّد آصَف باستسلام حَفَرَ بوجهه وديانًا مِنْ سنوات شقاء مُضاعفة، وشهقاتُ أَلمِها تسبقها، نظَر الجميع نَحْو وَجْهِهَا الشاحب، صوتها الخائر، أَدْغَمَت عَلَى نفس الحال...

- لَمْ يُغامر بقتلها، فَهِي آخِر مَنْ تبقى مِنْ نسل رُهَانَا تَحْدِيدًا، وحدها يمكنها الوصول للكتاب، أطلق كلابه فِي كُلِّ العوالم ليجد آخِر الدماء فيفتح بدمائها الباب، وزُمُرُّدة تجد لَهُ الكِتَاب الَّذِي أَخفته رُهَانَا.

لوهلة ظلت عيونُ آصَف زائغةً وفكرُه شريدًا فِي زمنٍ آخَر، يَبْدُو أَنَّهُ يجهل الكثير داخل متاهة القَدَر ولعبته الَّتِي تزداد تشعُّبًا وتبَاعُدًا! داخَلَه شعور غامض أن هُنَاك حجرًا ناقصًا! أن هناك شَيْئًا مَا زَالَ يُخبئه لَهُ القَدَر فِي جعبته السحرية، الَّتِي لَا تخلو مِنَ المفاجآت عَلَى طول المسير!

أطبق الصمت مقصلته، اتَّخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَجْلِسًا قريبًا مِنَ الآخَر، وثلاثتهم يتبادلون النظرات المتعجبة، فكُلُّ هَذَا لَهُم محض خيال، أسطورة قديمة عَنْ كِتَاب خُرَافِي لَمْ يوجد يَوْمًا!

بَيْنَمَا آصَف ورُونَا وتِيَّام يحلقون فِي عالم آخَر، عالم مُظلم مُشتعل بَيْنَ أمواج الأسئلة الَّتِي تعصف بهم دُونَ إجابة شافية! تنتهي كُلُّ خيوطهم

بهواجس مُفزعة قاتلة! سيمَّا بدت بَيْنَ الجميع كَالمغيبة، فضربات القَدَر لَهَا سريعة مُتتالية مُوجعة، تعتصرها مِنَ الداخل دُونَ رَحْمَة!

بالمساء وسط سماء طاعنة بالسواد مُكْفَهِرَّة الضياء آفلة النجوم، التقطَت عينُها المنهكة رُونًا تجلس مُتربعةً بآخِرِ الشرفة مُنعزلة عَنِ الجميع، غارقةً بأفكارها الدامسة وهواجسها القابضة عَلَى روحها، تعتصرها براثن اللوم وإحساس الذنب، والحزن والندم يُسيطر عَلَى كُلِّ ذرة بِهَا.

مسحت بَيْنَ عينيها وزفرت بأسًى لَا تدري عَلَى حالِ مَنْ مِنْهُمْ! فثلاثتهن يَسْتَحْقِقْن الشفقة! واحدة مُعلقة فَوْقَ جِدَار لنصف عمرها لأجل كتاب أَحْمَق! والأُخْرَى تُصَارع بكُلِّ مَا تمتلك لأجل العودة إِلَى مُلك زائف، تَفي بعهدٍ أخرق وتسترد عَرْشًا مَا هُوَ إِلَّا سراب! وهِيَ، الفتاة الَّتِي أُلقيت وسط أمواجِ الجحيم حَتَّى دُونَ أَن تعرف لِمَاذَا! رُبَّمَا هِيَ أَكْثَر مَنْ يَسْتَحِقُّ الشفقة تِلْك اللَّحْظَة! عَلَى الأقل كلتاهما اختارت جحيمها بملءِ إرادتها، أمَّا هِيَ فَلَمْ تختر أيًا مِنْ هذَا! المُجْبَرُون أَكْثَر مَنْ يَتأَلَّمُون؛ مَرَّةً لمُعَانَاتِهم، وَأَلْف مَرَّة لإِجْبَارِهم!

زفرت بيأسٍ ضارٍ يلتهمهَا، تلمست جانبها مَا زَالَتْ تُحس الوجع بجُرحها، لَكِن وجع روحها أعتى وأضنى كيانها، جَلَسَتْ أَرْضًا قَرِيبةً مِنْهَا، ضامَّة ساقيها إِلَى صَدْرِهَا بساعديها، لَمْ تقل شَيْئًا، ابتسامة مواسية كُلُّ مَا فعلَته، تعرف أَن تلْك لَحْظَتهَا الخاصة وصراعها الداخلي، وَلَا شَيْء قَدْ يُخفف عَنْهَا، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ تركها وحيدة لحزنها يلتهم روحها.

الحديث لَيْسَ كُلَّ أنواع المواساة الَّتِي نُقدمها لمن نُحب فِي لَحْظَات الألم، الصمت أَيْضًا مواساة، هادئة حانية تحمل الحُبَّ والدعم بَيْنَ سكونها، وجودنا كُلُّ مَا نملك لنقدمه لَهُم فِي لَحْظَات كَرْبهم! لَا يهم مَاذَا نقول أَوْ نفعل لَكِن الأهم أَن نكون بجوارهم.

حاولت رُونَا دفْعها بَعِيدًا، طلبت إِلَيْهَا بحدة الرحيل، لَكِنَّهَا رفضت بإصرار، لاَ يمكنها أَن تفعل «**لَا يمكننا التخلي عمَّن نُحب، خَاصَّة فِي لحظَات يأسهم وضعفهم، أنت لَمْ تتخلَّيْ عَنِّي يومًا، فكيف تطلبين مني أَن أفعل؟!**» هَكَذَا أخبرتها، اكتنفهما الصمت، فأقلقته رُونَا بتنهيدة كمد...

- هَذَا خطئي، كَيْفَ لَمْ أعرف أَنَّهَا مَا زَالَتْ عَلَى قيد الحياة؟
- لَيْسَ خطأك.
- بَلْ خطئي وحدي.

اعترضَت سِيًّا نفيًا بإصرار...

- آصَف لَمْ يَسْتَطع بكُلِّ سحره ورؤياه.
- مَا كَانَ يَجب أَن أتخلى عَنْهَا.
- لَمْ تفعلي، كَانَتْ تعرف العواقب، واتَّخَذَت قرارها بملء إرادتها، وإن كَانَ هَذَا خطأ أَحَد فَهُوَ خطئي أَنَا.
- كَلَّا... لَيْسَ خطأك.

انتفضت تُشيح بيديها نافية، لتبتسم سِيًّا بسخرية...

- تَخَلَّت عَنِ السوار لأجلي.
- لَيْسَ أنتِ، كَانَ يَجب عَليَّ حمايتها.

- وقَدْ فعلت...

الْتفتت رُونَا إِلَيْهَا بعينٍ دامعة، لتُطبق عَلَى يدها...

- بحمايتك لي، هَذَا مَا أرادته هِيَ وما أقسمتِ عَلَى فعله، وقَدْ وفيت بقسمك ووعدك... أُمِّي.

شددت على كلمة «أُمِّي»، تنهدت رُونَا بزفرة ألم مِنْ بركان صَدْرِهَا المحترق بعذابها، فَلَا تحتمل مُجَرَّد التفكير بِأَنَّهَا تَخَلَّت عَنْهَا وتركتها لَهُم! كَيْفَ لَمْ تَفِ بوعدها لرُهَانَا! لتستردها سِيَّا بيدها تُطبق عَلَى ساعدها...

- لَو اعتبرنا أَن مَا حَدَثَ هُوَ خطأك - وهَذَا غَيْر صحيح - فأثق أَنَّهَا غفرَته لَكِ.

تحجرت الدموع بعيون رُونَا، واختنق صوتها بمرارته...

- هُنَاك أَخْطَاء يَجِب أَنْ نغْفِرَهَا لِأَنْفُسِنَا قَبْلَ أَنْ نَطْلُب مَغْفِرَة الْآخَرِين.

- هوِّني عَلَى نفسك يا أُمِّي، سَوْفَ نصلح الأَمْر ونستردها، هَذَا كُلُّ مَا يَجِب أَن نفكر بِهِ الآنَ.

- هَذَا مَا سنفعله مَهْمَا كلف الأَمْر.

أَكَّدَت رُونَا بابتسامة حانية، وعيون سِيَّا تتلألأ بنظرات مُشجعة، فكَمْ تُشفق عَلَيْهَا مِنْ ثقل الندم الجاثم فَوْقَ كتفيها! رَغْم أَنَّهَا تعلم أَن مَا تقوله هُوَ المستحيل بذاته، ولاَ تعرف كَيْفَ ستفعل! وهَلْ تَسْتَطِيع! لَكِنَهَا باتت عالقة بالمنتصف فَلَا طريق آخر! غُلقت عَلَيْهَا السُّبل!

يجلس فَوْقَ عرشه، يَبْدُو لمن يقف أمامه شامخ الطلة، جامدَ الملامح قاسيَ النظرات المصوبة نَحْو البعيد، يُطبق يَدَيْهِ عَلَى ساعدَي كرسيه بثقة، تتهدج أنفاسه بهدوء، كُلُّ مَا بِهِ يسبح بسكونٍ مُفرط يَزيد هيبته غموضًا، كأَنَّ كُلَّ مَا مضى مِنْ إعصارٍ كاسحٍ بالأيام الماضية لَمْ يمُرَّ عَلَى حدائق سطوته، مُجَرَّد نسيم عليل داعب أطرافَ عباءته الموشى بالذهب لَكِنَّهُ لَمْ يُزحزح أطرافها قيد أُنملة!

لَكِن قَرِيبًا قَرِيبًا، وداخِلَ صدر زَارًا تحتدم أمواج أنفاسه المتلاطمة، بَيْنَ قضبان ضلوعه، تُحَاوِل جاهدةً احتواء فيضان سخطه الهادر بشلالات الغضب الصارخ الَّذِي يكاد يُهشمها، لتصطدم أَفْكَارُه الثائرة ببركان حنقها بجدران عقله، تكاد تقُضها سُخطًا، مُطْلِقًا سراح روحه الناقمة الجامحة تركض بِهِ إِلَى هوة الجحيم.

حشرة هزت عَرْش عظمته الَّذِي سعى عقود يُشيده! هجين حقيرة تَأْتِي بلحظات لتهدم بروج نفوذه! وتُشعل عالمه أتون مُستعر، تعبث بركام حدائقه الخربة لتهدمها عَلَى مَا تبقى مِنْ عروشها المحترقة، لَا يصدق مَا حَدَثَ!

كُلُّه محبوسٌ هُنَاك، رَغْمًا عَنْهُ مُقيد داخل المعركة، بِاللَّحْظَة الَّتِي انشقت الأَرْض عَنْ شبحها ومِنْ خلفها آلاف الرَّوْشَم! كَيْفَ فعلتها اللعينة؟! مِنْ أَيْنَ لَهَا تِلْك القوة الكاسحة؟! أهو حَقًّا سحر امتلكته دُونَ البقية مِنْ ذويها؟! مُسْتَحِيل، مَا رآه فعل شياطين، وهُوَ خير مَنْ يَعْرِف الشَّيْطَان حيْن يراه! ورَغْم كونه الشَّيْطَان الأعظم فإِنَّهُ وبكل مَا امتلكه مِنْ طموح وتمرُّد لَمْ يصل إِلَيْهِ، وهِيَ وصلت!

حَوَّلَ نظراته نَحْو نافذته المظلمة، وضلوعه مَا زَالَتْ تُجَاهد للسيطرة عَلَى براكين الكمد المشتعل داخلها، ليُعاود عقله ثورته المكظومة، إن مَا يسري بدمائها لَمْ يمتلكه أَحَد مِنْ أسلافها، ولَا هُوَ اسْتَطَاعَ رَغْم كُلِّ الحدود الَّتِي تخطاها! شَهْوَة لَمْ يعرفها سَابِقًا رَغْم انغماسه بكُلِّ الشَّهْوَات المُهلكة! وتطلُّعه للوصول إِلَى أقصى حُدُود السطوة الضروس، لَكِن تِلْك الشَّهْوَة لَمْ يصل لَهَا سَابِقًا، الانتقام!

قرأها بعينها لحظَة انشقت عَنْهَا الأَرْض، تَشرَّبها أَنْفه حَتَّى النخاع! فرائحتها المُسْكِرة بلذَّتها عبرت العوالم ووصلت حَتَّى عتبات عرشه! زلزلت كيانه وتشبع بهَا صَدْرهُ وألهبت كُلَّ حواسه! أعادت إِلَيْهِ شَيْئًا فقده مُنْذُ سنوات! أَحيَت بداخله مَا طمسته السنون الراحلة «**رغبة التملك**» كَانَتْ دَائمًا مُحفزه الأول والأخير، مَا أوصلته إِلَى العرش، وبَعْدَ كُلِّ مَا مضى ودُونَ مُنافس حقيقي، اعْتَقَدَ أَنَّهَا اندثرت بداخله للأبد، لَكنها أيقظتها بقلبه مِنْ جديد! لَمْ تعُد رغبة بَلْ صَارَ شغفه مُنْذُ اللحظة امتلاكَها!

رغبته تتأجج صارخة جامحة تلتهم كُلَّ مَا يدور بفلكها، تُفتته سعيًا للثأر «**كَيْفَ تجْرُؤ!**» كَيْفَ تتحداه؟! باتت طريدته وهُوَ قنَّاصها، الانتقام شَيْطَان هائج لَا يملك زمامه أَحَد، شَيْطَان أَكْثَر جنوحًا مِنْ إبليس حِيْن أبى السجود! إبليس اسْتَعْلَى بوقود «**الغرور**»، لَكِن شَيْطَان الانتقام مُتجبر بوقود الجحيم «**الكُرْه**».

الكُرْه يُبيد كُلَّ مَا يقف بطريقه، شَيْطَان لَا يندم ولَا يغفر ولَا يقف عِنْدَ حد، مُتعطش للدماء، يَعْرف جَيِّدًا أَن الدماء لَا تروي ظمأً، هِيَ فَقَطْ تَزيد النهم بداخلنا أضعافًا للمزيد مِنْها.

قبض عَلَى رأسَي الصقرَين بساعدَي الكرسي حَتَّى كادا يتهشمان تَحْتَ قبضته الساخطة، يَصْرُخ شيطانه بَيْنَ كهوف عقله الأكثر ظلمة «**الآنَ أصبحا مُتعَادلَين**» تَخَلَّى عَنْ كُلِّ شياطينه ليلبسه ذَاتَ الشَّيْطَان «**الانتقام**»، رغبة حقد عارمة فِي الثَّأْر تُلهب كُلَّ جوارحه، كُلُّ شياطينه تَصْرُخ مُطالِبة بالدماء، يشعر بالظمأ والنهم ليروي انتقامه، فكلاهما الآنَ يمتلك الرغبة والشهوة، ويَسْعَى خلف الآخَر بجنون محموم، لَكِن يظل لَدَيْه البطاقة الرابح «**زُمُرُّدة**».

تغيرت كُلُّ قناعاته، وتغيرت مَعَهَا قوانين اللعبة، لَمْ يعُد يَسْعَى لفك اللعنة ولَا خلف الكتَاب الَّذي تخطى كُلَّ الحدود لأجل الوصول إِلَيْه! لَيْسَ الآنَ ولَا بتِلْك اللحظَة، كُلُّ مَا تلبسه رؤيتها مُعلقة فَوْقَ بابه الدموي، تنزف وتَصْرُخ طلبًا للرحمة، تتوسل لأجل الصفح والمغفرة!

احتدم داخله بسخط «**كَلا**» لَنْ تَصْرُخ ولَنْ تتوسل! هُوَ يَعْرف ذَلك، بَلْ يوقنه فِي قرارة نفسه، كلاهما وجهان لذات العملة! كلاهما شَيْطَان! الشياطين لَا تتوسل، حِقدُ الثَّأْرِ وجمرُ الكُرْه كُلُّ مَا يُحركها! لَنْ تخضع ولَنْ تَصْرُخ، ستتحمل، نسعى خلف الانتقام ونَحْنُ نعرف عقبات أفعالنا، نعرف جَيِّدًا تبعات الطريق الَّذي اخترنا، سَوْفَ نخسر الكثير عَلَى طول المسير، رُبَّمَا نخسر كُلَّ شَيْء، ومَعَ ذَلك لَا نتوقف، لَا نحيد، لَا نتراجع! هِيَ لَنْ تفعل لِأَنَّهُ لَنْ يفعل!

حرب ستمتد للجولة الأخيرة مَهْمَا طَالَتْ، دماء ستُراق وستكون دماءها، انقلب داخله للنقيض بلَحْظَة! أغرَقَه الفرح، تراقصت أنفاسه طربًا، انتشى كُلُّه لمجرد الفكرة! أَن يكسرها مِنَ الداخل، يُخضعها مَهْمَا أبَتْ، يعتصر كُلَّ قطرة مِنْ كبريائها وشيطانها بَيْنَ يَدَيْه!

ندى جانب فمه بشبح ابتسامة راضية عَنْ كَيْفَ سيقتصُّ مِنْهَا، سَوْفَ يُريهَا كَيْفَ يكون الجحيم جسدًا وعَقْلًا وروحًا!

ألقى نظرة ساكنة لكفه، يرمق أنامله تنغلق عَلَى طيفها اللعين مُعلقًا فَوْقَ بابه الدموي، لَنْ تُفلت منْ يده، صارت طريدَته وهُوَ مُفترسَها، وكُلُّ مَا لَدَيْهَا سيكون ملكه؛ سحرُها، شيطانُها، دماؤها، والكتَاب! أغمض عَيْنَهُ مَعَ انغلاق قبضته الحانقة وأناملُه تكاد تُهشم بَعْضُهَا بعضًا مِنْ فورة اهتياج كُرِهه لَهَا، مُنتشيًا بنصره المحتوم!

بمساء اليوم التالي جلسوا مُتحلقين بدائرتهم أَرْضًا لتناول الطعام، حام صمت مُترقب حَوْلَ أنفاسهم المضطربة، كُلٌّ يُمسك بطبقه يعبث به، غارق ببحر أَفْكَارِه المتلاطم، تعبث أمواجه الصاخبة بأَيِّ ذرة باقية لأَحدهم عَلَى استيعاب مَا حَدَثَ! فلَا يُصدقون تلْك المفاجأَة الَّتي قلبت كُلَّ الموازين! هَلْ بَعْدَ كُلِّ تلْك السنوات هِيَ عَلَى قيد الحياة؟!

رُونَا تجلس بوسط دائرتهم، ضميرها ساخط عَلَيْهَا يؤنبها كَيْفَ تركتها خلفها! لَكنَّ حديث سيًّا يطنُّ بأذنها ويُشعل صراع أفكارها المتناحرة، فحَتَّى لَوْ علمت مَاذَا كَانَتْ ستفعل، فإما زُمُرُّدة وإما سيًّا! كلتاهما كانتا تعرفان أَن هَذَا مَا ينتظرهما، وزُمُرُّدة اتَّخَذَت خيارها دُونَ تَرَدُّدَ، وحْدها صاحبة القرار، وهِيَ أقسمت عَلَى الطاعة، فَلَا فرق إِن كَانَتْ تعلم مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِك أَوْ لَا! النتيجة واحدة ومحسومة حَتَّى قَبْلَ طرح الخيار.

آصَف يجلس مُقَابلها لَا يستوعب كَيْفَ لَمْ يَعْرِف بوجودها طوال السنوات المنصرمة! كَيْفَ غفلت كُلُّ رؤياه عَنْ رصدها وَلَوْ صدفة عابرة!

هَلْ بَعْدَ كُلِّ مَا دفعه لأجل الحصول عَلَى مَا تمنى يخذله إِلَى هَذَا الحد؟! مَا زَالَ القَدَر يصفعه صفعات مدوية، يخبره مَن المتحكم باللعبة، وصاحب اليد العُلْيَا لقول كلمة النِّهَايَة والبداية، وكُلُّ مَا يقع بَيْنَهُمَا تَحْتَ سطوته وحده، ولَا يُلقِي لَهُم إِلَّا بفُتَات لَا يُسمن وَلَا يُغني مِنْ جوع! كَيْفَ لَمْ يَشُكَّ لِلَحْظَة أَن قوى أمها مَا تستدعيها!

رَحِيلُ الجالسةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ تيَّام تعتقد أَن سيَّا تتوهم! تتمسك بسرابٍ يُبقيها حية! حِيْن نخسر كُلَّ شَيْء نتعلق بالوهم لِأَنَّهُ كُلُّ مَا لَدَيْنَا! ولَا فرق بَيْنَ الوهم والموت؛ كلاهما يستنزف أرواحنا، سِيَّا خسرت الكثير لذَلِك يبحث عقلها عَنْ أَيِّ خيط واهٍ ليتشبث بالحياة مِنْ جديد!

عقل دَلين المستقرة بمجلسها بَيْنَ رُونَا وتيَّام الأكثر ضراوة فِي صراعه، لَا تَسْتَطِيع تكذيبها لَكِنَّهَا تعتقد بأن الأسوأ مِنَ الوهم الَّذي تعتقده رَحيل أَنَّ أَخْزَم يتلاعب بِهَا حَتَّى يصل إِلَى الكِتَاب! أَخْزَم حية مسمومة لَنْ يتوانى عَنْ فعل شَيْء ليحصل عَلَى مُبتغاه، وصَادقًا كَانَ أَوْ كَاذبًا بشأن زُمُرُّدة لَا يهم، فالنتيجة واحدة، الجحيم سيفتح أبوابه عَلَى مصراعيه للجميع!

رَيَّان يتوسط حبيبته ورُونَا، يرمقها بنظرات جانبية ولَا يُفكر إِلَّا بشيء واحد، هَلْ ستحتمل كُلَّ تِلْك الفوضى المؤلمة والمفاجأة؟ والَّتِي رَغْم كونها سعيدة بعودة أمها للحياة، فإِنَّهَا ستجلب عَلَى الجميع حربًا ضارية! ونتائجها باتت مشكوك فيها، فكونها تَحْتَ يد زَارَا بِالتَّأْكِيدِ نقطة قُوَّة ضدهم، سَوْفَ يستغلها بكُلِّ الطرق لإضعافهم!

تِيَّام الجالس بَيْنَ رَحيل ودَلين، الأَمْر برُمته بالنسبة إِلَيْه يحتاج للكثير مِنْ إعادة التفكير وإعادة ترتيب الخيارات المطروحة لتُوَائِم الوضع

الجديد، وإن كَانَ حقيقيًّا، فزُمُرُّدة هِيَ الملكة الشرعية للسديم! هَلْ هَذَا يُغير شيئًا مِنَ الوضع القائم بضرورة إنهاء تِلْك الفوضى؟! الإجابة لَا، لَكِنَّهُ بِالتَّأْكِيدِ سيُغير مِنْ كَيْفَ ومتى وأَيْنَ!

سِيًّا ساكنة بجلستها بجوار آصَف تتخبط بَيْنَ أفكار الجميع، لَا تكترث لمن يعتقدها مجنونة أَوْ تتوهم؛ غاصت بأفكارها بَعِيدًا عَنْ فوضاهم، تُعاود لحظاتها المعدودة مَعَ أمها، فتِلْك حَقِيقَة وَلَا يهم إن كَانَتْ وحدها مَنْ يُوقنها! اعتدلت فجأة وتركت طبقها ينزلق أَرْضًا دُونَ أَن تنتبه! ليُصدر ضجيجًا عَاليًا!

اعتدل الجميع وعادوا مِنَ الغرق ببحور أفكارهم المتشاحنة، ينظرون لَهَا، بدت كَالمغيبة، عينها زائغة، أنفاسها وجلة، انتفضت واقفة تُحرك يَدَيْهَا حركات سريعة متوترة، فتعلقت بِهَا العيون الحائرة!

تذكرت بَغتة مَا همست بِهِ أمها داخل عقلها، حِيْن تَسلَّلَت داخل عقلها قَبْلَ ثوانٍ مِنَ اختفائها! ازدادت خطواتها الثملة بتشوُّش أفكارها، تُغمض عينها باضطراب وتتنفس بصعوبة، تعتصر عقلها مُحاوِلةً التذكر، عيونهم تتناقل النظرات بتوجُّسٍ مِنَ اختلال حركاتها المُباغت، تبدو كمَنْ فقَدَ رشده، وبالنسبة لهم هِيَ فقدت عقلها مُنْذُ زمن! وقفت رُونَا تُحَاوِل تهدئتها، وضعت يدها فَوْقَ كتفها، لإيقافها...

- هَلْ أنتِ بخير؟

داهمتهم بالتوقف بالمنتصف، ارتجفت ملامحها قَبْلَ صوتها وبصوت مشبوب بالحماسة المفرطة...

- أنتظرك تَحْتَ الشمس حَيْثُ البداية والنهاية! المَوْت والميلاد! بداية العَدَم ونهاية كُلِّ الأكوان!

- مَاذَا؟!

تَهدَّجَت رُونَا، الْتفتت سِيًّا تنظر بعينها...

- قَبْلَ أَن تُغادر همست داخل رأسي بتِلْك الكلمات.

- أنتظرك تَحْتَ الشمس حَيْثُ البداية والنهاية...

أعادتها دَلين باهتمام، وهَمَّتْ واقفة تتقدم مِنْهمَا، لتُؤكد الأُخْرَى، زاد اهتمام الجميع بكلماتها المُبهمة، لتتساءل رَحِيل...

- مَا الَّذِي كَانَتْ تعنيه؟

- رُبَّمَا تهذي مِنْ قيود الخضوع؟

جَاءَ صوت تِيَّام مُتَرَدِّدًا، صمتت الحناجر بَيْنَمَا العقول اسْتَعَرَتْ صخبًا، ارتدت ثلاثتهن لمجلسهن، لَحْظَات وعادت تهز رَأْسَهَا رفضًا بِقَطْعِيَّة...

- مُسْتَحيل، لَقَدْ تكبدَت عنَاء الدخول إِلَى عقلي وهِيَ خائرة القوى، لَا بُدَّ أَنَّهَا تعني شَيْئًا، وشَيْئًا مهمًّا!

- رُبَّمَا خُدعة مِنْ أَخْزَم لاجترارك إِلَى فخ؟

هزت رَحيل كتفيها، ليردَّ رَيَّان بثقة...

- هُوَ لَا يحتاج أَيَّ خُدع، لقَدْ كشف عَنْ نواياه بالفعل.

- الشمس فِي كُلِّ مكان، لَكِن أَيْنَ يُمكن للبداية والنهاية أَن تجتمعا معًا؟

تساءلت دَلِين، تُحَاوِل فك اللغز، وعينها مُعلقة بآصَف، ليردَّ تِيَّام...

- رُبَّمَا تقصد القاعة المحرمة، بدأت مِنْهَا الخيانة، وسَوْفَ تنتهي فِيهَا اللعنة!

- وَأَيْضًا المَوْت، فجميعهن قُتِلن بِهَا.

جَاءَ صوت رَيَّان ليُؤكد مَا قاله، فتساءلت رَحِيل...

- فمَاذَا عَنِ الميلاد، ونهاية العَدَم وبداية الأكوان؟!

- رُبَّمَا تقصد ميلاد النُّور مِنْ جديد عَلَى يد سِيَّا؟

أجابت دَلِين، لينظر تِيَّام نَحْو رُونَا الَّتِي لَمْ تُحرك سَاكنًا، ويتساءل...

- فمَاذَا عَنْ باقي الأحجية؟ العَدَم وبداية الأكوان!!

لتتساءل رَحِيل وهِيَ تنظر نَحْو آصَف...

- لِمَاذَا أَنْت صامت يا آصَف؟

- «البداية والنهاية والموت والميلاد...» قرأت ذَلِك فِي مكانٍ مَا!!

- أَيْنَ يا آصَف؟

انتفضت سيَّا واقفة، وعينها مُصلبة بعينه، يُحَاوِل جَاهِدًا تذكُّر أَيْنَ! ليَخرج صوت رُونَا هادئًا رزينًا...

- أَعْتَقِدُ أنني أعرف.

- أَيْنَ؟

أسرعَت تجلس عَلَى ركبتيها أمامها مُتَأَهِّبة بكُلِّ جوارحها، سُلطت العيون نَحْوهما، خرج صوتها أَكْثَر اتزانًا وتماسكًا مِنْ ذِي قَبْلَ...

- إنَّهَا العبارة المنقوشة فَوْقَ باب قاعة الحياة داخل معبد دَارَا «هُنَا حَيْثُ البداية والنهاية، والموت والميلاد...»

هز آصَف رَأْسَه مُؤَكِّدًا، لتتساءل رَحِيل...

- لَيْسَ مذكورًا بِهَا تَحْتَ الشمس!

- أَعْتَقِدُ أَنَّهَا تعني تَحْتَ الشمس حرفيًّا، فالمعبد مُصمم قبته عَلَى شكل قرص الشمس.

جَاءَ صوت تِيَّام مُوضحًا، ليؤكد آصَف باهتزازة أُخْرَى، الْتفتت سِيًّا نحوه...

- أعدْني إِلَى الداخل، لقَدْ أرسلتَني سَابقًا إِلَى السَّدِيم، أرسِلْني إِلَى هُنَاك.
- كُنْتِ تذهبين طَيْفًا للماضي لَا يُؤَثِّر وَلَا يَتأَثَّر، لَكن هُنَا ستذهبين للحاضر، حاضرة بروحك فِي الداخل، الأَمْر مُخْتَلِف.
- لَا تُخبرني أَنَّهُ لَا يمكنني فعلها!

جَلَسَتْ أمامه، تُمسك بِكلتا كفيه برجاءٍ يَصْرُخ بعينها، ليُجيبها بتردُّد وعرق ينضح بجبينه...

- تعويذة واحدة ستُرسل جسدك فِي نوم عميق وتُرسل روحك إِلَى حَيْثُ نريد، لَكِن...

تريث قَلِيلًا لتُعاود ضغط يده، وتردُّده يزداد، ابتلع ريقه...

- أخشى أَن يكون زَارَا هُوَ مَنْ ينتظرك، أعلم أَنَّهُ لَا يمكنه إيذاءك وأنتِ مُنفصلة، لَكِنَّهُ يظل زَارَا وَلَا نعلم مَا الَّذِي يُخفي بجعبته، فيبدو أَن لَدَيْه الكثير لَا نعلمه، وبَعْدَ هزيمته بالجولة الماضية فَهُوَ كَالثور الهائج.

أطبقَت عَلَى يده بتوسل...

- أرجوك يا آصَف هَذَا آخِر أمل تبقَّى لي.
- أَلَا تسمعين؟! رُبَّمَا هُوَ فخ آخَر مِنْهما!

انتفض رَيَّان مُحتجًّا، لتقف قبالته بإصرارها...

- ورُبَّمَا هِيَ أمِّي؟

- يَجب أَن نتأكد أولًا.

- أَنْتَ قُلت إِنَّهُ لَمْ يعد بحاجة لفخ فقَدْ كشف عَنْ كُلِّ مَا يريده.

- بالضبط، وكُلُّهَا سَيِّئَة، رُبَّمَا يُحَاوِل استدراجك لشيء لَا نعلمه؟

- لَا يوجد سِوَى طريقة وحيدة للتأكد... أَن أذهب إِلَى هُنَاك.

أحنى رَأْسَه مهزومًا كعادته أمامها، يزفر بحنقٍ يَائِس فيعلم أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيع منْعها مَهْمَا فعل، ولَمْ يَفُهْ أَحَدُهُمْ بكلمة، فجميعهم يعرفون تِلْك النظرة بعينها، لَنْ يُوقفها أحد.

عاودت النظر لآصَف بنظرة إصرار...

- أعِدْني إِلَى الداخل... الآنَ.

أحضر عدة خرائط كبيرة للسديم، أخرج مِنْ بَيْنِها واحدة لرُوسيل، وأُخْرَى لمعبد دَارَا، الجميع يتناقلون نظرات الجهل في صمت، أجلسها إِلَى الأريكة وأمْسَك بكفها، جرحها بخنجر صغير وقطر مِنْهُ عدة قطرات داخل قِنينة زُجاجية صغيرة، وضع فوقها قطرة مِنَ النابض بالأزرق واثنتين مِنَ الأحمر، بسط الخريطتين أرضًا وقطر قطرة مِنَ القنينة فَوْقَ معبد دَارَا، الْتفت نحوها...

- سَوْفَ أُرسل روحك إلَى المعبد، تِلْك القطرة مِنْ دمائك ستكون هِيَ دليلنا لنعرف المكان الَّذِي تتواجدين به بالداخل، حَيْثُ تذهبين سَوْفَ تَذْهَب، لذَلك إِنِ حَدَثَ أَيُّ شَيْء وتَمَّ نقلك خارج المعبد فسَوْفَ نعرف، وسَوْفَ أُعيدك بذات اللَّحْظَة، لَحْظَةَ تُغمضين عينك بالأرض تستيقظ هِيَ بالسَّدِيم، والعكس صحيح.

أومأت لَهُ تفهُّمًا، زفر بقلق رَغْم أَن تعويذة التتبع تنجح دَوْمًا، مَا يَجب أَن يُهدأ بَعْض مِنْ مخاوفه، إِلَّا أَنه لَا شَيْء فلح فِي دحر أَيٍّ مِنْهَا، فَلَمْ يختبرها سَابِقًا عَلَى شَخْص بعالم خارِج الأَرْض، جميعهم كَانَ يتتبعهم بذات العالم الموجود بِهِ، لَكِن الأسوأ أن يختبرها داخل السَّدِيم وَتحت عيون زَارَا الغاضبة والمتحفزة لأي شَيْء.

تمتم بتعويذته لَحْظَات وارتخى جسدها وغطَّت فِي سبات عميق، بُرَهة أُخَرى وانتفضت قطرة دمائها تتوهج بلونها الدموي تُحيطها هالة شفافة تتوهج باللون الأزرق، فَوْقَ الخريطة، أصبحت بالداخل!!

فتحت عينها عَلَى الجهة المُقَابلة داخل قاعة الحياة، دارت عينها الوجِلة بالمكان مِنْ حَوْلِهَا فِي ارتباك أحكمت وثاقه بَيْنَ ضلوعها، القاعة ساكنة قاتمة مُختنقة برائحة «**الْمَوْت**» هَذَا أَوَّل مَا خطر ببالها! لَا تعرف لِمَاذَا اشتمَّت رائحة القبور فِي تلْك الشموع المطفأة! رُبَّمَا لأَنَّهَا الفكرة الوحيدة الَّتِي تحتل عقلها مَهْمَا أنكرت! كُلُّ الطرق ينتظرها الْمَوْت بنهايتها! هَذَا إن أمهلها الوصول إِلَى النِّهَايَة!

استدارت للجهة المقابلة، وقعت عينها عَلَى شمعتها لتبث ذكريات لَحْظَات جَمَعَتها بزَارَا بذات المكان، زفرت بعبوس «**رائحة الْمَوْت مُجَدَّدًا!**» ارتجفٌ داخلها لفكرة أَنَّهُ مَنْ ينتظرها، حاولت نفض الفكرة عَنْ كاهلها، لَمْ تعد تتحمل المزيد، ترمق سوارها بنظرة مُتشككة! أملها يخبو مَعَ كُلِّ ثانية تقضيها داخل تلْك المقبرة الجماعية! تتلفت حَوْلَهَا تُفتش عَنْ شَيْء، أَيِّ شَيْء، سَكَنَتْ عينها بَغتةً! لفت انتباهها شَيْء لَمْ يَكُنْ موجود بالمرة السابقة!

تَقدَّمت خطواتها الوجلة نَحْو شمعتها الَّتِي مَا زَالَتْ تُجاهد لتبقى مُشتعلة، لمحت عينُها شريطًا حريريًّا فيروزيًّا أُوْثِقَ لطرف حاملها! ينعكس ضوء الشمعة الخافت عَلَيْه، تلمسته مُترددة بأطراف أصابعها، لَهُ رائحة تشعر أَنَّهَا تعرفها! اشتمَّتها سَابِقًا! تقبع بداخل أحد صناديق ذاكرتها المُؤْصدة! أغمضت عينها وأطبقت عَلَيْه برقَّة تُقربه مِنْ أنفها تستنشقه، تغلغلت الرائحة داخلها تسحرها! شعرت الأَرْض تميد بِهَا! فتحت عينها لترى كُلَّ شَيْء يدور! أهي مَنْ يدور أَم القاعة!

«**إِنَّهَا القاعة!**» حركتُها بالبداية بدت هادئة مُنتظمة بعكس عقارب الساعة! فغرت عينيها مَشْدُوهة، لَا تعي مَا يَحْدُث! تزداد سُرْعَة دورانها حَتَّى مَا عادت ترى سِوَى دوامة تبتلع كُلَّ شَيْء! تمسكت بحامل الشمعة بكُلِّ مَا أوتيت لَكنَّهَا مَا استطاعت، سحبتها داخلها وهِيَ تَصْرُخ بذعر ومَا زَالَتْ يدٌ مُطبقة عَلَى الحامل والأُخْرَى عَلَى طرف الشريط!!

- هَلْ كُلُّ شَيْء بخير يا آصَف؟

تساءلت رُونَا بارتياب وعينها تلتقط اختلاجات وَجْهِه الَّتِي اضطربت فجأة! بدت كأَنَّ شَيْئًا سيئًا يَحْدُثُ عَلَى الجهة الأُخْرَى!

لَمْ يردَّ، عَيْنُهُ مُعلقة بقطرة دمائها الَّتِي رَغْم أَنَّهَا لَمْ تتحرك خارج المعبد مِثْلَمَا تمنى، فإنَّهَا طفقت تتوهج أَكْثَر وأكثر بشكل غَيْر مُعتاد! بالحقيقة لَمْ يَحْدُثْ سَابِقًا مَعَ أَيِّ شَخْص تتبعه! الأغرب أَنَّهَا تعلو وتهبط، غَيْر مستقرة فَوْقَ الخريطة كَمَا يجب أَن يَحْدُثَ! والهالة الزرقاء مِنْ حَوْلِهَا تتسع وتضيق! ورَغْم أَن جسدها هُنَا أمامهم هادئ تَمَامًا لَمْ يُبدِ

ذرة تغيير واحدة! لَكنه مُوقن أَن شَيْئًا مَا يَحْدُثُ هُنَاك! شَيْئًا لَا يعرفه ولَكَنَّهُ يُخيفه! وارتسم هَذَا جليًّا فِي نظرة رَوْعٍ رشق بِهَا رُونَا بَعْدَمَا احتدَّت عَلَيْهِ بالسؤال، لتصمت تَمَامًا!

هَمَّ مُعتدلًا ليُوقظها، أوقفته يد دَلِين ليلتفت نَحْو قطرة الدماء، شرعت تَهْدَأُ وتعود إِلَى سكونها السابق داخل المعبد، والهالة المحيطة بهَا عادت لسيرتها الأولى، تبادل النظرات مَعَ رُونَا، أماءت لَهُ بنظرة مُتَلَجْلجة أَن ينتظر، رَغْم قلبها المذعور، لَكن عقلها تعلق ببصيص أملٍ واهٍ يُدَاعب روحها المبعثرة، فهِيَ تحتاج أَكْثَر منْ سِيًّا لإجابة شافية تدحر كُلَّ التضارب الطافح بروحها المُعذبة بإثم الذنب والندم.

تَرقَّب الجميع وسؤال واحد يَصْرُخ بالعيون مَا الَّذِي يَحْدُثُ عَلَى الجهة الأُخْرَى!



«رُبَّمَا مَا يـرَاهُ عَقْلك حَاضـرًا ومُستقبلًا مَـا هُـوَ

إلَّا صَدَى المَاضِـي البَعِيـد!»

زُمُرُّدة

رَسَخ

كُلُّ شَيْءِ بَغتة، ارتطمت بقوة بشيءٍ صلب! تُحَاوِل اسْتِعَادة وعيها الَّذِي شعرت لِلَحْظَة أَنَّهَا فقدته أثناء سقوطها! شُج جبينها وشعرت الألم بِهِ وسالت الدماء عَلَى وَجْهِهَا! فتحت عينيها بتروٍّ ترفع رَأْسَهَا قَلِيلًا، مدت طرف يدها تمسح دماءها «**تَبًا لَكَ! آصَف أخبرَني أَنْ لَا شَيْء يمكنه أَن يؤذيني هُنَا!**» تسرب جزع واضطراب شديدان إِلَى قلبها، رفعت رَأْسَهَا بترقُّبٍ مُتزايد عَنِ الجسم الَّذِي اصطدمت بِهِ! فتصلبت مِنْ هول الذهول!!

ارتطمت بالجدار! وَلَيْسَتْ مُلقاة أرضًا! مَا زَالَتْ واقفة عَلَى قدميها! لَمْ تَسْقُط للأسفل! شعرت بالسقوط والدوامة سحبتها للأسفل! فَكَيْفَ هَذَا! انتبهت ليدها الأُخْرَى مُعلقة بحامل الشمعة والشريط مُلتفٌّ حَوْلَهَا، تراجعت للخلف ورَوْعها يزداد! إِنَّهَا لَمْ تُغادر قاعة الحياة!

تراجعت خطوات أُخْرَى للخلف مَشْدُوهة تنتفض ارتِيابًا! تِلْك المرةَ كُلُّ شَيْء مُخْتَلفٌ! لَمْ تعُد القاعة قميئة مُظلمة! بَلْ تنبض بالحياة! الشمس تصدح بكُلِّ ركن وزاوية، زجاج النوافذ تتدفق مِنْهُ الألوان المتداخلة والمتلألئة بوهج الشمس الساطعة ليَزيد رونقها جاذبية، أُغرق المكان بِألوان مُبهجة بشكل مُلفت، إبداع نقش الجدران والسقف خلاب يسرق الأنفاس، تصنمت عينها بمئات الشموع المُضاءة عَلَى الجدران مِنْ حَوْلِهَا تضج بالحياة كَأَنَّهَا تتنفس! كُلُّ شَيْء يَبْدُو مُتألقًا بشكل خاطف للعين،

ليصرخ داخلها «**كَيْفَ يُمْكِنُ لِهَذَا أَن يَحْدُثَ!**» انتابتها كُلُّ المشاعر المتضادة لَكِن التوجس كَانَ المسيطر الأول عَلَى روحها!

ليتحفز أنفها ويستردها مِنْ غياهب عجبها، عاد يلتقط رائحة العطر الَّتِي أغرقت الشريط، تتغلغل بداخلها مِنْ جديد تُذكرها بشيء لَا تعرف ماهيته لَكنَّهَا تألفه! ينتفض بَيْنَ ضلوعها بضراوة لَكنَّهَا لَا تُمسكه! ازدادت الرائحة قُوَّة مَعَ صوت حفيف ناعم يأتي مِنْ خلفها! تحفزت كُلُّ حواسها! شَيْء يَقْتَرِب!

أَلْقَتْ نظرة مُرتابة نَحْو سوارها، لَا شَيْء! مَعَ أَخْزَم أَيْضًا لَمْ يَكُنْ شَيْء! حسمت أمرها فباتت بَيْنَ فكَّي المقصلة لَا نقطة رجوع! حركت رَأْسَهَا بروية تلف جسدها لفة هادئة حذرة، وعقلها يفكر بشيء واحد فَقَطْ، إن كَانَتْ تسيل دماؤها هُنَا فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يُمْكِنُ أَن يُؤذيها! لَكن أهذا يَعْنِي أَيْضًا أَنَّهُ يمكنها استخدام سحرها إن اضطرت! التفاتةٌ واحدةٌ أُخْرَى وستكتشف الإجابة، هَلْ ستضطر أَمْ لَنْ تَسْتَطِيع! «**تَبًّا لحماقتك! لِمَاذَا لَمْ تستمعي إِلَيْهِم؟!**»

وصل جسدها وعينها إِلَى بُغيتهما، صُفِّدَت أوصالها وتهدجت أنفاسها وهِيَ تراها تقف خلفها عَلَى بُعد خطوتين وجلة مُرتبكة! أَخَذَت عدة لَحَظَات حَتَّى استطاعت التعرف عَلَيْهَا، أَنَّهَا هِيَ، زُمُرُّدة، لَكِنَّهَا بدت مُخْتَلِفَة تَمَامًا ترتدي ثوبًا لَا يُمْكِنُ وصفه إلا بِأَنَّهُ ثوب ملكة، رائع الجمال، خُصلات شَعْرِهَا الحريري تكاد تُلامس قدميها! عيناها تتلألآن بالحياة، ساحرة الجمال بشكل لَمْ تَسْتَطِع استيعابه، أتلك هِيَ مَنْ رأتها مُعلقة مُنْذُ ليلتين فَوْقَ جِدار شاحبة كجثة؟!

لِهُنَيْهَة ظلت كلتاهما عَلَى وقفتها، مشاعرهما لَا تعي مَا الَّذِي يَجِب عَلَى أيٍّ مِنْهُمَا فعله! لتُبادرها سيًّا فحركت رَأْسَهَا بحركة خفيفة وعينها تُلقي سؤالًا لَمْ يَسْتَطِعْ صوتُها المُحْتَبَسَ إطلاقَه! بَعْض الأسئلة لَا نَجْرُؤ على طرْحها خوفًا مِنْ صفعة الإجابة! فنحيا عَلَى جمر الاحتمال أهوَن مِنْ أَن نُذبح بنصل اليقين! «**هَلْ هَذَا يَحْدُثُ حَقًّا؟! كلتاهما هُنَا الآنَ! لَمْ تفقد عقلها**»، لتهز زُمُرُّدة رَأْسَهَا اهتزازة تأكيد كأَنَّ عقلها سمع رَغْم أن قلبها هُوَ مَنْ وعى!

أَلْقَتْ بنفسها داخل حضن أُمِّها دُونَ سابق إنذار، فتَبدَّد قلق زُمُرُّدة وأطبقت يَدَهَا عَلَيها تضمها لصَدْرِهَا، انسابت دموعها المُتحجرة عَلَى خديها، ابنتها بَيْنَ أحضانها بَعْدَ عمر مِنْ فَرَاق أدمى قلبها وأَهْلَكَ روحها، فليت قيودهم مَا كَانَت تُعذبها وتقُضُّ عَلَيْهَا محبسها، بَلْ طفلتها الَّتِي خلَّفَتها وراءها وقلبها يذوب خَوفًا عَلَيْهَا، تدعو اللّٰه أَلَّا يمسها سوء، تكبدت كُلَّ هَذَا العناء لأجلها، تبتهل للّٰه يَوْمًا بَعْدَ يَوْم أَلَّا يعثروا عَلَيْهَا.

بَعْدَ لَحْظَات تمنت لَوْ طَالَتْ دهرًا ابتعدت سيًّا عَنْ حضنها، تمسح دموعها الَّتِي أغرقت وَجْهَهَا، لتُمسِّد زُمُرُّدة عَلَى شَعْرِهَا...

- علمتُ أَن آصَف سيفهم مغزى رسالتي.

- بالحقيقة رُونَا مَنْ حلَّت اللغز.

أجابت مِنْ بَيْنِ شهقات دموعها، لتبتسم زُمُرُّدة بعطف...

- أوه، رُونَا أوفت بوعدها وجعلت مِنْك أميرة جميلة.

رفعت حاجبها بنظرة مُتشككة بكونها تصلح لكلمة أميرة، تساءلت بجدية...

- كَيْفَ يُمكننا أَن نكون هُنَا الآنَ؟

- لأنني بتِلْك اللحظة نائمة هُنَاك، وأنتِ كذَلِك.
- كُنْت هُنَا سَابقًا، كَيْفَ لَمْ أعرف أنَّكِ هُنَا؟
- لأنَّكِ بالمرة السابقة أَتَيْتِ إلَى الحاضر.

رفعت حاجبها استغرابًا، لترد زُمُرُّدة قَبْلَ السُّؤَال...

- نَحْنُ الآنَ فِي الماضي، أنتِ بالسَّدِيم فِي زمنٍ آخَر، زمنٍ ولى ولَنْ يعود.

تلفتت حَوْلَهَا لتؤكد عَلَى مغزى كلامها، وأضافت...

- كلتانا فَقَطْ مَنْ يمكنه التجوال بَعيدًا فِي الزمان والمكان، لَنْ يَسْتَطيع أَحَد مِنْهُمَا أَن يعثر عَلَيْنَا هُنَا.
- لَكِن آصَف أخبرني أَن قواكِ استنزفتها القيود!
- التجوال أَمْر مُخْتَلف، شَيْء لَا يمكنهم الاستحواذُ عَلَيْه، أَوْ سَلْبُهُ مِني، غَيْر أَن هَذَا المعبد لَهُ سِحره الخاص والَّذِي أعتمد عَلَيْه فِي إخفاء أثرنا هُنَا، وهُنَا حَيْثُ انتظرتك كَثيرًا.

ردت بنظرة حانية، ليزداد اختلاج سِيًّا وتضارُب مشاعرها وصوتها، تَقدَّمَت خطوة تُمسك بيدها...

- كَيْفَ أستطيع إخراجك مِنْ هُنَا؟
- لَنْ تستطيعي.

عبس وَجْهُهَا، لتقترب زُمُرُّدة وتُربِّت عَلَى خَدِّهَا...

- لَا تبتئسي، لَيْسَ مُقدرًا لَكَ أَن تفعلي، غَيْر أَنَّهُ لَيْسَ خطأك مِنَ البداية، أَنَا مَنْ يَجب أَن يعتذر عَنْ كُلِّ هَذَا.

زاد حزنها وتهاوت دموعها...

- كَانَ يَجب أَن أستمع إِلَى رُونَا حِيْن طلبَت إِلَيَّ الابتعاد عَنْ والدك، لكنني لَمْ أستمع، وقعتُ بعشقه.

تنبهَت، مسحَت دموعها والْتمعَت عينها...

- هَلْ قابلتِه؟ هَلْ قابلتِ تَمِيم والدك؟

اضطربت عينها وهربت بَعِيدًا، تُغلقها وتُغلق عقلها عَلَى ذكرى موته الأليم، تبتلع غصة علقت بحلقها...

- نَعَمْ قابلتُه... وَمَا زَال يُحبك.

- أوه تَمِيم مَنْ تخليت عَنْ عهدي لأجله، خبريه كَمْ أحبه.

زادت بابتلاع مرارة حلقها، تدفع أنفاسها خَارجًا غصبًا، فَلَنْ تَسْتَطِيع إخبارها بموته، لَنْ تَسْتَطِيع فعلها، لَيْسَ الآنَ وَلَيْسَ وهِيَ حبيسة...

- بِالتَّأْكِيدِ سأفعل.

الْتفتت للجهة الأُخْرَى تُحَاوِل السيطرة عَلَى ألمها...

- لَا بُدَّ أَن هُنَاك طريقة لإخراجك؟

- اهربي.

- مَاذَا؟!

الْتفتت نحوها دهشة، لتُطبق زُمُرُّدة عَلَى كتفها...

- اختفي بَعِيدًا، لَنْ يَسْتَطِيع أَحَد إيجادك.

- لَنْ أتركك.

- لَا يُمْكنك إخرَاجِي، لَا يُمكِنك إعطَاؤهما الكِتَاب.

صمتت لَحْظَة وبنظرة جادة ونبرة حازمةٍ آمرةٍ...

- إيَّاكِ أَن تفعلي، لَيْسَ لأجلي ولَا لأجل أَيِّ أَحَد بِهَذَا الكون.

أغمضت عينها وابتلعت يأسها الَّذِي يسكن عينها وصوتها...

- إن اعتقدتِ أنَّكِ سَوْفَ تعطينه الكِتَاب وسيتركني...

- لَنْ يفعل.

انتفض جسدها، فتحت عينها توجسًا، لاحظت سِيًّا ارتباكها المفاجئ ورجفة اختلاجاتها، أَتْبَعَت بنظرة مضطربة...

- لَنْ يُجازف بترك وريثة العرش الشرعية حية، يعلم أَن الجميع سينقلب ضِدَّهُ إن فعل.

زفرت بارتياح لَمْ تُخطئه عين سِيًّا، الطمأنينة الَّتِي احتلت وجه أمها بَغتة بدت عجيبة! لترتبك زُمُرُّدة وتدارك رَدَّ فعلها بنبرة اصطنعت تأكيدها...

- مِنَ الجيد أنَّكَ تعرفين.

زاد إحساس سِيًّا توجسًا بأن هُنَاك شَيْئًا غامضًا! زُمُرُّدة تُخفي شَيْئًا! وسَوْفَ تعرفه! فحاولت اختراقها وفشلت!

لوهلة هَوَى قلبها لاعتقادها أَن ابنتها تعلم! تقدمت خطوة أَمْسَكَت يدها، وبنظرة حزينة ونبرة مُنكسرة مُشفقة عَلَيْهَا...

- خذي والدك واهربي.

تراجعت خطوات للخلف بنظرة لَمْ تفهمها زُمُرُّدة أهي مُوَافَقَة، رفض، استسلام، أمْ ضياع! لَكِن المعاناة الَّتِي حفرت خناجرها بوجه ابنتها لَمْ تُخطئها عينها، فالألم المُنسل بَيْنَ دموعها الصامتة اختصر كُلَّ حرف قَدْ

يُقَال، شعرت زُمُرُّدة بشيء يَخِزُ عقلها! جعلها تخبرها بِأَنَّهُ وقت الْوَدَاع، زادت مُعَانَاة سِيًّا أضعافًا، حاولت منعها الرحيل!

فَلَمْ تكد تلتقيها كي ترحل وتتركها خلفها وحيدة مهزومة! لَمْ تكد تستمد مِنْهَا الأمان لتتركها مُشردة بطرقات الخوف والألم! لَكِن يدها لَمْ تقبض إلا عَلَى طيف أملها الَّذِي يتلاشى بَيْنَ أناملها، يذوب برحاها، يتبدد أمام عينيها بثوانٍ مَعدُودة، ويُخلف وراءه فراغًا فِي المكان، وخلَّف فِي نفسها هوَّة سحيقة، إحساس شنيع، مُجحف بجوار كُلِّ مَا عانته سَابقًا ومَا زَالَتْ تُعانيه، تلاشت أمامها وتلاشت مَعَهَا قواها، ودماءُ تمَاسُكِهَا الواهي اندفعت سَيْلًا بَيْنَ ضلوعها، هبطت عَلَى رُكبتيهَا ناقمة ساخطة، والأسوأ خائرة القوى مُستسلمة، لَكِن انكسارها تِلْك اللَّحْظَة كَانَ أَكْثَر حَنَقًا وتغضُّبًا وكُرهًا!

داخل القاعة الدخيلة الَّتِي استيقظوا يَوْمًا ليجدوها بقصر رُوسِيل قَرِيبًا مِنَ القاعة المحرمة، والَّتِي بناها زَارَا بنفسه وأحاطها بكُلِّ تعاويذ السحر الأسود الَّتِي يعرفها للاحتجاز ومحو الأثر، ليمحو وجودها مِنَ الحياة، فَلَا يَسْتَطِيع أحدٌ الشعور بِهَا وَلَا فِي حُلمٍ عابر، لَا يدخلها غَيْرُه ولَا يَقْتَرِب مِنْهَا سواه وأَخْزَم ببعض الأحيان.

عادت زُمُرُّدة مِنْ سُبَاتها عَلَى صوت الباب يُغلق! مُثبتةً داخل القيود الَّتِي أصبحت رفيقة حياتها البائسة، جاهدت لفتح عينيها الواهنتين رَغْمًا عَنْهَا، تُحَاوِل إيقاظ وعيها الهارب، رفعت رَأْسَهَا الساقط فَوْقَ كتفها برويَّة مَغلُوبة عَلَى أمرها، تمنت لَوْ لفظت أنفاسها مُنْذُ أمد بعيد.

ترى كُلَّ مَا كَانَتْ تتنعم بِهِ ويُميزها مَا هُوَ إلَّا نقمة ووبَال عَلَيْهَا، فَلَمْ تعُد تدري مَنْ مِنْهُمَا لعنة الآخَر! مُبتَل بِهِ ليُدمر حياته! ظلت حبيسة الخوف والهروب لأعوام، كأَنَّ فِرَاق ابنتها وزوجها لسنوات لَمْ يَكُنْ كافيًا لسحقها، لتصير حبيسة قيودها وسجنها لأعوام أُخْرَى! لتعيش سنواتها تتمنى المَوْت ولَا تَسْتَطِيع الحصول عَلَيْهِ!

استردت بَعْضًا مِنْ وعيها عَلَى صوت خطواته المتباطئة، أعادها حضوره عَنوة مِنْ حِضن ابنتها الدافئ، يتجول حَوْلَهَا، تتكور عَلَى نفسها فِي مُنتَصَف الغرفة فَوْقَ حَشيَّة وثيرة كجنين يتحصن ببطن أمه يتشبث بضلوعها، قيودها مُرتخية عَنْ جسدها الَّذي لَا تُفَارقه، رمق بِطَرْف عَيْنَهُ طعامها لَمْ تقربه، أشاح بوجهه للجهة الأُخْرَى «**بَرَدَ طَعَامك**» تمتم دُونَ اكتراث، لَمْ تقوَ عَلَى اختلاجة غَيْر حركة عينيها الواهنتين، تَقَدَّمَ خطوة نَحْو زاوية الغرفة يتلاعب بِطَرْف أنامله بدخان يتصاعد مِنْ لهيب شمعة تقبع بِهَا...

– لَنْ يُغير امتناعك عَنِ الطعام شَيْئًا.

تَمَهَّل دُونَ أَن يلتفت وبنبرة باردة...

– إن كَانَت ابنتك مَا يُقلقك، فَمَا زَالَتْ عَلَى قيد الحياة... حَتَّى الآنَ.

حاول دُونَ أَن يُبدي اهتمَامًا دفْعها لتناول الطعام الَّذي امتنعت عَنْهُ مُنْذُ لَيْلَة المعركة، ظنًّا منها أَن ابنتها قُتلت! فبالنهاية يهمه أَن تظل تتنفس، فلَدَيْه الكثير مِنَ الخُطَط لأجلها! خُطَط لَا يعلمها سواهما! هُوَ لَمْ يتركها حية لسنوات لتأتي اليوم وتفر مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ! لَيْسَ بَعْدَ كُلِّ مَا تكبده يسمح لَهَا بالهروب مِنْ قبضته وإن كَانَ موتًا!

عاود التفاته وخطواتُه تَباطَأت قَرِيبًا مِنْ رَأْسِهَا، عَقدَ ساعديه خلف ظهره وعَيْنُهُ مُعلقة بخيوط الضوء الَّتِي تتسرب مِنْ شموعٍ مُتفرقة بأركان الغرفة، بذات النبرة...

– عنيدة وقوية كأمها وجَدَّتها.

ابتلعت غصة تؤلمها، استمرت خطواته الهادئة تتجول حَوْلَ الحَشِيَّة...

– منَ الغباء أَن أُنكر هَذَا، كُنْت أتساءل دَومًا كَيْفَ تصمدين ضدَّ قُيُودِ الخضوع لسنوات، وأنتِ بمثل هَذَا الضعف والوهن؟! فكرتُ رُبمَّا يكون السحر، لَكِن السحر لَا يمكنه إحياء الأمل بداخلنا وجعْلنا قادرين عَلَى تحمُّل مُعَانَاة بِهَذَا القَدْر...

رمقها بنظرة جانبية...

– حَتَّى ظهرت ابنتك، كَيْفَ لَمْ أشكَّ للَحْظَة فِي هَذَا الاحتمال! تمسُّكك بالحياة، مُقَاومتك المُستمِيتة، فَهِي سر صُمُودك، يَقُولُونَ إن غريزة الأمومة أقوى الغرائز وأكثرها شراسة عَلَى الإِطْلَاق، الأم قَدْ تُشعل جحيمًا وتهدم عوالم لأجل حماية أبنائها.

الْتفتت نحوه وثبَّتت عينها بعينه، حاول لعقود اختراقها لمعرفة مَا تُفكر بِهِ، مَا ينتفض بداخلها هباءً، فالقنينة الَّتِي تجرعَتها قَبْلَ لَحْظَات مِنْ وصولهم إِلَيْهَا جعلتها سدًّا منيعًا للجَميع، وحَتَّى لسِيًّا الَّتِي حاولت معرفة سبب ردة فعلها الغريبة مُنْذُ دقائق لَكنَّهَا فشلت.

رشقته بابتسامة باردة، تجعله يَودُّ لَوْ يقتلع قلبها، ابتسامة تحتقره، تزدريه، تخبره أَنَّهُ لَا يساوي شَيْئًا، تُعريه منَ الداخل، تُلقيه أمام أَسْوَأ مخاوفه، أمام مرآة قلبه المُتكَسِّرة ليرى شُروخ روحه المشوهة، لَوْ أَنَّهُ

يَسْتَطِيع قطع عُنقها ليمحو تِلْك الابتسامة الشيطانية عَنْ وَجْهِهَا، لَوْ ينتزع نظرتها القاتلة مِنْ داخل عينيها، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيع!

كلاهما يَعْرِف حُدُود الآخَر! أَيْنَ تبدأ قوته وأَيْنَ منطقة ضعفه! وجروح روحه مَتى وكَيْفَ يَنْكَؤُها دُونَ هوادة! صراعهما مُخْتَلف! حرب يعلم كُلّ خصم فِيهَا قُدرَات غريمه وحدود سطوته! كُلّ الخطوط الَّتِي يمكنه لَيْسَ فَقَطْ تخطِّيها، بَلْ وحرقها كي يصل إِلَى مُبتغَاه! حرب الجميع بِهَا خاسر مَهْمَا طَالَتْ!!

تعلم أَنَّهُ يتلذذ بتعذيبها، لأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيع قتلها! فمِن دونها كُلُّ مَا فعله يَذهب سُدًى، يَتنَاثر أدرَاج الرِّياح! جحيمها الماضي والآتي! إثمها الَّذِي لَمْ تقترفه لَكِنَّهَا تُكفر عَنْهُ كُلَّ يَوْم!

يَعْرِف أَنَّهَا تحتقره ولَا تُخفيهَا بَلْ تقذفهَا بوجهه كُلَّمَا سنحت الفُرصة! وكَيْفَ لاَ وهُوَ قَاتِل عائلتها ومُغتصب عرشها؟! خائرة واهية تُقَاوم بضعف واهن، اعتقدها وحيدة مهزومة، بَيْنَ فكيه لُقمة سائغة، لتصدمه بضعفها يُفتت كُلَّ جبروته عَلَى صَخْرَة صمودها وكبريائها! لَمْ يَسْتَطِعْ يَوْمًا إخضاعها بكُلِّ الجحيم الَّذِي يُذِيقُها إِيَّاهُ، كَثِيرًا مَا يشعُر أَنَّهَا مَنْ يُرضخه! وهَذَا أَكْثَر مَا يخنقه!

كلاهما مُنقَاد داخل دائرة القَدَر الَّتِي تكبلهما بلا رَحْمَة! يخاف الآخَر، يكرهه ويخشاه! سِرُّهما قَيْد يُخضعهما رَغْمًا عنهما! يستنزف قِواهمَا ويُهلك روحهما وما تبقَّى مِنْ طاقة احتمالهما!

ندَّت ابتسامتها المستحقرة لَهُ عَنْ طرف ثغرها الذابل...

– أيمكنك قتلي الآنَ! فحديثك مُضجر أَكْثَر مِنْ قُيُودك البالية.

ضغط قبضته، ينحني نحوها بنبرته الباردة الَّتِي تُغلف بركانًا داخلها...

- لَا تختبري صبري طَويلًا، تعلمين أنني لَمْ أُخَطِّط يَوْمًا لقتلك، بِالتَّأْكِيدِ أنهُ أخبرك، فَلَا تضطريني لفعلها.

تعرف أَن قتلها لَمْ يَكُنْ يَوْمًا بمُخَطَّطَاته! قذفته نظرتها الَّتِي تَزيد اشتعال حنقه، دفاعها وهجومها الوحيد ضِدَّهُ لسنوات، ليَزيد بانحنائه ويُجَاهد لتَصنُّع بروده...

- لَا أُنكر أَن مُفَاجَأة ابنتك أزعجتني بِالبداية، لَكِن الآنَ وبَعْدَ مَا تمتلكه منْ قُوَّة سأحصل عَلَيْهَا، يَجِب أَن أشكرك؛ فبالنهاية الأَمْر يَسْتَحِقُّ الانتظار.

لمْ تُبدِ اهتِمَامًا لِمَا تَفَوَّهَ بِهِ! كأنه لاَ يعنيها! فَإِنْ كَانَ تصنُّع البُرود وعَدَم المُبَالَاة حيلته المفضلة، فَهُوَ حياتها الَّتي عاشتهَا، علَّمَتها قسوة الحياة أن تَصْرُخ داخلها وتنزف روحها منَ الأَلم والخوف والضياع بَيْنَ ضلوعها، وتخرج للعالم ترتدي معطف صُمُودها وتَاج ابتسامتها وتجلس إِلَى عَرْش قوتها ملكة بكبريائها!

يرى عينها ساكنة لَا تُبدي اختلاجة، فاعتدل بابتسامته الساخرة...

- أراهن بكرسي العرش أَن هَذَا العقل المُغيب لَا يَزَال غَارقًا بقصص رُهَانَا قَبْلَ النَّوْم! تظلين تتقمصين دور الأميرة المدللة حَتَّى داخل قيودك!

الْتفت للجهة المقابلة مُغَادرًا، فأوقفه صوتها...

- هَلْ تمتلكه؟

الْتفت بنظرة مُستغربة، لتلبُّسها ابتسامتها الشيطانية...

- كرسي العرش الَّذِي تُرَاهِن بِهِ!

اغتلت عَيْنُهُ، لتزداد ابتسامتها إذلالًا لَهُ...

- بالطبع تُراهن بالنسخة المزيفة الَّتي تجلس إِلَيْهَا، وَلَيْسَ كرسي أسلَافِ الَّذِي لَمْ تَسْتَطِعْ لمس غُبَاره، فَهَذَا كُلُّ مَا تمتلكه... سَرَاب.

بلَحْظَة وجدَته أمامها وعَيْنُهُ تشتعل سُخطًا تكاد غشاوته السوداء تُغلفها، لَمْ يَعُد يَسْتَطِيع كبح بُركَان كُرهه، فزاد تَأَلُّق عينها الذابلة بَعْدَمَا أوصلته لِمَا أَرَادَتْ...

- لَا تعتقدي لِلَحْظَة أَنَّهَا تَسْتَطِيع الوصول إِلَيْكَ، أَنْتِ سجينةُ إرادتي، ذليلة مشيئتي، لَا شَيْء ولَا أَحَد بالكون يُمكنه تغيير هَذَا، فَلَا تبتهجي كَثِيرًا، الحشرة الهجين سَوْفَ أسحقها بَيْنَ أصابعي، وأُعلقهَا أمام عينيك عَلَى باب عرشي، حَتَّى المَوْت لَنْ يُخلصهَا مِني.

زاد سخطه، يُطبق يده عَلَى شَعْرهَا، يسحبها بحدة حَتَّى اصطدمت بصدره، كتمت ألمها وابتلعت أَنَّاتها لتُزيد هيجان شيطانه الَّذي ينتظر صُرَاخها وتوسُّلها مُنْذُ واحد وعشرين عامًا ولَمْ ينَلْها يَوْمًا! حَتَّى اليوم الَّذِي رنت صرختها بجنبات القصر للمرة الأولى والأخيرة كَانَتْ لأجل ابنتها، فخبرها كَذبًا أَنَّهُ قتلها.

أفلت شَعْرَهَا، قبض عَلَى عُنقها حَتَّى كادت تختنق بَيْنَ أنامله كمُفترس أطبق مَخَالبه عَلَى فريسته، والغشاوة عَلَى عَيْنِهُ تتواتر بَيْنَ اتساع وضِيق...

- لَا أَحَد قَدْ يُفسد خُطَطنَا المستقبلية... زوجتي العزيزة.

تباعدت أنفاسها زاغت عيناها، تلاشى وعيها ببُطء بَيْنَ مخالبه الساخطة، دفعها للأسفل، ارتطمت رَأْسَهَا بالحَشِيَّة، لَحْظَات وغَابت عَنِ

الوعي، هب خارجًا قَبْلَ أَن يقتلها، عادت لغياهب الهروب مِنْ وجودها البائس إلَى التجوال بأحلامها فِي ذَاتِ المكان لَكِن بَعِيدًا فِي الزمان!

ارتدَّت مِنْ سُباتها، عيونها خائفة مُترقبة، حاولت أَن تفهم مِنْ آصَف مَا حَدَثَ لَهَا عَلَى الجهة الأُخْرَى وكَيْفَ سالت دماؤها! لَكنَّهُ لَمْ يَملِك إجابة لأي شَيْء، خَاصَّةً للجرح الَّذِي ترك أثره بجبهتها كأنه جُرح قديم مَا أدهش الجميع! كُلُّ مَا أكده أَنَّهَا لَمْ تُغَادر قاعة الحياة، وهَذَا حقيقي تَمَامًا، فهِيَ لَمْ تُغَادر المكان لَكِنَّهَا غادرت فِي الزمان، لَمْ تُخبر أحدًا عَمَّا استشعرت مِنْ أَن زُمُرُّدة تُخفي شَيْئًا، الأَمْر لَا يَحْتَمِل مَزِيدًا مِنَ التشتت، فآثرت الصمت علها تجد مَا يُكذب ظنونها وتكون محض تَخيُّلات!

لَكِنَّهَا سألته لِمَاذَا لَمْ تَسْتَطِع اختراق أفكارها! فخبرتها رُونَا عَنِ القنينة، فصمتت لَكِن آصَف تعجب لِمَاذَا حاولت اختراق أمها! وملامحها وهِيَ تحكي عَمَّا دار بَيْنَهُمَا تَشِي بشيء تُخفيه!

هدأت وتيرة انفعالها، جَلَسَتْ ترقُب الجميع، عقلها المحلق يحُط بشواطئ، كُلٌّ مِنْهُمْ يُفتش عَنْ طَوْقَ نجاة، وإن كَانَ طَوْقًا باليًا لَكِنَّهُ - وفِي اللَّحْظَة الراهنة - كُلُّ مَا يُمكنها الحصول عَلَيْه، يتنقل بَيْنَ أفكارهم المتناحرة، المتصارعة بَيْنَ كُلِّ احتمالات الماضي والحاضر تارة، وكافة النتائج لنهايات المستقبل المُرتقب وغَيْر المحسوب تارة أُخْرَى.

لَكِن لَا أَحَد مِنْهُمْ يَملك ذَاتَ الفوضى الَّتِي تُغرق عقل رُونَا وآصَف! فَكُلٌّ مِنْهُمَا يحمل بداخله آلاف الأسرار المبعثرة! تُحَاوِل جَاهدةً فهْم أَيِّ

منْهَا، لَعلهُ يُوصلها لإجابة، عَبَثًا، جميعها خيوط مُتقَاطعة مُتشابكة بألْف خَيط، تتشابك وتتعقد حَتَّى تكاد تخنقها داخل عُقدتها المُحكَمة دُونَ أملٍ بالوصول لحل.

تَوقَّف عقلها حَيْثُ صدَمَته موجة عَاصِفَة داخل رَأْسِ أَحَدهِمَا! استطاعت فك طلاسم أَحَد ألغازهم المتناثرة، لتزداد حركة رَأْسِهَا بتوتر وَاضِح مَعَ صوت ضحكة مُتقطعة ساخرة بحنق لَمْ تُوارِه، جذبَت عيون الجميع المُستغربة نحوها، تَسارَع غيظها ليطفو بكامل وَجْهِهَا ونبرتها...

- حَتَّى أَنْتَ يا آصَف!

ران لآصَف أَنَّهَا علقت داخل موجته المتخبطة، ليتنهد بأَسًى، أحنى رَأْسَه بَيْنَ يَدَيْهِ، حنقت نظرتها الساخرة...

- أقرت رُهَانَا ضدك حُكْمًا بالنفي لأَنَّك أردت سرقة الكتَاب!

- أردتُ الاطلاع عَلَيْهِ فَقط، رؤية مَا يحتويه.

اختلج صوته خَائرًا، فغر الجميع أفواههم دهشةً، وقفت رُونَا مذهولة، تَقدَّمت منْهُ خطوة وتُشيح بيديها بغضب...

- كُنْتَ تُخطط لمغادرة السَّدِيم بَعْدَ أَن تستولي عَلَيْهِ؟ لذَلِك كَانَ لَدَيْك النابض بالأزرق؟

حاول تِيَّام تهدئتها، يقف حَائلًا بَيْنَهُمَا، تنهَّد ومَا زَالَ عَلَى جلسته...

- كُنْت...

- لَا يهمُني، سأحصل عَلَيه، وأُعطيه لَهُ وأَسْتَرِدُّ أمِّي.

صَرَخَت بوجهه وألْف شَيْطَان يُوغر صَدْرهَا ضِدَّ كُلِّ شَيْء، أنهكَتها الفوضى والخداع مِنْ حَوْلِهَا، الجميع يكذب، يُخفي شَيئًا.

ذُهل الجميع وأولهم رُونَا الَّتِي الْتفتت نحوها بعيون تمتزج بِهَا الدهشة والخوف والتوتر، ليغضب تِيَّام...

– هِيَ وريثة العرش لَنْ يُفلتها.

– إِنْ أخذ الكِتَاب فلَنْ يحتاجها بشيء.

ازدادت حدَّتها، وفقدت كُلَّ سيطرة عَلَى نفسها، لينتفض آصَف مِنْ مجلسه وقَدْ تخطت ثورته الجميع، لَمْ يرَوْه سَابقًا بتِلْك الهيئة رَغْم كُلِّ مَا مر بهم مِنْ أزمَات! حَتَّى إِن وَجْهَه احْتَقَنَ بحُمرة نارية، مَا أخرس الجميع، تَقَدَّمَ مِنْهَا خطوة...

– لَنْ يفعل، سوف يقتلها.

هتف بغضب أخرسها، كشَّرَت عينها ذُهُولًا غاضبًا، خرجت رُونَا عَنْ صمتها...

– أنت لَا تفهمين شَيْئًا!

– مَا الَّذِي لَا أفهمه؟

صَرَخَت مُجَدَّدًا، خنقهم صمت طاغ، الجميع يترقب وجه آصَف المحتقن بثورته، ووجه رُونَا شاحب كَالأمواتٍ، وسِيًّا لَا تكاد تصل لشيء مِنْ تِلْك الأفكار المتضاربة بَيْنَهُمَا، حَتَّى استقرت ببحر آصَف، جَحَظَت عينها وتباعدت أنفاسها وهوَت إِلَى الكرسي مِنْ خلفها كمن يهوي إِلَى قاع الجحيم! اسْتَطَاعَ عقلها حل جزء مِنَ اللغز، بعض مِمَّا تُخفيه أُمُّهَا عَنْهَا! لتهتف بصوت مُحتقنٍ بالخوف مُتَرَدِّد حائر...

– لذَلك أبقاها عَلَى قيد الحياة؟

علم أَنَّهَا اقتحمت قلاع أسراره مُجَدَّدًا، أومأ بزفرة ألم، لَمْ تَسْتَطِعِ التفوُّه بحرفٍ آخَر، توجست رَحِيل...

- نَحْنُ معًا فِي هَذَا أَلَيْسَ كذَلك!

- زُمُرُّدة هِيَ المختارة، كَيْفَ لَمْ أعرف!

ردت رُونَا بنبرة خائرة، جَلَسَ آصَف بقُربها، ربَّت عَلَى كتفها...

- لَمْ يَكُنْ بالشَّيء الَّذي يُمْكنُ لأيٍّ منَا معرفته، فأنا مثلك لَمْ أكن أعرف، رَغْم أن هَذَا كَانَ وَاضحًا وبديهيًّا مُنْذُ اللحظة الأولى.

اقْتَرَبَتْ دَلين منْهُمَا بارتياب...

- مُختَارة لِمَاذا؟

- مَن اخْتَارَهَا الكِتَابُ لتكون حاميته.

ظَلَّ ثلاثتهم يتبادلون نظرات الجَهْل، بَيْنَمَا سِيًّا أرخت رَأْسَهَا بَيْنَ كفيها بيأس، لتُعاود رَحِيل بتوجس...

- الكِتَاب مَن اختارها! هَلِ الكِتَاب يَخْتَار؟

- الكِتَاب يَخْتَار حارسه، لِذَلِك أبعدَتْها رُهَانَا تِلْك الليلة عَنْ الاحتفال.

زفرت رُونَا بكمد، فالآن فهمَت لِمَاذَا أبعدَتْها ليلتها، لِيُكمل تِيَّام بألم...

- ولأجل الوصول للكِتَاب يُبقيها حية، وحين يصل إِلَيْهِ سَوْفَ يَقتُلها، فَهِي الوريثة، ووجودها خطر عَلَيْه.

ليهز آصَف رَأْسَه بأسًى، لترميهم سِيًّا بسؤال يطن بعقلها...

- لِمَاذَا لَمْ تحضر احتفالات الترقي لَيْلَة إِلكَاي؟

تبادل كلاهما النظرات الصامتة، ليعتدل تِيَّام...

- كَانَتْ مُدللة، ولَمْ تَكُنْ ترغب بالحضور فَلَمْ تحضر.

- أتعنى صُدفة!

قطبت حاجبيها بتهكم...

- صدفة أَن تنجو وحدها مِنْ مذبحة قُضي بِهَا عَلَى عرقٍ بأكمله؟!
صُدفة أَن تبقى برفقة حارسة الملكة الخاصة وأقوى مُحَاربي المعبد خارج حُدُود القصر؟!

وقفت والحنق يزداد بنبرتها المتهكمة، والسخط يركض بَيْنَ تقاسيمها، وعينها مُعلقة برُونَا الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ رفع رَأْسَهَا...

- حارسة كتاب القَدَر، لَمْ تحضر أهم احتفالات المملكة لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ترغب! والملكة تركتها تفعل! صُدفة!

جَلَسَتِ القرفصاء أمام آصَف وعينها مُعلقة بعينه، بنبرة ساخرة...

- لَوْ أملك نصف تِلْك الصدفة لكنت ملكة عَلَى الكون دُونَ مُنَازع!

لتُتابع دَلِين بتعجب...

- سِيَّا مُحقة، لَا بُدَّ أَن هُنَاك سببًا يجعل أهم الأميرات بَعِيدًا عَنِ القاعة المُحرمة فِي هَذَا الوَقْت!

- إِحْدَاهُمَا كَانَتْ تعرف! أَلَيْسَ كذَلِك؟

أخرستهم سِيَّا بالسؤال، مُقَيّدة العَيْنَيْن بملامح كلاهما، طرحت قنبلتها المدوية، البعض صمتًا والبعض هلعًا! ارتسمت ملامح الفزع بوجوه ثلاثتهم، وتيَّام الَّذي فغر فاهه مِنَ الصدمة «**إِحْدَاهُمَا كَانَتْ تعرف!**» بَيْنَمَا لَمْ تُبْدِ رُونَا أَوْ آصَف اختلاجة واحدة تِجَاهَ مَا تفوَّهَت بِهِ! صمْت واهن تغلغل بَيْنَ تقاسيم وجهيهما! هَمَّتْ واقفة تتراجع للخلف بخطوات ثملة مِنْ صفعة الإجابة الَّتِي ارتسمت بعِينهما!

- هزت رَأْسَهَا بابتسامة مُتألمة ساخرة ساخطة، وألْف شعور غاضب رافض مُتناقض يضرب داخلها كإعصَار كَاسح حَانق يأتي عَلَى الأخضر واليابس، لَمْ يَعُد يحْتَمِل مزيدًا مِنَ الصفعات المدوية بجنباته، لَمْ تحتَجْ أَن تركض بدروب عقولهم وراء إجابتها، فهِيَ كشمس تشتعل لهيبًا بوضح النَّهَار! فبدا أن السُّؤَال بالحقيقة هُوَ الإجابة!!

تمنت لَوْ أن توقُّعِهَا يُخفق كحياتها البائسة، كَمْ نكره أَنْفُسِنَا حِيْن نكون مُحقِّين بشأن حدوث مَا توقَّعنا مِنَ الخيبات والفشل، الوجع والانكسار! ليتنا نخسر أمام القَدَر، لَكِنَّهُ يترُكنا نفوز بصحة توقعاتنا المزرية، ويصفعنا بهزيمتنا المدوية لِتسحقنا داخلها دُونَ رَحْمَة!

عادت لمجلسها وعاد السكون ليُلقي بظلاله عَلَى الجميع، لَمْ تُفَارق عينها عين آصَف، تعلم أَنَّهُ يُخفي المزِيد! شَيْئًا يستميت لاحتجازه بَعِيدًا عَنْهُمْ وعنها تَحْدِيدًا! وصوْتها داخل رَأْسِه «**مَهْمَا حاولتَ سَوْفَ أعرف مَا تُخفيه، أعدك.**»

لَمْ يُعِر فضولها وسُخطها بَالًا! صوَّب نظراته خارج النافذة تُحلِّق خلف آخِر خيوط النَّهَار الهاربة، يعلم أَنَّهَا سَوْفَ تعرف! لَكِنَّهُ يَعْرِف أن لكُلِّ سرٍّ وقتًا مُقدرًا يَقع عَنْهُ ستره فيِه، لَا يهم إن كَانَ مُنَاسبًا لَنَا أَمْ لَا، الأَهم أَنَّهُ الوَقْت الَّذِي يختاره القَدَر ويكون مُنَاسبًا تَمَامًا لَهُ، وهَذَا يكفي!

ركض شروده خلف كِتَابه الأثير، إن كَانَ هُنَاك أَحَد يَعْرِف أسراره فَلَنْ يكون غَيْرَه، قضى نصف عمره عَلَى السَّدِيم يُفتش خلف أسراره، حَتَّى الأساطير الَّتِي نُسجت حَوْلَهُ يعلم أيُّهَا حقيقي وأيُّهَا كَاذب، فكَيْفَ لَمْ يَعْرِف أَن زُمُرُّدَة مفتاح كُلِّ شَيْء!! «**غبيٌّ أَحْمَق**» حنق شيطانه! أغمض

عَيْنَهُ وتَنفَّس بعمق، خرج مِنَ المكان يشعر أَنَّهُ تلقَّى صفعة جديدة مِنَ القَدَر، وشَيْء يُطبق عَلَى صَدْره!

رحلت بَعيدًا فِي الزمان، كُلُّهَا رحل إِلَى يَوْم تكره كُلَّ لَحْظَة فيه أَكْثَر مِنْ سابقتها! ورَغْم ذَلك تعود إِلَيْه مرَارًا وتَكْرَارًا!! تنظر إِلَى لقائهما المحتدم يومها، كَيْفَ لَمْ تُحَارب أَكْثَر لإرغامها على الاستماع؟! لِمَاذَا خَارت عزيمتها سريعًا! وتعلم أَن النِّهَايَة ستطرح الجميع مُشرِدين بطُرقَات المجهول! جَمِيعُنا شُركاء بالخذلان مَهْمَا ادَّعينا أننا لَمْ نفعل!

وقفت زُمُرُّدة داخل قاعة أُمها الخاوية عَلَى عروشها، الغارقة برائحة المَوْت والهلاك، تتذكر آخِر مَا جمعهما، غاصت داخل ذكرياتها بعيونٍ مُغلقة ورائحةُ الماضي تسحبها بَعِيدًا، لتفتحها فتجد القاعة تُشع حياة، كُلُّ شَيْء يتنفس!

تتأمل فتَاة صغيرة تجلس إِلَى حافة السرير! نَدَّى عنهَا ابتسامة انكسار، ترى نفسها بالماضي، تنتظر أمها بثقة عمياء فِي تنفيذ مَا تطلبه كعادتها!

فُتح الباب ودلفت رُهَانَا، تصنمت زُمُرُّدة بنسختيها الصغيرة والكبيرة، كلتاهما خُطفت أنفاسها حِيْن خطت داخل القاعة بخطوتها الواثقة، وقامتها القصيرة، وبشرتها الخمرية بتجاعيد تظهر عَلَى استحياء بَيْنَ تقاسيمها الهرمة، بكُلِّ جلالٍ وهيبة، بثوبٍ بلونها الفيروزي الأثير، تاجها المتلألئ بأحجاره الساحرة وتصميمه الفريد كنصف شمس ساطعة، يستقر فَوْقَ شَعْرِهَا البني الأشيب الطويل المُسدل عَلَى ظهرها،

عيناها الزمردتان الواسعتان بنظرتها الواثقة تسبر أغوارك قَبْلَ أَن تفُوه بحرف، وابتسامة آسرة تسحر لُبك تجعلك مسحورًا مشدوهًا إِلَيْهَا دُونَ تفكير، خطواتها الثابتة تتغرس داخل القاعة كَأَنَّهَا جزء لَا يتجزأ مِنْهَا، تشعر لوهلة أَنَّهَا هُنَا قَبْلَ المكان والزمان وحَتَّى الحياة، الطلة الواثقة القوية القابضة عَلَى شغاف روحك، فَلَا تملِك سِوَى أَن تصبح تابعًا لَهَا مأخُوذًا بِهَا، لتجد نفسك كَوْكَبًا مُعتمًا يدور بفلك نجمها المشع.

ترقرقت دمعة زُمُرُّدة المختنقة بَيْنَ جفونها، ترى ابتسامتها الحانية تنفرج عَنْ طرف ثغرها لنسختها الصغيرة، تَرَدَّدَ بَيْنَ حنايا عقلها صوتُها الرقيق...

- لِمَاذَا أميرتي المدللة لَيْسَتْ بقاعتها تُنهي واجباتها!

قبَّلتها بوجنتها وجلست قرِيبًا مِنْهَا، تُلقي بِطَرْف عينها نَحْو ساعتها الرملية فَوْقَ طاولة صغيرة بالقرب مِنْهُمَا، لتتلعثم الصغيرة...

- هُنَاك أَمْر طارئ يستعدي الحديث بَيْنَنَا يا أُمِّي.

نظرت زُمُرُّدة نَحْو الوصيفات بتوجس، فملأت الحيرةُ عين رُهَانَا الَّتِي أمرت الجميع بالمغادرة، مسدت شَعْرَهَا بالكثير مِنَ الحُبِّ الَّذِي طمأن قلب الصغيرة لترفع عينها بعين أمها...

- هُنَاك شَيْء سيئ سيحدث بالاحتفالات.

تحفزت ملامح رُهَانَا وعادت تأخذ تعابيرها الجادة، لتغمض زُمُرُّدة عينها للَحْظَة كَأَنَّهَا ترتب حروفها...

- أُمِّي لَا بُدَّ أَن تُلغي الاحتفالات لِهَذَا العام.

- هَذَا مُسْتَحِيل!

انتفضت بِعَدَم تَصْدِيق لمطلبها، فأمسكت زُمُرُّدة يدها بنظرة رجائها المعهودة والَّتِي لَمْ تخطئ يَوْمًا هدفها...

- أرجوكِ، شَيْء سيئ سَوْفَ يَحْدُثُ.

- مَا هُوَ؟

- لَسْت واثقة مِنَ الَّذِي رأيته، لَكِنَّهُ سيئ.

صمتت لَحْظَة، عبَرت لمحات خاطفة مِمَّا رأته بعقلها، وبدأت ملامحها تُظهر قلقًا حقيقيًّا، لتزداد حيرة أمها مَعَ تجهُّم ملامحها الواضح، ضغطت يد ابنتها...

- مَا الَّذِي رأيته؟

- دماءٌ كثيرة تُراق، رُبَّمَا لَيْلَة الاحتفال، قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا، لَسْت واثقة، الصورة كَانَتْ مشوشة كَثيرًا.

ربَّتَت رُهَانَا عَلَى يدها وقَدْ عاد وَجْهُهَا لهدوئه...

- كُلُّ مَا رأيتِه حَدَثَ بالماضي، ولَيْسَ المستقبل.

وقفت بنظرة غاضبة ونبرة مُحتجة...

- أعرف جَيِّدًا مَا رأيته، كُلُّ هَذَا المَوْت والخراب لَيْسَ فِي الماضي، بَلْ إِنَّهُ المستقبل والمستقبل القريب.

اعترت رُهَانَا ضحكة هادئة لردة فعل ابنتها، أثارت حنق الصغيرة أَكْثَر لتنتبه، فأَمْسَكَت عَنِ الضحك، وتُشِيرُ بيديها أَنَّهَا لَمْ تقصد، أَمْسَكَت بيد صغيرتها واتجهت نَحْو شُرفتها، تُشير إِلَى مملكتها الهادئة الآمنة الغارقة بالحياة...

- انظري حولك جَيِّدًا يا عزيزتي، كَيْفَ لهَذَا أَن يكون خرابًا بالقريب؟ والقريب العاجل أَيْضًا! نَحْنُ أَكْثَر العوالم أمنًا وقُوَّةً ورخَاءً وتقدمًا.

مسدت خَدَّهَا، تنظر بعينها الصغيرة التائهة...

- نَحْنُ المستقبل، هَذَا العَالم هُوَ إرثنا، والسَّدِيم عرشنا، كُلُّ مَا رأيته أضغاث أحلام، ماضٍ رحل ولَنْ يعود.

لوهلة بدت عيونها مُصدقة مَا تقوله أمها، لَكِن عنادها ورفضها المُتقد أعلن عَنْ وجوده، فخبطت الأَرْضَ بقدميها اعتراضًا، عقدت ساعديها تتراجع خطوات...

- لِمَاذَا لَا تصدقينني! أَنَا كبيرة كفاية كي أُميز مَا رأيتُه.

- ولأَنَّك كبيرة كفاية توقفي عَنْ تذمُّرك وعنادك!

جَاءَتْ نبرتها حازمة، ليزداد غضب زُمُرُّدة ويزداد انعقاد حاجبيها، فترفقت رُهَانَا بنبرتها ونظرتها...

- هَذَا طبيعي أَنْت تتجولين بأحلامك، مَا يَعْنِي...

- أعرف جَيِّدًا مَا يَعْنِي، أخبرني آصَف، وكوني مُتجولة أؤكد لَكَ أن مَا رأيتُه المستقبل وَلَيْسَ الماضي.

أَقَلَتْ أمها عائدة للقاعة، جَلَسَتْ إِلَى كرسيها أمام مرآتها، صَرَخَت زُمُرُّدة بفزع...

- رأيتُكِ تُذبحين أمام كرسي العرش.

تَجهَّم وجه رُهَانَا واعتلاها ضِيق مُفاجئ، بَعْدَ لَحْظَة استتابت لرشدها، تُلملم ثقتها، وقَدْ وصلها انزعاج ابنتها...

- مَنْ فعل هَذَا؟
- لَا أعرف، لَمْ أرَ سوى عينيه الملتهبتين ككُرَتَي نار!
- اهدئي يا صغيرتي، إنَّهَا أضغاث الماضي، لَا أَحَد يمكنه رؤية المُستقبل بِهَذَا الوضوح، لَمْ يفعلها أحد مُطْلَقًا، هَذَا مُسْتَحِيل!

صمتت لَحْظَة وأجلستها إِلَى جوارها تضمها إِلَى صَدْرِهَا، تُهدئ روعها...

- أتعرفين حِيْن تَحدَّثنا عَن الكتاب، وكُلُّ مَا حَدَثَ داخل مكتبة السر الأعظم، والطقوس الَّتِي تمَّت برفقة الكاهن الأكبر، هِيَ مَا يجعلك ترين كُلَّ هَذَا.

أَمْسَكَت وجه صغيرتها بكلتا يَدَيْهَا تُدقق النظر بعينها...

- أنت الآنَ لَهُ وهُوَ لَكِ! يريد أَن يُطلعك عَلَى تاريخه، كُلِّ مَاضيه، مَا ترينه صدى الماضي، هَكَذَا نُطلق عَلَيْه، إِنَّهُ يختبر قوتك.
- أُمِّي اسمعيني، الجميع سيموت، ويعُم الخراب...
- لِمَاذَا لَا تكفِّين عَنْ عنادك! هَذَا يكفي، لدي مملكة بأكملها لأهتم بِهَا، لَا ينقصني سِوَى كوابيسك.

احتدَّت نبرة رُهَانَا ونظْرتها وانتفضَت واقفة، فاحتدَّت نبرة زُمُرُّدة الساخطة...

- أمرك مولاتي.

زفرت رُهَانَا، فعلمت أَنَّهَا أعلنت حرب عنادها بَعْدَ «**مولاتي**»، الْتفتت لَهَا دُونَ اكتراث، فلَدَيْهَا مِنَ الأعباء مَا يكفيها، وبنبرة أَكْثَر قسوة...

- إياك وإخبار أَحَدٍ عَنِ الكِتَاب، أَوْ مَا حَدَثَ فِي مكتبة السر الأعظم! هَلْ هَذَا مفهوم؟

- أمرك مولاتي.

- بيوم الاحتفال تكونين أوَّل الحضور بالقاعة المحرمة.

- كَلَّا.

احتدَّت نظراتها النارية لرفضها، إلَّا أَن زُمُرُّدة عقدت ساعديها وبنظرة تعلمها أمها جَيِّدًا، أعلنت حرب تمرُّدها...

- لَنْ أشاهدك وأنت تُقتلين.

زفرت رُهَانَا بضيق، تعلم أَن الأَمْر لَنْ يفلح، فقررت أَن تُجاريها بشيء تعلم أَنَّهُ أَكْثَر مَا يستفز صغيرتها، فعاودت جلوسها إِلَى كرسيها...

- أَمْ خائفة أَن تُقتلي؟

- لَسْت فِي مُخَطَّطَات الدماء بَلْ فِي مُخططَات الجحيم!

الْتفتت زُمُرُّدة مُغَادرة القاعة دُونَ أَن تنتظر إذنها، شعرت رُهَانَا بِوخزة غريبة تُقلق ارتياحها وتقُض أمَانها، لتوقفها بنبرة مُستفهِمة قَبْلَ أَن تصل إلى الباب...

- إِلَى أَيْنَ تذهبين؟

- إِلَى آصَف لأودعه، ألم تأمري بنفيه إِلَى الرَّوْشَم؟!

فغرت عينها منَ الصدمة «**كَيْفَ عرفت؟**» لَمْ تلتفت زُمُرُّدة لَكِن صوتها جَاءَ خَافتًا ضعيفًا...

- لِكُلٍّ مِنَا مُخَطَّطَاتُه لَكِن لِلقَدَر مُخَطَّطَاته الخاصة لَنَا جَمِيعًا.

بَعْض كلماتها وصلت أذن رُهَانَا الَّتي رحل ارتياحها دُونَ رجعة! فكيف عرفَت مَا قررَته بشأن آصَف؟! أحقًّا صغيرتها ووريثة كتابها وكتاب أسلافها ترى المستقبل؟! حركت رَأْسَهَا نفيًّا بقطعية، مِنَ المستحيل أَن

ترى المستقبل بكُلِّ تفاصيله كَمَا وصفَته! كُلُّ مَا اسْتَطَاعُوا يَوْمًا قراءته مِنَ المستقبل بَعْدَ جُهدٍ مُضنٍ ومضاتٌ خاطفة مُتفرقة! فكيف لَهَا بَعْدَ أَيَّام معدودة مِنْ طقوس السر الأعظم قراءةُ المستقبل بكُلِّ هَذَا الوضوح، وفي سنِّها الصغيرة تلْك؟! «**رُهَانَا أَنْت فقدتِ عقلك، هُوَ فَقَطْ يُرسلها للماضي، هَكَذَا فعل مَعَ كُلِّ مَنْ سبقوها**».

بَعْدَ غرقهَا ببحور الفكر المُتنَاحر، انتفضت عَنْ كُرسِيها إِلَى باب قَاعتها، فتَحَتْه وأشارت إِلَى شَخْص بنهاية الردهة بلباس محاربي المعبد الذهبي، انحنى لهَا، فعادت إِلَى القاعة وتبعها دُونَ كلمة، جَلَسَتْ إِلَى أريكتها الوثيرة وعينُها مُعلقة بآخِر خيوط النَّهَار الراحلة إِلَى حضن اللَّيْل، ليتنحنح بَعْدَ لَحْظَة طَالَتْ، وطال مَعَهَا سكونهَا، ينحني بابتسامة باهتة تُغلف وَجْهَه...

- أوامر مولاتي؟

- نُوَاه.

انحنى مُجَدَّدًا أمامها بابتسامته المعهودة، لتُشير بِعَدَمِ اكتراث...

- زد مِنَ الحراسة داخل القصر والمعبد، وتأكد بنفسك أَن كُلَّ شَيْء يسير بدقة خلال الأيام القادمة وأثناء الاحتفالات تَحْديدًا، لَا أريد خطأً واحدًا، أَوْ أَيَّ مفاجآت غَيْر سارة أَوْ غَيْر متوقعة.

- أوامر مولاتي نافذة، لَكن هَلْ مِنْ شَيْء يستدعي ذَلك؟

رمته بنظرة جامدة مُسْتَنْكِرَة ليبتلع بَعْدَهَا سؤاله وحروفه ولسانه.

دلفت رُونَا، فأشارت لَهُ بالمغادرة، انحنى بابتسامته المعهودة، ابتسم لرُونَا وغمزها بِطَرْف عَيْنِه، بادلته إياها بطريقة مرحة، تصادما في

الكتف بالمُنتَصَف، عبرها ونزع ابتسامته الَّتِي كادت تخنقه، ويتلمَّس النابض بالأحمر بخاتمه.

التقطت عينها تجهُّمَ ملكتها ولاحظت شرودها...

- هَلْ كُلُّ شَيْءٍ بخير يا مولاتي؟

- أريدك أَن تَبقَى مَعَ زُمُرُّدة فِي المعبد أثناء حفل الترقي.

صُعقت مِنْ طلب ملكتها فَقَدِ انتظرت الكثير ورتبت الأكثر مِنْ أجل هَذَا اليوم، لتتساءل بتلعثم...

- أَلَنْ تحضر الأميرة الاحتفالات!

زفرة ضِيق ونظرة أَسًى كَانَتْ إجابتها، وقفت، ربَّتت عَلَى كتفها...

- لَا أطلبه مِنْك لِأَنَّهُ أَمْر ملكي يَجِب عليكِ تنفيذه، كَلَّا، فَهُوَ طلب مِنْ أُمٍّ لابنتها.

- أوامر مولاتي.

رفعت حاجبها بنظرة مُغتاظة تبسمت لَهَا رُونَا...

- أوامر أُمِّي، لَكِن...

- أنتِ هُنَا تُقدمين لي مَا هُوَ أعظم.

قاطعَتها، تساءلت رُونَا باهتمام...

- هلا تُخبرني مولاتي مَا هِيَ مخاوفها؟

- بَعْدَ الاحتفال إما أَن تكون مخاوف وإما أضغاث أحلام!

تنهدت رُهَانَا، ربَّتت عَلَى كتفها بنظرة قلق لَمْ ترها مِنْ قَبْلُ...

- تذكري كَمْ أثق بكِ، إن حَدَثَ أَيُّ شَيْءٍ لَا أَحَد سواكِ يَسْتَطِيع حمايتها.

لَمْ تقل شَيْئًا، عادت رُهَانَا لكُرسيها وشرودها.

غادرت رُونَا القاعة، ورَغْم حيرتها مِنْ نظرة الاضطراب الَّتِي لَمَحَتها بعين ملكتها، وكلامها المُبهم عَنْ حماية الأميرة، فإن غضبها وحنقها المكظوم ظَلَّا داخلها، لَكِن مَا عساها أن تفعل؟ لَا تَسْتَطيع رَدَّ أَمْر لملكتها! فمَاذَا لَوْ خاطبَتها كأُمِّهَا؟ هَذَا يجعل طاعتها عمياء دُونَ سؤال أَوْ حرف!

لَمْ تَكُنْ ملكتَها فَقَطْ بَلْ أُمَّها وسندها، حَبَتها بكُلِّ شَيْء وقرَّبَتها إِلَيْهَا، فضَّلَتها عَلَى الجميع حَتَّى القُوَاد الَّذِينَ يسبقونها مكانةً وعمرًا، واختصتها بأن تكون مُرافقتها وحَارستها وبئر أسرارها، فكيف تعصي لَهَا أمرًا؟!

مَعَ قُرب رَحِيل الشمس إِلَى مخدعها، تتقشع آخر خيوط الضباب مِنْ حَوْلِهُ، يُغلق كتابه الأثير، ابتسم آصَف مِنْ طرف فمه ابتسامة نصر لَمْ يحظَ به مُنْذُ فترة لَيْسَتْ بالقليلة، توالت هزائم القَدَر وضرباته المُوجعة لَهُ ولِكُلِّ توقعاته وما اعْتَقَدَ أَنَّهُ يعرفه، ظَلَّ دقائق يسترد أنفاسه وبَعْضًا مِنْ قوته الَّتِي تخور مَعَ كُلِّ رحلة بَيْنَ دفَّتَي كتابه!

استند إِلَى الجِدَار بيده وخطواتُه تتهادى واحدة تلو أُخْرَى، صعد السُّلم لدورين تاليين ورَغْم الإجهاد والتعب الَّذِي يُرافقه، فإن ابتسامته تحتل جبينه! يتنغم بلحن يحفظه عَنْ ظهر قلب!

وصلت خُطاه إِلَى سطح المخزن، العُلِّيَّةُ فارغة بالكامل، إلَّا مِنْ غرفتين فِي نهايتها، إِحْدَاهُمَا لَيْسَ لَهَا باب وتبدو مُهدمة، والأُخْرَى بدت مُتماسكة ببابها الحديدي، تقدمَت خطواته المتهالكة نحوها، وُضع قفل جديد عَلَيْهَا

بإحكام! تلمَّس القفل وتمتم ببضع كلمات، فانفتح، تبسَّم وهُوَ يدفعه قليلًا، وعَيْنُهُ تلتقي بصقرَي تَليد الرابضين فَوْقَ الْأَشْيَاء الْمُلقاة بكُلِّ مكان، تحفز الصقران لَحْظَة انفرج الباب عَنْ فَتْحَته.

زادت ابتسامته، يترنم بنغمة استدعائهما، تراخى الصقران، نزع قطعة قماش تحجب النُّور عَنِ الغرفة، فأضاءت أرجاؤها، اقْتَرَبَ مِنْهُمَا يتنغم بذات اللحن، وضع يده عَلَى رأسيهما بحنوٍّ فاستكانا لَهُ، بدأ يُردد تعويذة بذات الترنيمة، لَحْظَات وفتح الصقران أعينهما عَنْ آخِرها وقَدِ ابْيَضَّتْ!

فتح الباب عَنْ آخِرِه، يهمس بشوق جارف «**حَلِّقَا**» فانطلقا فِي السماء يصدحان!

فتحت عينيها بَغتة، بَيْنَ الصحو والمنام، تعتقد أَنَّهَا تهذي! لَحْظَة وعاد همس الاستدعاء يترنم بأذنها، ابتسمت بذهول يكاد يُوقف نبضها، أغمضت عينها، تنغمت بذات الترنيمة الَّتِي تضج بأذنها، لتفتح عينيها مُجَدَّدًا فتجد نفسها تقف أمامه داخل الحجرة بعُلِّيَّةُ المخزن المُهدم!

همس آصَف بنبرة مُتوجسة ودمعة هاربة فَوْقَ خَدِّهِ «**زُمُرُّدة... مُدللتي العَنيدة**»، ظلت بُرهة عَلَى دهشتها قَبْلَ أَن تُلقي نفسها بحضنه لَا تكاد تصدق أَنَّهَا تراه مُجَدَّدًا وهِيَ الَّتِي اعتقدت أَنَّهَا ستموت وحيدة.

أطبق يده عَلَيْهَا يضمها بحنانِ أبٍ فارَق ابنته لعمر، فَلَمْ تَكُنْ تلميذته فَقَطْ، ولَهَا كَانَ أباها الروحي ومُعلمها، تبسمَت بدموع تُمطر وَجْهَهَا، وصوت لَمْ تَسْتَطِعْ إيجاده مِنْ شِدَّة شوقها وخوفها واضطرابها ومفاجأتها...

- كَيْفَ فعلتها واستدعيتني؟

- سِيَّا مَنْ فعلت.

زادت عيناها استفهامًا لتزداد ابتسامته، اتكأ إلَى صندوق خشبي خلفه، وقَبْلَ أَن يفُه بحرف تساءلت وهِيَ تتلفت حَوْلَهَا...

- أَيْنَ رُونَا؟

- لَيْسَ هَذِهِ المرة، فلَدَيْنَا الكثير للحديث عَنْهُ وحدنا يا عنيدة.

تبسمت بدموع فرحتها بَعْدَمَا ناداها باللقب الَّذي اعتاد تلقيبها به كُلَّمَا أقدمت عَلَى فعل لَا يروقهُ، شعرت لوهلة أَنَّهَا كَانَتْ هُنَا طوال الوَقْت ولَمْ تُفارقهم قطُّ، جَثَت عَلَى رُكبتيها أمامه وكُلُّهَا مُعلق بِهِ بتوجس، تنهد بأسًى ورماها بنظرة تعرفها جَيِّدًا...

- أشعر أَن الأسوأ لَمْ يأتِ بَعْدُ.

أصاب روحها بسهم مسموم أوقف نبضها وباعد أنفاسها، ارتجف لَهُ داخلُها، أمْسَك يدهًا يُربت عَلَيْهَا بكمدٍ لَمْ يَسْتَطِعْ مُداراته، أجلسها بجواره، وكُلُّهَا محبوس دَاخل آخِر مَا تفوَّه بِهِ «**الأسوأ لَمْ يأت بَعْدُ... هَلْ يَعْرف؟**»، كاد عقلها يُغادرها خوفًا، انتبهت لَهُ، راح يبثُّ لَهَا مخَاوف وقلقًا يسكنه، تراخت أعصابها قَلِيلًا فَلم يَعْرِف!

ألقى عشرات الأسئلة والمخاوف بوجهها، لَكنَّهَا مَا استطاعت أَن تُجيبه عَنْهَا، وإن كَانَتْ كُلّ الإجابات لَدَيْهَا وحدها! هُنَاك أشياء لَا يمكننا البوح بِهَا وإن صَرَخَ ألف شَيْطَان برأسنا أَن نفعل لنرفعها عَنْ كاهلنا، فسنجد أَلف نصلٍ غادرٍ يطعننا لأجلها دُونَ رَحْمَة! بَعْض البوح لَا يُريح بَلْ يَزيد القلب ألمًا والروح مُوتًا!

بالمساء التالي ومَعَ أوَّل نسمة عليلة وأوَّل خيط فضي يُلقي به القمر نَحْو الأَرْض، جَلَسَ فَوْقَ جذع شجرة يابس بالفناء، كُلُّه شارد بمَا دار بَيْنَهُ وبَيْنَ زُمُرُّدة، كَيْفَ لَمْ يجد لَدَيْهَا إجابة لأيٍّ مِنْ شكوكه؟! أتُخفي عَنْهُ شَيْئًا؟! نفض عَنْهُ مجُرَّد الفكرة، لَكِن هُنَاك جزء مِنْ أحجية القَدَر ناقص! أَمْ إن الإجابة تقبع أمامه طوال الوَقْت وهُوَ فَقَطْ لَا يراها؟!

زفر بأسًى، اعْتَقَدَ أَن لَدَيْه مِنَ السحر والكتب مَا يجعله يَفهم كُلَّ مَا يَحْدُثُ، أَوْ بالأحرى حَدَثَ! لَكِن الماضي انقلب عَلَيْه! ورؤياه الَّتي دفع الكثير ثمنًا لَهَا خذلته وتآمرت ضِدَّهُ! ليطرح عقله سؤالًا لَمْ يَعُد باستطاعته تجاهله **«هَلْ مَا جنَاهُ مِنْ خلف شهوته اسْتَحَقَّ الثمن الَّذِي دفعه لأجلِها؟!»**

اصطدمت عَيْنُهُ بقدمَي سِيًّا تقف أمامه وصوتها يُعاود نداءها المستميت، فرفع عَيْنَهُ بعينها...

- أَيْنَ ذهبت؟! أُناديك مُنْذُ بُرهةٍ طويلة!

تنهد بابتسَامةٍ مرحة تَلَبَّسَتْه لمرآها...

- توقفي عَنْ فعل ذَلِك!

اتَّخَذَت مجلسها بجانبه، خبطت كتفها بكتفه بابتسامة مُشَاكِسَة...

- لَا تُنكر أَن الأَمْر شائق، أَنَا داخل عقل آصَف! يا رَجُل الأَمْر يَسْتَحِقُّ.

علت ضحكته، حلق الصمت لِلَحْظَة، ودُونَ أَن يلتفت نحوها...

- لَمْ أحاول سرقته، أَنَا فَقَطْ...

- أعلم، آسفة لمَا حَدَثَ.

- أَنَا مَنْ يَجب أَن يعتذر.

الْتفتت نحوه بَغتةً، ضيَّقت بَيْنَ حاجبيها استفهامًا، ليتنهد بحَسْرَة...

- رُبمَاَّ لَيْسَ لَكِ تحْدِيدًا، رُبَّمَا يَجِب أَن أعتذر لنفسي عَلَى الأقل كونها دفعت ثمن حماقاتي.

- دعني أُخبرك أَن عقلك أَحْيَانًا يكون بِهِ الكثير مِنَ الفوضى الَّتِي أغرق بداخلها، وَلَا أفهم مِنْهَا شَيْئًا، كَالآنَ.

- مِنَ الجيد أَن هُنَاك شَيْئًا لَا يُمْكنك معرفته، هَذَا مُطمئنٌ جِدًّا.

أقلقت ضحكتهما اللَّيْل الهادئ، أَمْسَكَت بغُصنٍ يابس مُلقًى بجوارها تعبث بالتراب...

- مَنْ مِنْهُمَا كَانَتْ تعرف؟

تنهد بزفرة حسرة ونبرة انكسار...

- زُمُرُّدة.

- لِمَاذَا لَمْ تُخبر أمها؟

- لَمْ تُصدقهَا.

حركت رَأْسَهَا بِأَنَّهَا لَمْ تفهم، شردت عَيْنُهُ خلف نجمة بَعِيدَة...

- لَا أَحَد يتعلم مِنَ الماضي، لَا أَحَد يقرأ التاريخ كي يتعلم مِنْهُ، بَلْ يقرؤونه لأنهم يستمتعون بحكايات مُبهرة قَبْلَ النَّوْم! لَمْ يفهم أَحَدٌ الفخ، التاريخ قصةٌ واحدةٌ، والبقية مُجَرَّد إعادة بأشكَال مُتعددة وروايات تُنَاسب أصحابها، نُسخٌ مُكررة.

دققت سِيًّا النظر في ملامحه الواهنة ليسترسل وعَيْنُهُ مُحلقةٌ بالسماء...

- رُهَانَا اغترَّت بِمَا لَدَيْهَا، لَمْ تُصدق أَن كُلَّ إرثها قَدْ ينهار بلَحْظَة! وأن حروب الظلام قَدْ تحدُث مجُددًا، لَمْ تُرِد أَن ترى سِوَى قمم بروجها المُشيدة، لَمْ تشأ تَصْدِيق أَن السوس ينخر بقواعدها، والخيانة تستشري بِأنفَاقهَا، وأن السُّخط ينتشر بطرقاتها، اغترت بإرثها وحاضرها، بقوَّتها وسلطة النُّور الراسخة مُنْذُ آلاف السِّنِين.

التفَت نحوها وبنظرةِ مَنْ يحمل حكمة ألف عام...

- مَنْ يَنظُرْ للأعلى وعَيْنُهُ عَلَى القمَّة وحدها تَغُصْ أقْدَامه بالوحل دُونَ أَن يدري، ومَنْ يَنظُرْ تَحْتَ أقْدَامه وعَيْنُهُ للأسفل فدومًا يصطدم رَأْسُه بكُلِّ شَيْء، عَلَينا أَن نضع عينًا عَلَى القِمَّة كي نصل لمُبتغانا وعينًا عَلَى أقدامنا أَيْنَ تخطو كي لَا نسقط.

ابتلعت ريقها بانبهار، فَدومًا تشعر أمامه بِأَنَّهَا طفل مَا زَالَ يحبو بدروب الحياة الوعرة، تهدجت أنفاسها تُعاود العَبَث بالتراب، تُحَاوِل استدراجه لكشف مَا يُخفيه...

- أخبرني أَكْثَر عَنِ الكِتَاب؟

تنهد، وعَيْنُهُ عُلقت بِمَا ترسمه...

- هُوَ كِتَاب به كُلُّ تعاويذ السحر الَّتِي خُلقت، سحر النُّور والسحر الأسود، الَّذِي يُغرق كُلَّ الأكوان مُجتمعةً، لَا يتخطى كونه صفحةً بداخله.

- مَاذَا؟!

كادت عينها تخرج ذهولًا، ليَزيدها...

- مَنْ يمتلكه يُغيِّرْ أَقْدَارًا ويهدم ممالك ويمحُ عوالم، وُضع ڢ حماية رهبان معبد دَارًا واللاتي أصبحن بَعْدَ ذَلِك ملكات النُّور.

- كُنَّ يستمددن سحرهن مِنَ الكِتَاب!

تساءلت باهتمام ليهز رَأْسَه إقْرَارًا...

- كُلُّ تعاويذ سحر النُّور منْهُ، حَتَّى تعاويذ السحر الأسود تسربت مِنْ داخله؛ لذَلِك حرصن عَلَى إخفائه، فصَارَ وجوده مُجَرَّد أسطورة للكثيرين، ووحدهن مَنْ يعرفن مكانه.

يفرك لحيته بتأمل وتفكُّر كأنه اكتشف شَيْئًا لَمْ يَكُنْ ينتبه لَهُ! أَتْبَعَ بنبرة مشدوهة، كمُناجاة للنفس...

- بالتَّأْكِيد هُوَ مرتبطٌ باللعنة! إن لَمْ يَكُنْ هُوَ اللعنة بحد ذاتها الَّتي تُغلق القاعة بِهَذَا الإحكام! وهَذَا يُفسر فشل زَارَا بفتحها، حَتَّى إنَّهُ حاول هدم جدرانها، ولَمْ يفلح بخدشها، هَذَا يُفسر كُلَّ شَيْء!

- لِمَاذَا لَمْ يتخلصوا مِنْهُ إن كَانَ بتِلْك الخطورة؟

استعادته مِنْ غياهب نفسه، ليُحرك كتفيه بِحِيرةٍ...

- لَا أَحَد يَعْرِف، رُبَّمَا لَمْ يستطعن، فيُقَال إن الكِتَاب لَدَيْه القُدْرَة عَلَى حماية نفسه ضدَّ أيِّ شَيْء، ويُقال إنَّهُ عسل السلطة والقوة، فمَنْ يذُقْه ويتشرب مِنْهُ لَا يَسْتَطِع سوى الانْصِياع له.

- مَاذَا عَنْ حارس الكِتَاب؟

- الكِتَاب مَنْ يَخْتَار حارسه، وبالعادة تطول فترة حراسته ولَا تقصُر لَأنَه يمنحه الكثير مِنْ كُلِّ شَيْء، القوة والسحر والعمر أَيْضًا، فأصبحن هن الوحيدات المنوطات بحمايته مُنْذُ وُضِع ڢ المعبد.

- وُضِع فِي المعبد!

بدت علامات الدهشة تُغرق وَجْهَهَا، فداعب لحيته...

- وجدَته فرقة كشافة بأحد الكهوف النائية بغابة رُوكَان قَبْلَ بداية الحروب الست بقليل، أودعوه المعبد، لَكِن الكتَاب اختفى فُجَاءةً، وبَعْدَهَا اندلعت الحرب والنيران والخراب فِي كُلِّ مكان.

- هَلْ قَامَتِ الحرب بسببه؟

زاد تعجُّبها، صمت ولَمْ يُجِب، لَكِنَّهُ تنهد، فتابعت تسأله...

- ثمَّ؟

- سعت الراهبات فِي إحلال السلام، ثمَّ ظهر الكتَاب مُجَدَّدًا! لَكِن قَبْلَ ذَلك لا أَحَد يَعْرِف مِنْ أَيْنَ أتى أَوْ مَن الَّذي خَطَّه! كُلُّ مَا نعرفه أَنَّهُ أَصْبَحَ تَحْتَ حمايتهن ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ بَعْدَهَا العثور عليه أَوْ حَتَّى رؤيته، وهَذَا برأيي كَانَ أفضل مَا قمن بِهِ نظرًا لخطورته وقوته.

- وهُوَ اخْتَارَ أمِّي!

أكد بإيماءة، لتتساءل...

- كَيْفَ يَخْتَار الكِتَاب حاميه؟ مَا الَّذي يُميزه؟

- يَخْتَار أكثرهم نقاءً وطهرًا، حبًّا للناس وإنكارًا للذات، وكُرهًا للسلطة، يمنحه قُوَّة وسحرًا يفوق كُلَّ أقرانه، واخْتَارَ زُمُرُّدة، وأَعْتَقد أَنَّهُ سر صمودها كُلَّ تلْك السنوات!

تبسَّم وقَدْ تذكَّر شَيْئًا، رفع طرف عَيْنِهُ نحوها وابتسامتُه تلمع بعينه...

- أتعرفين أنكِ ثاني فتاة تُولد لحاميه!

اعتدلت بجلستها، بنظرة تعجُّب، ربَّت عَلَى كتفها بذات الابتسامة...

- الأولى كَانَتْ سِيسِيليَا، أمها كَانَتْ حامية، تسرَّب الكثير مِنَ السحر لَهَا، فامتلكت مَا فاق الجميع، وهَذَا سبب قوتك المميزة وأَعْتَقِد لذات السبب اختارت لَكِ زُمُرُّدة هَذَا الاسم.

- كَيْفَ تتم طقوس السر الأعظم؟

هز رَأْسَه نفيًا بأَنَّهُ لَا يَعْرِف، فَكَانَتْ مِنَ الأَشْيَاء الَّتِي يَتُوق لمعرفتها، لَكِنَّهَا كذَلِك مِنْ أَكْثَر الأَشْيَاء سرية فِي نقل حماية الكِتَاب!

حاولت اقتحام قلاعه، تَصيُّد أسراره الَّتِي يُبقيها بقاع ذاكرته، لعلها تظفر ببُغيتها دُونَ أمل، فتبسمَّت بسخرية، كذَلِك فعل، يَعْرِف أَنَّهَا تُحَاوِل باستماتة...

- منَ الجيد أَن العجوز مَا زَالَ لَدَيْه بَعْض الأسرار لَا يُمْكِنك الوصول إِلَيْهَا.

حركت رَأْسَهَا بدهشة ونبرة مرحة رَغْم غيظها...

- كَيْفَ تفعل ذَلك؟! بلَحْظَة تكون كِتَابًا مفتوحًا لَا أحتاج حَتَّى لتقليب صفحاته، وبالثانية تُصبح سدًّا منيعًا، ليلًا دَاهمًا ومُخيفًا!

ضحك حَتَّى دمعت عَيْنُهُ، وَقف، عَقَدَ ساعديه خلف ظهره المُقوس، يتهادى بخُطًى بطيئة...

- للعجوز حِيَله الخاصة، مَا زَالَ أمامك الكثير لتتعلميه يا صغيرة.

تبسمَّت بغيظٍ، هدأت نوبة ضحكه، تَلَكَّأَ دُونَ أَن يلتفت...

- رُبَّمَا العجوز يجعلكِ تقفين حَيْثُ يُريدك أَن تكوني؟

فغرت عينها ذُهُولًا وتدلى فكُّها السفلي مِنَ الصدمة! تَجَمَّدَ الدم بعروقها والْتفتت نحوه وجِلة بأنفاس ثقيلة! لتجد خطواته الواهنة تتقدم بطريقة دُونَ اكتراث لصخب العالم حَوْلَهُ، وصوت شفتيه يُصدر ذَاتَ اللحن الَّذِي تترنم به رُونَا للصقور! والَّتِي انتبهت تِلْك اللحظة أَنَّهَا تُحلق فوقهما! وعين أمها تُحلق معهما!

الثالث

«لَا تَبدأْ حَربًا لَا تَعْرف كَيف تُنهِيهَا!»

رُونَا

بَيْنَ جبلين شاهقَي الارتفاع، تُلامس قمتُهما الشديدةُ الانحدارِ السُّحبَ، فتتوارى خلفها، فَلَا تلمحهما عين ولَا حَتَّى بأكثر أيَّام السَّدِيم صفاءً، بَيْنَهُمَا ترقُد هضبةٌ عالية، مستويةٌ بإبداع، يحوط حافتها وعَلَى طول امتدادها وامتداد البصر سورٌ ضخم، عالي البنيان يحجب عَنِ العين مَا يقع خلفه، يرتكز عَلَى اثني عشر عمود هائل الحجم، ينتهي كُلٌّ منْهَا بقبة صغيرة أَعْلَى مِنَ ارتفاع السور بعدة أمتار، يجلس داخلها حارسان مُلثمان قويَّا البنيان يَقفان مُتعاكسَين، يحمل كُلٌّ منْهُمَا بيده قوسًا، وفوق ظهره جعبة مَلِيئَة بالسهام، وعَلَى طول السور يمتد الفرسان فِي دورياتٍ مُنتظمة.

لَا يصل بَيْنَ الهضبة وبَيْنَ السهول المحيطة بهَا، سِوَى طريق واحد لَيْسَ وَاسعًا وَلَا ضيقًا، يهبط منحدرًا بروية، مُمْتَدٌّ مِنْ قمة الهضبة حَتَّى السهول.

بنهاية الطريق مِنَ الأعلى وبمُنتَصَف السور، وبَيْنَ أَكْثَر عمودين قُربًا بَيْنَ الجميع، تربض بوابةٌ حديدية عملاقة، مهيبة المنظر، تبدو لمن يقف بالأسفل وحشًا حديديًّا كاسرًا يلتهم كُلَّ مَنْ يَقْتَرِب.

خلفها ووسط الهضبة يرسو قصرٌ جليل المنظر، شامخ الهيئة، مُغلف بلون الذهب الأحمر، حين تلفّه أشعة الشمس من كل اتجاه يبدو للعين كأنه جَمْرَة مُلتهبة، تعلوه قبة زجاجية كبيرة كشُعلة لهب مُتوهجة، صُممت بإتقانٍ ساحرٍ، بلون برتقالي مَائِل إِلَى الحُمرة، مَنْ يَرَهُ عِنْدَ

الغروب والشمس تدنو إِلَى مخدعها خلفه، يعتقدْه شُعلة مُتدلية مِنْهَا! مصنوعة حوافها وقاعدتها مِن الدَّهَّام، المعدن الأحمر النَّفِيس، الأكثر نَدْرَة والأغلى عَلَى السَّدِيم بأكمله.

يحوطه حديقةٌ رحبةٌ غنَّاءُ، بهية الخضرة تلف القصر، يتفرق بَيْنَها جداول مياه جارية موصولة بعضها ببعض تلف الهضبة كاملةً، وتترامى بَيْنَها شبكة طرق صغيرة مُعبَّدة بصخور ملساء مُتداخلة الألوان، مَعَ انعكاس الضوء فوقها يُعطيها لمعة ورونقًا ساحرًا، وبَيْنَ هَذَا كُلِّه يتناثر رُماة السهام والحرس الملثمون بكُلِّ شبر مِنْهَا.

داخل قصر يُورَان المهيب بمملكة دَهَّام، وبقاعة العرش تَحْدِيدًا، والَّتي غُلقت لاجتماع سري طارئ لمجلس الكهنة الأعلى! يجلس الملك سِنِمَّار بكُلِّ وقاره وشموخه، رَجُل يَبْدُو تَقَدُّمَ العمر بَيْنَ شعره الأشيب، تشعر بهيبته، وقُوَّة شخصيته الطاغية عَلَى كُلِّ الحضور، رجاحة عقله، ونظرته المتأنية للأمور تُجبر الجميع عَلَى التزام الصمت بحضرته.

يتمتع ببشرة سمراء يتميز بِهَا أَغْلَبُ سُكان دَهَّام، ويتميز كأكثرهم بقِصَر قامته، وعيونه السوداء، ورشاقة بنيته الجسدية، وإجادته لاستخدام القوس والسهم وإصابة الهدف لمسافات بَعِيدَة، وإن كَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ فاز بكُلِّ مبارزة خاضها دُونَ مُنازع فَهُوَ سِنِمَّار.

يقف أمامه فِي تأدبٍ وسكونٍ تام، كاهنُه وكاهن المملكة الأكبر كَال، صاحب العيون الواسعة، والحليق الرأس والذقن، بزيه الأسود، ورَغْم سنوات عمره الَّتي تفوق عمر ملكه لَكِنَّهُ ظَلَّ مُحتفظًا بعنفوان شبابه، ويتمتع بسحرِه الخاص.

يجلس عَلَى يمينه قريبًا مِنْ كرسي العرش أخوه الأصغر شَاتَاي، الأطول قليلًا مِنْهُ، لَكِنَّهُ أَكْثَر فورةً وقُوَّةً بجسده الممشوق قوي البنيان، فَمَا زَالَ فِي ريعَانِ شبابه.

شَاتَاي الأخ الوحيد والأصغر للملك وولي عهده، وهُوَ عَلَى النقيض يملؤه الطيش والتهور، لَا يُطيق صَبْرًا عَلَى شَيْء يريده، ولَا يُقيم وزنًا لأحد، يُحَاوِل أخوه الإبقاء عَلَيْه داخل دائرة سطوته، ليسيطر عَلَى جنوحه، لَكِن كَثيرًا مَا يُفلت الزمامُ مِنْ يدهِ.

وعَلَى الطرف الآخَر مِنَ القاعة تقف تُولَاي ابنته الكبرى، بنفس طوله تقريبًا، لَكنَّهَا تميل للبشرة البيضاء أَكْثَر، ذَات عيون بنية كوالدتها، بشعر طويل يتخطى خصرها، وجسد ممشوق، تمتلك جمالًا مُتَمَرِّدًا وعقلًا أَكْثَر تَمَرُّدًا! أَخَذَت عَنْ والدها عشقه للمنافسة وتفوُّقه فِي القوس والسهم، والكثير مِنَ السحر.

وبآخِرِ زاوية تجلس مِيلَّا ابنته الصغرى، بقامتها القصيرة وشَعْرهَا الأسود وعيونها الَّتِي تُشبه أباها كَثِيرًا، تُراقب الجميع بصمت كَمَا طلب مِنْهَا، فيُريدها قريبة مِنْهُ لتتعلم.

تُريد أَن تُصبح كاهنة كَكال، مَثَلها الأعلى، ومُعلمها وكذَلِك مُعلم أُختها، رَغْم الخلاف الدائم بَيْنَهُمَا، تُولَاي عنيدة ولَا تقبل أَن يُملي عَلَيْهَا أَحَدٌ مَا تفعله؛ مَا خَلَق دَوْمًا نقطة نزاع بَيْنَهُمَا، لَكن ميلَّا حضرت هَذَا الاجتماع تحديدًا لسبب آخَرَ، «سِيَّا» بطلتها الَّتِي تهفو لَهَا، وتترصد أخبارها!

تنقل تُولَاي عينيها بامتعاض بَيْنَ الكهنة المتناثرين داخل القاعة وبَيْنَ عمها الَّذِي لَا يوجد بَيْنَهُمَا وفاق.

وقف شَاتَاي مُحتدًّا...

- مَا الَّذِي تتحدث عَنْهُ يا كَال؟

اعتدل الكاهن، ينظر بعين ملكه دُونَ إجابة، لينزل شَاتَاي عَنْ كرسيه وقَبْلَ أَن يزيد خطوة، خرج سِنِمَّار عَنْ صمته...

- كَال مُحق بِمَا قاله.

أمال الكاهن رَأْسَه بنظرة امْتِنَان، قبض شَاتَاي عَلَى كفه بغيظ، بَيْنَمَا عمَّ هدوءٌ صارخٌ المكانَ، الكهنة الجالسون بصفَّين متوازيَين أمام كرسي العرش يتناقلون النظرات بوجوم، انتفض الملك وَاقِفًا، عقد ساعديه خلف ظهره، نزل عَنْ عرشه، وبخُطًى مُتمهلة بَيْنَ كلا الصفَّين...

- لَا بُدَّ أَن يكون لَنَا موقف مِمَّا يَحْدُثُ الآنَ.

الْتفت نَحْو كهنته، رفع طرف عَيْنِهُ نَحْو ميلَّا الَّتِي يركض الشغف بَيْنَ تقاسيمها انتظارًا لِمَا سيقوله، عاود النظر نَحْو أخيه...

- فِي وقتٍ مَا لَنْ نستطيع الوقوف عَلَى الحِياد.

- إن سمح لِي مولاي...

حاول كَال استرداد انتباه الملك، الَّذِي أشار لَهُ أَن يُكمل، يستكمل خطبته الَّتِي بدأهَا قَبْلَ أَن يُقاطعه الأمير النزق...

- إن السَّدِيم الآنَ عَلَى شَفَا تغييرات حاسمة، زَارَا يترنح، تِلْك الفتاة كبَّدته خسائر فادحة بفترة قصيرة، الأخبار تتطاير بَيْنَ الممالك كَالنار بالهشيم، قتلت سَطَام وأخضعت جيش الظَّلَام، بِالتَّأْكِيدِ خطوتها التالية ستكون نَحْو قصر رُوسِيل، وعَرْش النُّور.

- إنَّهَا هجين حقيرة، لَنْ يترك أَحَد تِلْك الوضيعة تجلس علَى عَرْش النُّور!

احْتَدَّ شَاتَاي بغضب، ليزداد هدوء كَال ونبرتُه برودًا، وبسمةٌ غزت طرف فمه...

- تِلْك الوضيعة لَنْ تَأْتِي لتأخذ تَصْريح مِنْ مولاي الأمير لتجلس علَى عَرْش أسلافها!

اسْتَشَاطَ وجه شَاتَاي، فتح كَال ذِرَاعَيْه عَلَى امتدادهما ينقل عَيْنَهُ بَيْنَ الجميع...

- لَا أتذكر أَنَّهَا أَخَذَت إذن أميرنا أَوْ أَيِّ أحدٍ آخَرَ قَبْلَ أَن تقتل سَطَام، وتستولي عَلَى أَكْبَر جيش عرفته ممالك السَّدِيم مُجتمعة!

وصل سخط شَاتَاي إِلَى عَنان القاعة فكاد يدكها فوقهم، قبض يده بَيْنَمَا تمنى لَوْ قبض عَلَى رَقبة العجوز المتعجرف أمامه، ندَّت عَنْ وجه تُولَاي ابتسامة خبيثة، ترى العجوز يطرح عمها إحراجًا أمام مَجْلِس الكهنة بأكمله، ويُخبره أَنَّهُ لَا يساوي شَيْئًا، «**ضربة موفقة أيُّهَا العجوز المراوغ**» همست بغبطة لنفسها.

ارْتَدَّ الملك إِلَى عرشه، بنبرة وَقُورة...

- بَيْنَنَا وبَيْنَ ملكات النُّور عَهْد الدم، لَمْ يخلفنه ولَمْ نفعل، ولَا أَحَد يَعْرِف بَعْدُ مَا تنوي تِلْك الفتاة فعلَه، ولَا يَبْدُو أَنَّهَا خصم يسهل توقعه، فأرجو أَن تضعوا كُلَّ هَذَا بالحسبان وتجدوا لَنَا منطقة نستطيع الصمود داخلها، فيبدو أَن العاصفة القادمة ستكون مدوية!

أنهى كلامه، أشَار نَحْو الحرس ليفتحوا أبواب القاعة إشارة لإنهاء الاجتماع.

خرج الجميع أولهم أخوه الَّذِي يكاد يكسر الأَرْض تَحْتَ قدمه مِنْ شِدَّة ثورته واندفاعه، بَيْنَمَا كان كَال آخِر مَنْ غادر بهدوء وخطوات راسخة.

هز الملك رَأْسَه بزفرة يأس للصدام المستمر بَيْنَ أخيه ومَجْلِس الكهنة عامة وكَال خَاصَّة!

وضعت ميلَّا يَدَيْهَا عَلَى كتف أبيها تُربت عَلَيْها بحنان، رَغْم حداثة سنها، فإنَّهَا أكْبَر عَقْلًا وتفهُّمًا للأمور، أَخَذَت عَنْ والدها هدوءه وذكاءه ونظرته المتأنية، ويرى كَال أَنَّهَا النسخة التالية مِنْ سِنِمَّار.

ظلت تُولَاي تنظر نَحْوه بإشفاقٍ، لَمْ تَذْهَب إِلَيْه، فمَا ستقوله عَنْ عجرفة عمها لَنْ يَزيده إلَّا كدرًا فآثرت الصمت وغادرت.

ورَغْم أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مُشجعي ملكَات النُّور كميلَّا مَثَلًا، حَتَّى إنَّهَا قَدْ تتفق مَعَ عمها فِي كون عَرْش السَّدِيم لَيْسَ مِنْ حقِّ هجينٍ وضيعة، لَكنَّهَا لَمْ تَسْتَطِع أَن تُخفي سعادتها لهزيمته بتلْك الجولة، فحنقها عَلَى أَخذه ولاية العهد منْهَا لَا يخفى عَلَى أَحَد، حَتَّى إنَّهَا قَدْ تقبل بسيًّا ملكة عَلَيْهَا لَكِن هُوَ، مُسْتَحيل! فأَخْذه لمكانها المستحق أحدث شَرخًا كبيرًا بَيْنَهُما، ولم تغفرها يومًا لوالدها الَّذِي أصر عَلَى وضع أخيها وليًّا لعهده، ليُسيطر عَلَى نُشُوزه ويضمن ولاءه!

مَعَ انفلات أشعة الشمس المتتابعة دُونَ رادع لَهَا، حَتَّى غمرت كُلَّ بقعة عَلَى وجه البسيطة، بدت مُشتتة الذِّهن، زَائغة العيون، وجَّه لهَا ضربة

قوية لَمْ تنتبه لهَا فكَادت تُسقطهَا أرضًا! اتكأت إلَى حَافة السور، ترمِيه نظرة مُكْفَهِرَّة، حرك تِيَّام كتفِيه دُونَ اكترَاث لغضبهَا، انحنت سِيًّا تسترد أنفَاسهَا، ترَاجع للخلف خطوة واتَّخَذَ وضع الهجوم!

انطلَق نحوهَا مُجددًا، تهيأت لصَدِّ ضربته، لَكنَّهُ أوقعهَا أرضًا، وآلمهَا السُّقوط، فزَاد حَنقهَا، مَدَّ يدهُ لهَا، رمتهُ بنظرة مُغتَاظة، لَكنَّهَا أمسكتهَا فرفعهَا عَنِ الأَرْض، أَلْقَتْ سيفها بضيق وَهَبَّتْ مُغَادِرة، وقف خلفهَا يحُك جبِينه وبنبرة حَازمة...

- عليك أَن تهدئي قلِيلًا.

الْتفتت إِلَيْه بوجه تشتعل براكين استيائه، تَقدَّمَت خطوتين...

- زَارًا لَدَيْه أُمِّي، فعَنْ أَيِّ هُدوءٍ تتحدث!!

- أتلْك حقًّا مَنْ قتلت سَطَام، واستدعت جيشًا مِنَ الموتى؟!

اختلجت أنفَاسهَا واضطربت نظراتُها، شعرت بثُقل يجثم فَوْقَ أكتَافهَا، ترَاجعت خطوتين واتكأت على الجِدَار، انحنت بجذعهَا تُمسك رُكبتيهَا، تُحَاول خنق دُموعهَا المُحتجزة بعِينيها المُثبتة بفراغ يخترق كُلَّ شَيْءٍ إلَى لَا شَيْء، زَاد تِيَّام خطوة نحوهَا...

- أنتِ أقوى مِنْ هَذَا.

- لديهم أُمِّي!

- ومَاذَا ستفعلِين لأجل هَذَا؟

لَمْ تُجب بشيءٍ سِوَى رفع رأسهَا نحوه بنظرة ضَائعة، لينحني نحوهَا...

- أَيْنَ تلْك العنيدة المجنونة! الَّتِي ذهبت إِلَى عَالم الرَّوْشَم وحدهَا! وأيقظت جيشًا مِنَ الأطياف! وأخضعت جيش أجنحة المَوْت لهَا! وانحنى أمامهَا الجميع؟!

تركت نفسهَا تنزلقُ أرضًا وقَدْ خَار آخِر مَا تبقى مِنْ قوَاها الوَاهنة، أسندت رأسهَا إِلَى الحَائِط...

- لَوْ تعلم كَمْ أرهقتَني! وأرهقني هَذَا الشعور!

جَلَسَ بجوارها، فزَاد ثقل حملهَا ووهنُ صوتهَا...

- تلْك القوية العنيدة الَّتِي يرَاهَا الجمِيع... إلَّا أنَا، هَذَا الشعور المُوجِع الَّذي يخنقك مِن الدَّاخل حِين تجد الجمِيع يُطَالبك أَن تكون مَا يُريده هُوَ، ولَا يلتفت أحد إِلَى مَاذَا تكون أَنْتَ! لَا يَرَوْنَ منْك سِوَى الصُّورة الَّتِي تُنَاسب طُموحَاتهم وتطلُّعَاتهم، ربمَا ينظرون إِلَيْكَ لَكِن لَا يُمكنهم رؤيتك...

زاد اختِنَاق صوتهَا، بنظرة مُشتتة نَحْو الفراغ...

- لَا يَقبلُون بك أنتَ، بَلْ بمَا يريدونك أَنْ تَكُونه، شَخْص لَا تعرفه، ولَا تريده، لَكِن الأسوأ أنَّكَ لَا تَسْتَطيع أَن تَكُونه! يضعون فَوْقَ كَاهلك نجَاتَهم ومُستقبلهم، ويُعولون عَلَيْكَ كُل أحلامهم، هَذَا بَات أَكْثَر بكثِير ممَا يُمكنني احتماله!

- وكَيْفَ ترين أنتِ سيًّا؟

اختنق صوتهَا حَتَّى كَاد لَا يُغَادرهَا...

- مُنْذُ اللَّحظة الَّتِي رأيتُ بهَا أُمي مُعلقة فَوْقَ جدَار لَمْ أعُد أعرف... لَكنه بالتأكيد شَخْص آخَرُ، يختلف عَنْ كُلِّ مَا يرونه أَوْ يتمنونه.

- رُبَّمَا هَذه مُشكلتك الحقيقية، أنك لَا تعرفين! نَحْنُ مَا نَحْنُ عليَه، لَا مَا يرغَبه الآخَرُون! علَيهم أَن يتقبلُونَا كَيْفَمَا نكون، هَذَا مَا وُلدنَا بِهِ وأصبحنَا علَيه، لَيْسَ لِزَامًا علينَا أَن نكون نُسخة مَنْ أحلَامهم

الضَّائعة وأمَانيهم المُستحيلة، إمَّا أن يقبلُونَا كمَا نَحْنُ أَوْ يتركونَا، لأن هَذَا كُلُّ مَا سيحصلُون عليه عَاجلًا أَوْ آجلًا.

وضع يدَهُ عَلَى كتفهَا، يُبحّر النَّظر بهَا...

- تعرفين أنني تعلمت منْك شَيْئًا مهمًّا فِي تلْك المُدَّة القصيرة.

رمته بنظرة مُتشككة، فابتسم بعذوبة، وربَّت عَلَى كتفها بحنوٍّ...

- تعلمتُ أَن قُوتَنا الحقيقية لَيْسَتْ فِي تلْك الأَشْيَاء الَّتي اسْتطعنَا الحُصُول عَلَيها، بَلْ فِي تلْك الَّتي اسْتطعنَا الصُّمُود بَعْد أَن فَقَدنَاهَا، أنت فقدت كُلَّ شَيْء؛ أَباك وأمك، حياتك الَّتي كُنْت تعرفينها، تخوضين حربًا لَا ذنب لَك بهَا، تتلقَّين الصفعات واحدةً تلو الأُخرى، ومَا زلت صامدة بَلْ وتَرُدِّين الضربة!

ضغط كتفها بنظرة مُشاكسة...

- تَبًّا لَك! أَلَا تكفيك تلْك القوة لتعرفِي مَنْ أنت وكَمْ تُفزعيهم؟!

أشار إِلَى قلبها وابتسامتُه الحانية تزداد عَلَى وَجْهِه...

- تلْك الَّتي بداخلك لَا يَسْتَطيع أَحَد سَلْبَهَا منْك.

قام مُغادرًا، توقف دُونَ أَن يلتفت نحوها...

- لَا أَحَد فِي هَذَا الكون يُمكنه إيجَادهَا غَيْرُك... لَكِن أسرعي فأُمها تحتَاجُها.

تركهَا ورحل، ظلت عَلَى جلستها سَاقطةً فِي الفَرَاغ، لَا ترى به سِوَى روحها المُهاجرة إِلَى اللاشَيْء، وصورةَ أُمهَا غارقةً بأغلالها، ونظرتها المُنكسرة لَهَا كُلُّ مَا يُسيطر عَلَى عقلها المُعتقل بغضبه.

بالمساء يأكل القاعة بخطواته الصاخبة، يُفكر بخطوته التالية، كُلَّ لَحْظَة ينتظرها، يمنحها مزيدًا مِنَ القوة والثقة والحلفاء! هُوَ خير مَنْ يَعْرِف أنهم عبيد السوط والقوة، سَوْفَ يركعون حَيْثُ اليد الممسكة بكلَيهِما!

كَيْفَ سيحصل عَلَى اللعينة! وقَدِ استولت عَلَى جيشه وقتلت أقوى قواده؟ زفر حنقه لتذكُّر المعتوه عديم الفائدة «**تَبًّا لِلأخرق الَّذِي ترك طفلتين حمقاوَين تتلاعبان بِهِ**».

اسْتَشَاطَ وَجْهُه تغضُّبًا لغباء قائده الأرعن الَّذي تسبب فِي كارثة هزت عرشه، إنَّهَا الْحَقيقَة المُرة مَهْمَا أنكر! تجرعها عَلَى يد حشرة هجين، إذا أمسك بسطَامِ الآنَ فسيقتله مُجَدَّدًا؛ مرة لفشله، وألفًا لغبائه.

كَفَّت خطواته المشوشة عَلَى صوت أَخْزَم خلفه يُناديه، بنبرة مُتهدجة قلقة، يخشى ردة فعله إن قاطع فورة أَفْكَاره، فمُنْذُ هزيمته، وأَصْبَحَ مُتقلب المزاج بشكل مُريب، وبَاتَ جانبه غَيْر آمن، سخِر مِنْ نفسِه عِنْدَ هَذِهِ النقطة، ومُنْذُ متى كَانَ آمنًا؟! لَكِن الآنَ بَاتَ مُستحيلًا.

قَبْلَ أَن يُفكر بالانسحاب الْتفت نحوه زَارَا بَغتةً فجفلت نبضاته، حَاول تصنُّع ابتسامة واثقة لَكنَّهُ فشل وظهر اضطرابه جَليًّا، انحنى أمامه يتراجع خطوة، اعتلَى زَارَا درجات عرشه بتُؤَدَة ويُشير لَهُ أَن يتحدث.

تَقَدَّمَ أَخْزَم خطوتين مترددتين، يُحكم يده عَلَى قلادته وعلَى النابض داخلها، فَمَا زَالَ وَاثقًا فِي قدراته وقُوَّة تعويذته الَّتي استطاعت أَن تحمي عقله لسنوات، رُبَّمَا الهجين كسرت القاعدة، لَكن يَبْدُو أَن الساقطة تتفنن فِي كسر كُلِّ شَيْء لَيْسَ القواعد فَقَطْ، ألم تقتل سَطَام، وأزاحت عَنْ كاهله هَمَّ التخلص مِنْهُ؟! رُبَّمَا يجب أَن يشكرها بالمرة القادمة، لَكِن الملعونة

أخضعت جيش أجنحة المَوْت واستدعت جيشًا مِنَ الموتى! وهَذَا غَيْر جَيِّد، لَكِن لَا يهم، فلَدَيْه مَا يُخضعها ويُوقعها بالفخ، ستكون الغلبة لَهُ فَهُوَ لَيْسَ أَبله كسَطَام.

استردَّه مِنْ شرودِه صوتُ زَارَا الهادئ عَلَى غَيْر عادته!

- مَاذَا هُنَاك؟!

- أتساءل عَمَّا يفكر بِهِ مولاي ليُنهي تِلْك الزوبعة العابرة.

تبسَّم مِنْ جانبه تَأْكِيدًا بِأَنَّهَا زوبعة وعابرة، اضطجع بكرسيه، وبذات النبرة والنظرة الهادئة...

- الآنَ وقت دَهَّام.

رفع أَخْزَم حاجبه بتعجب فَلَمْ يَكُنْ ذَلك مَا توقَّعه، بنبرة مضطربة...

- أَمْر مولاي، لَكِن...

- ألم تسمع يا أخرق؟! أريدها وبأي ثمن، يجب أَن أُسيطر عَلَيهَا فِي أقرب وقت، إِنَّهَا آخِر مَا تبقى لأحكم سيطرتي عَلَى السَّدِيم بأكمله.

- إن السَّدِيم ملك مولاي...

- مِنْ دُون دَهَّام؟!... كَلَّا.

قاطعه بانفعال وسخط مكظوم، لَحْظَة وأَتْبَعَ...

- لَا تعي حجم خسائرنا! خسرت جيشًا بأكمله، والآنَ أَنَا بحاجة لجيشٍ أقوى، وسَوْفَ أحصل عَلَيْه مِنْ كُلِّ ممالكي، لَكِن أَن أحصل عَلَى جيش دَهَّام بقوته وسَحرته، يَعْنِي أَن أُسيطر عَلَى تِلْك الملعونة! لَقَد استدعت جيشًا مِنَ الرَّوْشَم!! أتعرف أَيَّ جُرأة تمتلكها لتفعل ذَلِك!

زفر أنفاسه بكُرهٍ يُوغر صَدْره ضدَّهَا، صُلبت عَيْنُهُ بعين أَخْزَم...

- أريد قلبها بِأَيٍّ ثمن.

- مَا الَّذِي يُخطط لَهُ مولاي؟

- أَيُّ شَيْءٍ للحصول عَلَى دَهَّام، لَا بُدَّ أَن تركع لي الآنَ.

- لَيْسَ هُنَاك سِوَى حل واحد لفعل ذَلِك فِي هَذَا الوَقْت الضَّيِّق، التخلص مِنْ سِنِمَّار.

أسند زَارَا ظهره لكرسيه، بإشارة أَن يُكمل...

- سِنمَّار يَحكم مُنْذُ وقت طويل مُنْذُ كَانَتِ المملكة رُهَا...

نظرة واحدة ساخطة مِنْ زَارَا بَعْدَ «المملكة» أحرقت الحروف بفمه فابتلع رمادها...

- أقصد أَنَّهُ طَالَ بقاؤه، وهُنَاك مَنْ يطمح لتغيير هَذَا.

ضَيَّق عينيه استفهامًا، ليسترسل أَخْزَم بفحيح خبثه...

- شَاتَاي أخوه الأصغر، مَعْرُوف بتهوره وتعطشه للجلوس بالعرش.

- أَلَيْسَ لسِنِمَّار ولد عَلَى مَا أذكر، وإن مات فسيتولى الحكم خلفًا لَهُ؟!

- فتاتان الكبرى تُولَاي وَلَيْسَتْ سِوَى فتاة طائشة، لَنْ تَسْتَطِيع إدارة المملكة، لذَلِك مَجْلِس الكهنة بِالتَّأْكِيدِ سيصوت للأمير.

اعتدل زَارَا بمجلسه وقَدْ بدأ يجذب مَا يبثه أَخْزَم انتباهه...

- ألم تقل فتاتين!!

- الثانية لَمْ تتخطَّ الثانية عشرة مِنْ عمرها، لَا تُشكل عائقًا لأحد.

- يُمكننا السيطرة عَلَيْهِ أَمْ سيكون عَنيدًا كأخيه؟

حرك كفيه بثقة وابتسامة مِنْ جانبه بمكر لَمْ يخفَ عَلَى عين زَارَا...

- سيكون ولاؤه لِمَنْ يضمن لَهُ العرش، لديَّ بَعْض الأعين بالداخل تُخبرني أَنَّ تعطُّشه للسلطة والحكم لَا يخفى عَلَى أَحَد حَتَّى أخيه، ويفعل أَيَّ شَيْء للحصول عَلَيْهِ، لذَلِك أعلنه وليًّا لعهده ليأمن جانبه.

- اقتنص تِلْك الفرصة بِأَيِّ ثمن، وبأسرع وقت.

انحنى أَخْزَم إِذْعَانًا، أشار لَهُ بالانصراف، هَمَّ مُغَادرًا، حِيْن اصطدم بأحد قواد حرس القصر الَّذي يُسرع بالدخول إِلَى القاعة، تَمهَّلَت خُطَاه، شعر أن زَارَا يُخطِّط لشَيْء لَمْ يُخبره بِهِ! لتلتقط أذنُه صوتَ قائد الحرس...

- كُلُّ شَيْء سَوْفَ يتم وفق أوامر مولاي.

فجاء صوت زَارَا مُحذرًا...

- لَا أريد خطأً واحدًا، وإِلَّا دفعتَ رأسك ثمنًا لَهُ.

أماء طَاعَةً، وغادر دُونَ كلمة! وخلفه أَخْزَم الَّذِي كاد فضوله يقتله فَلَا يفهم شَيْئًا!

بَعْدَ ليليتين، ومَعَ خيوط اللَّيْل الَّتِي أَسدلت ستائرها عَلَى الحياة، ونجومُه الشحيحة تتناثر ببساطها الأزرق لعلها تُرسل شحيح ضوئها يُنير عتمة القلوب قَبْلَ الدروب، تتمدد أرضًا قرِيبًا مِنْ مخزن آصَف، خارج أسواره، عَادت أَكْثَر تماسكًا، تُقلب كافة الاحتمالات والطرق الَّتِي

قَدْ تُوصلها إِلَى مُبتغاها، تنقل عينها بَيْنَ النجوم البعيدة فِي السماء، تُفكر بكُلِّ حرف قاله تيَّام، فَهُوَ مُحقٌّ، مَهْمَا كَانَ الوضع فعَلَيْهَا أَن تصمد للنهاية مِثْلَمَا فعلت مُنْذُ البداية، الأهم أَن لَدَيْهَا الآنَ هدف تصمد لأجله «**أمها**».

تنهدت بحُرقة، تضغط رَأْسَهَا أرضًا، تشعر بالخناق يضيق حَوْلَ روحها، فطريق الوصول لِأُمِّهَا أصعب مِنَ الوصول إِلَى تِلْك النجوم المتناثرة فوقها.

تشعر بأنين اللَّيْل الخافت يُواسيها بآلامها الَّتِي لَمْ تَعُد تُدركها مِنْ كَثْرَة مواطن نبوعها، فباتت كَالشاة الَّتِي تُسلخ قَبْلَ أَن تُذبح، فمَاذَا يُفيد إن ذُبحت الآنَ؟! أَيُوقف الألم؟!... هُراء، بَاتَ الأَمْران سِيَّيْن، فُقِد الإحساس!

قطع عَلَيْهَا غرقها ببحور قدرها شَيْءٌ خَاطف عبر السماء! ضيقت عينها تُحَاول التأكد مِمَّا رأت! حِيْنَ لمحته يقطع السماء مُجَدَّدًا! اعتدلت قليلًا واتكأت لذراعها اليُمنى، لتقع عينها عَلَيْه يقطع عَنْهَا الرؤية للَحْظَة سريعة واختفى! تَأَمَّلَت السماء بأنفاس متوجسة مشدوهة، تُقلب ناظرَيها ببساطها الأزرق، لَا شَيْء! لَحْظَة وخطف بصرها طائر كبير يصدح فوقها، لتعتدل بجلستها وقَدِ انضم إِلَيْهِ آخَر! صقرا تَلِيد!

انتفضت واقفة مُعلَّقة بِهِمَا، يدوران فوقها فِي دائرة! ضيقت عينيها استغرابًا، فهُما لَا يبتعدان عَنْ رُونَا! والَّتي تحبسهما ليلًا داخل حُجرة العُلِّيَّة! فكيف هما هُنَا؟! ظلت تدور حَوْلَ نفسها بخطًى هادئة تُحاكي دائرتهما، يُدهشها فِعْلُهُمَا، راحا يدوران بالسماء بسرعة أكْبَر وصوتهما يعلو نافرًا، كأنهما يصرخان بشيء لَا تفهمه! لَكِنَّهَا تشعره!

تَجَمَّدَت وصوت قَرِيب يهمس بشَيء لَمْ تُميزه! صوت تعرفه، جَيِّدًا! ينشق مِنْ قلب اللَّيْل الداهم خلفها! خفق قلبها حَتَّى دَنَا يقف! إِنَّهُ صوت

أمها! ارتعشت، حاولت أَن تُسيطر عَلَى أنفاسها المضطربة، واختلاجاتهَا المرتابة، الْتفتت عَلَى مهل ودققت النظر، لتجدها تقف عَلَى مقربة مِنْهَا تهمس شفتاها بشيء لَمْ تتبينه!

تقدمت خطوة وعقلها يُقْسم لَهَا بوهم مَا تراه! هِيَ فَقَطْ تُفكر بِهَا حد تخيلها تلْك اللَّحْظَة! تمد يدها نَحْو الوهم المتجسد أمامها، فَلَا تعلم أطَيْف هُوَ أَمْ حَقِيقَة! استردتها مِنْ غياهب ذهولها صرخةُ أمها المهتاجة «**اركضي!**»

يتمدد جسد زُمُرُّدة مُكبلًا فَوْقَ حشيتها الوثيرة، ينتفض انتفاضات مُتتابعة، بَيْنَمَا تستقر روحها داخل قاعة الحياة أمام شمعة ابنتها، أخبرها أَخْزَم أَن زَارَا يُخطط لشيء لَا يعرفه، وقَبْله شعرت به! لَا تعرف مَا هُوَ لَكِنَّهَا تُحس بِهِ، عينها مُعلقة بعين صقرَيها الأثيرين وتصرخ بكُلِّ جوارحها «**اركضي... اركضي!**»

ضَاقَ السوار حَوْلَ معصمها مَعَ ازدياد صراخ أمها، وقَبْلَ أَن تلتفت وجدتهم يحوطون بِهَا!!

بضع فرسان مُلثمين بالسواد، مُدججين بالسلاح، فارعي الطول، راسخي البُنيان، تكاد فتوَّتُهم تخترق ملابسهم الحربية، التفُّوا حَوْلَهَا فِي دَائِرة أُرغمت على انتصافها، تَبدَّد طيف أمها وتَبدَّدت مَعَهُ نظراتها الساكنة، اعتلتها نظرة ساخطة وحنق يُشعل براكين غضبها وكُرهها لِكُلِّ شَيْء.

أدارت عينها بَيْنَهُمْ، والْتمع شبح ابتسامة ساخطة بِطَرْف فمها، أَرْبَكَتْهم! رفعت حاجبَها وصوتُها رن بعقولهم «**مَا زَالَ أمامكم فرصة للهروب، لِمَاذَا لَا تغتنمونها الآنَ؟!**» تبادلوا النظرات، شعرت بترددهم، رفعت سيفها للأعلى وأحكمت كِلْتا يَدَيْهَا حَوْلَ مقبضه، انغرست قدماها فِي الأَرْض، تحفزت كُلُّ ذرة داخلها، والْتمعت نظرتها الشيطانية بوجهها اسْتِعْدَادًا للمواجهة.

رُبَّمَا بوقت آخَر كَانَتْ ستركض وتهرب بَعِيدًا ودُونَ أَن تُحَاوِل أمها دفعها لتفعل! لَكِن الآنَ ومَعَ كُلِّ هَذَا الكُره المتقد داخلها لِكُلِّ شَيْء، ولنفسها قَبْلَ الجميع، فالدماء كُلُّ مَا تريد، لتُنفس عَنْ براكين غضبها وحنقها، ولَا يهم إن كَانَتْ دماءها! فشيطانها الآنَ لَا يكترث إلا لإلحاق الأذى بالجميع وهِيَ أولهم!!

تراجعوا خطوتين لتتسع الدائرة قليلًا، لَمْ تُخطئ عينُها قلقَهم المتزايد ونظراتهم المتضاربة، رَغْم مَا أَبدوه مِنْ تأَهُّب للهجوم، فتظل النبوءة الملعونة، مَنْ قتلت سَطَام واستدعت جيشًا مِنَ الموتى، نقطة لَهَا ضِدَّ الجميع!

صمتت زُمُرُّدة ذاهلة مِنْ تِلْك النظرة الحاقدة الَّتِي اشتعلت بعينها، كَانَتْ كافية لتُخبرها أَن الهروب لَيْسَ مِنْ مُخططاتها الليلة، لَمْ تَكُنْ تعرف أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يومًا! والأسوأ أَنَّهَا شعرت أَن ابنتها أَكْثَر مَنْ يتعطش للدماء!

رمت سِيًّا مَنْ يقف أمامها بنظرة أثارت الخوف بقلبه، لَكِن رعبه مِنْ فشله بمهمته كَانَ أعتى لتزداد ابتسامتها الشيطانية وصوتها يَصْرُخ بهم «**مَن الأول؟**» أمال رَأْسَه بِعَدَم فهم، وقَبْلَ أَن يعي هاجمَته، وجَّهَت لَهُ ضربة قوية، تفاداها وهُوَ يلتف مِنْ جانبها إِلَى خلفها، لتُصبح ظهورهما

مُتقابلة، وقَبْلَ أَن يتنفس الصعداء وجدها بوجهه! وقَدِ انتقلت بلَحْظَة أمامه، رمته ببسمة حانقة وسيفها يخترق صَدْره.

قَبْلَ أَن تتحرك هاجمها الثاني مِنْ ظهرها، لتعكس نصل سيفها فتُفاجئه بِهِ يستقر ببطنه. دُونَ أَن تتحرك، سحبت سيفها ببرود فَاتِر وما زالت عَلَى وقفتها، وعينها مُعلقةٌ بعين أمها الَّتِي تلتمع بذهولها فِي الظلام، والآخَر يسقُط صَرِيعًا خلفها، دُونَ أَن يرف لَهَا طرف، سقطت زُمُرُّدة عَلَى ركبتيها وعيناها لَا تُخطِئُ كُلَّ هَذَا الظلام الَّذِي يسكن ابنتها! وعقلها يَصْرُخ هلعًا «**تَبًّا لكِ زُمُردة، مَا الَّذِي فعلتِيه بابنتك؟!**»

ليأتي آخَرُ وينقض عَلَيْهَا مِنَ الأمام وسيفه يهبط عَلَى جسدها بِغِل، ليجده يُعانق الفراغ، ليشعر بسيفها يخترق ظهره هُوَ الآخَر فانتقلت خلفه بلَحْظَة.

سحبت سيفها وهِيَ ترفع حاجبها بنظرتها الساخرة نَحْو الآخَرين، وتُشير لَهُم أَن يتقدموا، فازدرد أقربهم ريقه بذعر لَمْ يَسْتَطِعْ إخفاءه، وأشار للباقين خلفه، لتلتمع بَيْنَ أيديهم سلاسل تعرفها جَيِّدًا! انتفض بركان جامح بصدرها ينضح بَيْنَ نظراتها المتقدة كُرهًا، لَيْسُوا هُنَا لقتلها بَلْ لاعتقالها بواسطة سلاسل الخضوع!

تَقَدَّمَ أربعة نحوها والسلاسل تتراقص بَيْنَ أيديهم باضطراب وحذر لَمْ يستطيعوا مُداراته، غرست سيفها بجوارها، ركزت نظراتها عَلَى السلاسل وصوتها يقترب ويرن بأذنها ويستنفر شيطانها أَكْثَر، فغُشيت عينها بغشاوتها البيضاء، مدت يَدَيْهَا أمامها بالهواء عَلَى امتدادهما ثُمَّ قبضت عَلَى كفيها بقوة وسحبتها للخلف بغتة وهِيَ ترسم بِهَا دوائر فِي الهواء، لتلتف السلاسل حولهم ببأسٍ تأوهوا لَهُ، وتعالت صرخاتهم مَعَ

ارتطامهم المتلاحق بعضهم ببعض، وازدياد إحكام قبضة سحرها عَلَيْهِمْ وعَلَى السلاسل الملتفة حَوْلَهم تعتصرهم! دوَّى صوت عظامهم تتهشم بأذنها، الدماء تسيل مِنْ أجسادهم، وصرخاتهم الفزعة تخبو حَتَّى تلاشت وسط صوت ارتطام السلاسل.

بدأت تفقد السيطرة عَلَى نفسها، وازدادت غشاوتها البيضاء لمعانًا، تلْك المرة لَمْ تقاوم شيطانها ولَمْ تُحَاوِل، غضبُها كَانَ مُحركَها الأول حَتَّى أَوْشَكَ يمتلك زمامها كَالمرة السابقة، حِيْن سَمعْت صرخة فزعة تهدر مِنْ خلفها «**انتبهِي!**»

ارتدت إِلَى وعيها، الْتفتت مذعورة كَأَنَّهَا عادت مِنْ غفوة، لتجد اثْنَيْن منْهُمْ يركضان نحوها ليُهاجماهَا مِنَ الخَلْف، الأقرب إِلَيْهَا يهوي بسيفه فَوْقَ عُنُقهَا والَّذي تلقَّاه سيفُ مُحذرها! دفع عَنْهَا نصل السيف المُهاجم بجَسارَة، وتعانقا فَوْقَ عُنُقِهَا، شعرت ببرودة نصله تحُفُّ جِلْدَهَا.

دفعه بصَلابَة، يغرز نصل خنجره بقلب مُهاجمها، يُرديه قَتِيلًا، الْتفت نحوها وجهٌ تعرفه! لَمْ تميزه بدقة لَكنَّهَا رأته سَابِقًا بمكانٍ مَا!

اسْتَرَدَّهَا مِنْ دهشتها بصوته ويدُه تُشير لَهَا أَن تنتبه للآتي مِنْ جانبها الآخَر، فالْتفتت تلقت سيفه بسيفها، انتفضت واقفة، تتراجع خطوة، ثمَّ دفعته بقدمها فِي صَدْره فسقط أرضًا وغرست سيفها ببطنه.

الْتفت مُنقذها نَحْو الأخير القادم خلفه، فألقى بخنجره نحوه فأصابه بكتفه ليَسقط أرضًا يَصْرُخ وجعًا.

نزلت أرضًا بجواره، يتلوى ألمًا...

- لِمَاذَا بَدَّدَتم الفرصة حِيْن أتتكم للهرب؟!

حاول كتم آهاته، نزعت عَنْهُ اللثام، فغرت عينها ذهولًا لَمَّا قرأته بعقله، مَا دفعها لفتح فمه عنوة! انتفضت للخلف مشدوهة، لسانه مقطوع! حيْن أتاها صوت مَنْ كَانَ يُحارب بجوارها مُنْذُ لَحْظَات بَعْدَ أَن تفقَّد البقية...

- جميعهم قُطعت ألسنتهم!

تداركت ذهولها، وأطبقت يدها عَلَى رقبته تُحَاوِل معرفة المزيد، بلَحْظَة وجدت نفسها داخل مكان مظلم بِهِ ضوء خافت يتسرب مِنْ بضع شمعات مُتفرقة فَوْقَ الجدار، يَبْدُو كقبو، تشتمُّ رائحة رطوبة شديدة وأُذُنها تلتقط صوت خرير لماءٍ قريب! لمحت منضدة خشبية بنهاية المكان، وشَخْصًا يقف عَلَى بُعد عدةٍ خطوات مِنْ طرفها لَا يكاد يصل إِلَيْهِ الضوء، يرتدي عباءة سوداء بغطاء للرأس يُخفي ملامحه!

تَقدَّمَت خطوات لعلها تلمح شَيْئًا مِنْهُ، يُمسك بيده خنجرًا، يده رَأْسُ صقر موشَّى بالذهب يُشبه خنجر رُونَا الَّذِي تحمله! يركع أمامه أَحَد عشر فارسًا، تَعرَّفَت مِنْهُمْ واحدًا، مَنْ تُطبق يدها حَوْلَ عُنُقه، يتعهدون لَهُ بالولاء والطاعة، بدأ بقطع ألسنتهم دليلًا عَلَى إخلاصهم وطاعتهم! تراجعت خطوات مِنْ هول المنظر، لترتطم بالمنضدة!

الْتفتت نحوها، تُحاول استرداد أنفاسها، فوقعت عينها عَلَى لُفافة صفراء مِنَ الورق مبسوطة فوقها، مُثبتة بحاملَي شمع مِنَ الطَّرَفَيْن، وثالثة بَعِيدَة بضوءٍ خافت يتراقص فَوْقَ الطاولة، حواف اللُّفافة مُتآكلة، الورقة بالكامل مهترئة بالكاد تتماسك، تبدو كَأَنَّهَا تتحلل! خُطَّ داخلها بحبرٍ قارَب على الاختفاء مِنْ شِدَّة قِدمه! عدة رموز مُتعامدة لرموز الممالك الخمس الَّتِي تعرفها الشمس والسيف والصقر...! يعلوهم ثلاث رموز غريبة لَمْ تفهمها، وبضع كلمات لَمْ تتعرف لغتها! ورسومات غَيْر

واضحة لشخصين مُتلاحمين، كأنهما يتعاركان، أَوْ يتعانقان، لَمْ تَسْتَطِع التمييز، وما يُشبه دخانًا خفيفًا يحوطهما، شَيْء خَفِيٌّ جَذَبَهَا، يُناديها لتتلمس المخطوطة!

مدَّت أناملها بتردد واضطراب تتلمسها، لِلَحْظَة شعرت بصور متلاحقة تنهال داخل رَأْسِهَا، انْهَمَرَ بعقلها سيل مِنْ ذكريات لَمْ تَعِشْها! ارتدَّت مُبتعدة لَا تعرف ماهية مَا رأته، أَوْ بالأحرى لَمْ تَسْتَطِعْ إمساك شَيْء تعرفه، إعصار جامح ضرب أرجاءها! ومِنْ جديد خالجها ذَاتُ الشعور وذَاتُ الصوت يخفق بأعماقها لتقترب! لَمْ تَسْتَطِعْ مقاومته فتلمست حبرها لتجده انطبع عَلَى أناملها كأنه كُتب توًّا ولَمْ يجفَّ بَعْدُ؛ مَا أثار دهشتها! فذاك الحبر الفاني وتلْك الورقة المُتهالكة مُسْتَحيل أَن تكون كُتبت لِلتَّوِّ! رفعت أناملها أمام عينها الَّتي فغرتها ذُهولًا! إِنَّهَا دماء!

ارتجف قلبها، تباعدت أنفاسها، لَمْ يستعِدْها سِوَى صوت ارتطام قوي جَذَبَهَا مِنْ فزعها لفزع أقوى، الْتفتت لتجد صاحب العباءة السوداء يُمسك بسلاسل الخضوع ويُلقي بآخِر طرفها أمامهم «**أريدها حية بِأَيِّ ثمن**».

ارتدَّت مِنْ رحلتها بعقله عَلَى صوت تأوُّهه، يُحَاوِل دفْع يدها عَنْ عُنُقه، رفعت يدها الَّتِي انطبعت بِهَا الدماء أمام وَجْهِهَا، لتجدها مَا زَالَتْ رطبة تُبللها! ازدادت رجفتها وذهولها، والَّذي التقطتهما عين مُنقذها باستغراب وعقله يتعجب «**مَا الَّذي رأته وأصابها بهَذَا الفزع؟!**» هَمَّتْ مُبتعدة وعقلها مُشتت، مَا هَذَا الَّذي رأته؟! وما هَذَا الشعور الغريب الَّذي اجتاحها حينما كَانَتْ قُرب المخطوطة كأنَّهَا تُناديها! بَلِ الأسوأ كأنَّهَا تُسيطر عَلَيْهَا؟!

استردَّتها صرخةُ الآخر «**انتبهي!**» الْتفتت لتجد المصاب أرضًا نزع الخنجر مِنْ كتفه واعتدل بلَحْظَة ليُباغتها بِهِ، ارتدَّت بجسدها للخلف، ودفعت سيفها بصدره ودفع الآخَر سيفه بظهره، فسقط صريعا بَيْنَ كليهما.

تلاقت عينها وعينِ أمها وجسدها ينتفض انتفاضات مُتلاحقة، وكل واحدة منهما ترمق الأُخْرَى بتِلْك النظرة الَّتِي تُخبرها أَن الجحيم آت لَا محالة، وصوت داخل زُمُرُّدة يَصْرُخ بألم «**مَا الَّذِي فعلته؟!**» لَحْظَاتٌ وتَبدَّد طيفها واختفى الصقران مَعَه!

سحب الآخَر سيفه، ثمَّ انحنى يسحب خنجره، يمسح الدم عَنْهُ، وحين اعتدل وجد سِيًّا خلفه وخنجرها يحُفُّ عُنُقَه، يدها تُطبق عَلَى كتفه بقَسْوَة، تهمس بأذنه...

- لَوْ كُنْتُ مكانك لتركتهما أرضًا.

- لَوْ أردت قتلك لكنت فعلت!

- لِمَاذَا لَا تفعل الآنَ؟

ألقاهما تَحْتَ قدمه، تِلْك اللَّحْظَة الَّتِي ظهرت بِهَا دَلِين ورَحيل ورُونَا مِنْ أمامهما، استدعى ثلاثتُهن سيوفَهن، وهُن يَرَوْنَ الجثث المُتناثرة، تساءلت دَلِين...

- مَا الَّذِي تفعله هُنَا يا دَلشيَّر؟

رمتها سِيًّا بنظرة ثابتة...

- هَلْ تعرفينه؟

أومأت إقْرَارًا، لتتهكم رَحِيل...

- خبرتكم أنني لَا أثق بهم، مَعَ أوَّل فرصة أُتيحت لَهُم يحاولون قتلها.

رشقها دَلشيَّر بنظرة باردة...

- لَقَدْ أنقذت حياتها يا حمقاء!

- مَا الَّذي يَحْدُثُ هُنَا؟

تساءلت رُونَا بتحفز، فلَمْ يأتِها رَدٌّ، وبَيْنَ سِيًّا ودَلِين دار حوار خاص، لَحْظَة وسحبت خنجرها، ليتنفس الصعداء، جَاءَ صوت آصَف مِنْ خلفهم...

- زَارَا لَنْ يكف حَتَّى يصل إلَى مُبتغاه.

التفَتَ جميعهم نحوه مَا عَدَا سِيًّا الَّتي جَلَسَتْ أرضًا، تُسْهَب النظر بالفراغ، ما رأته وجه آخَر مِن الظلام، أكثر تجبرًا، أكثر قُبحًا وشرًا، لكن أكثر ما أثار عواصف فكرها المُضطربة، إن كَان زَارَا فلماذا لم ترَ وجهه كما تراه دومًا! يجتاحها شعور مُبهم بأن هناك شيء غير صحيح!!

استعادتها خطوات آصَف، وقف قُبالتها، وحوار صَامت دار بَيْنَهُمَا، خبرته عَنْ ذَاكَ القبو والألسنة المقطوعة، وصاحب العباءة السوداء، لَكِنَّهَا لَمْ تخبره شَيْئًا عَنِ المخطوطة، شَيْء بداخلها منعها مِنَ البوح!

طَالَ صمتهما، وهَذَا لَمْ يَكُنْ يُرضي رُونَا، تشعُر كَأَنَّهَا تُقصى خارج اللعبة، فزفرت بضيق، لتنتفض سِيًّا واقفة، عادت إلَى المخزن وتبعها الجميع وهُمْ يتبادلون الآراء حَوْلَ مَا حَدَثَ، ومَاذَا يجب أَن تكون خطوتهم التالية؛ بَيْنَمَا دَلشيَّر كَانَ عقله بمكان آخَر!

عَلَى الجانب الآخر، ينتفض زَارَا سخطًا، يُحَاوِل السيطرة عَلَى تسارع أنفاسه الغاضبة، بإطباق كفيه المُتعانقتين بقوة خلف ظهره، بَيْنَمَا قائد الحرس يركع أمامه مُنكَّس الرأس وخلفه خمسة مِنْ أقوى جنوده وأمهرهم، لَا يَجْرُؤ أيٌّ مِنْهُمْ عَلَى التنفس!

كز أسنانه بضيق، ثمَّ صَرَخَ بحنقٍ هادر...

- باسم رب الأرباب مَا هُوَ الصعب باختطاف فتاة؟!

- لم تكن وحيدة، كانت تتجول مع رُونَا، حين سمعنا جلبة قريبة فهرولتا بعيدًا، واختفينا مِن المكان قَبْلَ أن يلحظ أحدٌ وجودنا، فأوامر مولاي كانت مُحددة أن نصل إليها دون أن يعرف أحد أو حتى يُلاحظ اختفاءها لتنجح الخطة...

الْتفت نحوه زَارَا مُخضب الوجه بالغضب فابتلع باقي حروفه، ازدادت ثورته مع خطوة أخرى ليُلقي بالطاولة بعيدًا، ويصرخ بهم ليُغادروا، يهرولون للهرب كأَنَّ الشَّيْطَان يُطاردهم، يكادون يسقطون بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْض مِنْ شِدَّة اضطرابهم وتسَارُعِ خطواتهم المُتعثرة بخوفهم.

ظَلَّ يأكل الأَرْض بخطواته الثائرة، كَيْفَ لَمْ يَسْتَطِعْ هَؤُلاء الحمقى الإمساك بهَا؟! خبا غضبه وهدأ شيطانه، وعاود التفكير بشيء يُوصله لمُبتغاه، حَتَّى وإن اضطر لفعل ذَلِك بنفسه!!

ذرت شمس جديدة، تمخض عَنْها مولد يَوْم جديد، رُبَّمَا يحمل آمالًا للبعض ورُبَّمَا مآسي لآخرين، يُهدي هَذَا حلمًا وينتزع مِنْ آخَر وهمًا، لَكِن الأَكِيد أَن بَيْنَ طياته يجلس القَدَر يُمسك بكُلِّ الخيوط، يُحركها ويُحرك الجميع كَما يَشَاء.

يتحلقون بالساحة، يتناولون طعام الإفطار بصمت، شاردة بَيْنَهُمْ تعبث بطبقها دُونَ أَن تَقْربه.

أَوْدَعَت رَأْسَهَا الزاوية خلفها، تُغمض عينها بتنهيدة مريرة أحرقت صَدْرهَا، ظلت المخطوطة تُطاردها بكوابيسها مَا بقي مِنْ ليلتها الغائمة، كوحش جائع، يتلذذ بصرخات فريسته المتألمة، قَبْلَ أَن يبدأ بتقطيعها ببطءٍ ليلتهمها بنشوة المنتصر.

جسدها يستشيط ألمًا، عتمة روحها تزداد مَعَ فحيح صوت يطن بعقلها «**أريدها حية بِأَيِّ ثمن**» يدوي بَيْنَ كهوف روحها المُشَرَّدة.

قبضت راحتيها بانفعال تكاد تُهشم أناملها، اتَّخَذَت قرارها الَّذي لَنْ تتراجع عَنْهُ مَهْمَا كَانَت العقبات أَو النتائج! ستذهب إِلَيْهِم فِي عُقر دارهم! ستُلبي لَهُم مُبتغاهم، لَكِنَّهَا لَنْ تكون مُكبلة بسلاسل الخضوع، بَلْ لتُذيقهم جحيمًا صنعوه بأيديهم.

ستنقل الحرب إِلَى أبواب قلاعهم، داخل حصونهم المنيعة، ستجعلهم يتكبدون خسائرهم عَلَى أرضهم ووسط شعوبهم، مَا دامت الحرب عَلَى أرضها فَلَنْ تكون خسائرهم مُوجعة مَهْمَا كَانَتْ فادحة، سيظلون ينعمون بالأمان، وهَذَا مَا لَنْ تقبله بَعْدَ الآنَ، إن كَانَتْ تُعاني وتتألم فعلى الجميع أَن يُعاني ويتألم، المساواة بالظلم هُوَ العَدْل الوحيد الَّذِي باتت تعرفه، وتسعى خلفه!

لَا بُدَّ أَن تكون هزيمتهم فِي عُقر سلطانهم، انكسارهم بَيْنَ شعوبهم كي يُزلزل وجودهم، وتحفر بخيباتهم وديان إذلالهم أمام أعين الجميع.

استرَدَّهَا مِنْ غياهب براكينها صوت دَلِين المبتسم...

- إنَّهُ يريد الحديث إِلَيْكَ؟

أومأت إيجابًا، رفعت رُونَا حاجبها استفهامًا، لتُجيبها...

- دَلشيَّر، قائد جيش الظلام.

تساءلت سِيًّا باهتمام، تُحَاوِل اسْتِعَادة هدوئها الظاهري...

- أتعرفينه يا دَلِين؟

- نَعَمْ... كَانَ مِنَ المقربين إِلَى سَطَام، مِنْ أقوى محاربي الظلام وأكثرهم ولاءً، ويضحي بحياته لأجل مَا يؤمن بِهِ، هُوَ القائد الثالث للجيش.

- والثاني؟

تساءلت بدهشة، لترد رَحِيل بغمزة مرحة تُحَاوِل إغاظتها...

- قتله رَيَّان بالمعركة، فَهُوَ مَنْ حاول قطْع رقبتك لَحْظَة إفاقتك حِيْن ارتدت روحك لجسدك.

ابتسمت لمُشاكستها، لتستطرد رُونَا بنبرة مؤكدة...

- أوَّل مَنْ ركع أمامك، لذَلك تبعه الجيش دُونَ سؤال، إنهم مدربون عَلَى طَاعَة قُوادهم طَاعَة عمياء.

- لَكِنَّهُ مِنْ قواد زَارَا! وهَذَا يجعلنا لَا نثق بِهِ.

خرج رَيَّان عَنْ صمته بنبرة مُغتاظة دُونَ سبب وَاضِح، لَكِن سِيًّا ابتسمت حِيْن التقط عقلها السبب، لتُكمل دَلِين وعينها مُعلقه بعين صديقتها...

- لَكِنَّهُ مكسب كبير، فالجيش يُطيعه دُونَ تفكير أَوْ سؤال، هُوَ أوَّل مَن انحنى فانحنى خلفه الجميع، لَا يتلوَّن، وإن كَانَ لَدَيْه شَيْء ضدك فسيُجاهر به ولَنْ يُضمره فِي نفسه، وإن كَانَ عَلَى عُنُقِه، وأَعْتَقِد أَنَّهُ برهن عَلَى ذَلِك حِيْن أنقذك الليلة الماضية؟

- متهور إلى حد الحماقة.

هتفت رَحِيل، لتعتدل دَلِين، وعينها تنتقل بَيْنَ كلتيهما...

- شجاعة، رُبَّمَا يكون متهورًا لَكِنَّهُ شجاع، وأنتِ تحتاجين ولاءه يا صديقتي.

أومأت رُونَا وآصَف تَصْدِيقًا، فالْتفتت نَحْو دَلِين...

- إن كنتِ تثقين بِهِ فأنا أثق بِهِ، دعيه يأتِ.

سَكَنَتْ دَلِين غبطة حقيقية لِمَا قالته سِيًّا لَمْ يقطعها سِوَى صوت رَيَّان الحانق...

- لَا أثق بِهِ.

- اهدأ رَيَّان هُوَ لَنْ يأكلها!

سخرت رَحِيل بابتسامة ماكرة، أَكَّدَت سِيًّا موافقتها بإيماءة رَغْم عبوس وَجْهِه الطافح بالرفض.

قُرب مغيب الشمس جَاءَتْ دَلِين وهُوَ خلفها، دخل دَلشيَّر وسَكَنَ الجميع بموضعه الَّذِي اتخذه، طويل القامة، قوي البنيان بشكل يتوافق وقائد بجيش الظلام، ذو عيون بنية كَشعره الناعم الطويل الَّذِي يُغطي رقبته، ويرسله إِلَى الخَلْف يتماشى ولحيته المتوسطة المُهذبة بِإِتْقَان، وبشرة خمرية تميل للاسمرار أَكْثَر، خشن الطلة لَكِنَّهَا مَعَ حدتها وخشونتها بِهَا شَيْء مُريح للنفس.

ظَلَّ لِلَحْظَة عَلَى ذهولٍ أصابه! حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يركع أمامها كَمَا هيأ نفسه أَن يفعل!

بِطَرْف الغرفة القديمة، المُتهالكة الأركان تتكئ سِيًّا إلَى حافة كرسي شبه مُحطم خلفها، عاقدةً ساعديها فَوْقَ صَدْرِهَا، واتَّخَذَت دَلِين فور دخولها مجلسها بجوارها، بَيْنَمَا رَحِيل تقف خلف آصَف، ورَيَّان يجلس بجواره، يرمقه بنظرات لَمْ يفهم معناها لَكِنَّهُ تجاهلها!

أشارت لَهُ دَلِين بنظرة مُطمئنة أَن يتقدم، ليتلعثم، فابتسمت سِيًّا وقَدْ علمت مَا يدور بخلده وسبب ربكته المفاجأة، اعتدلت بوقفتها تضع يدها بجيبها...

- لَا يوجد هُنَا قاعة مُذهبة، ولَا كرسي عَرْش، ولَا كُلُّ مَا كُنْتَ تتوقعه.

- مولاتي...

تقدمت خطوة وبدت فِي مُنتَصَف المكان تفرد ذراعيها فِي الهواء...

- انظر حولك جَيِّدًا أَنَا لَسْت مولاة أَحَد، وكُلُّ مَا حَدَثَ لَمْ أختَره ولَمْ أسعَ إِلَيْه، لذَلِك لنوفر عَلَى كلَيْنا العبارات الرنانة الَّتِي تعتقد أنني أود سماعها، ولندخل إِلَى مَا طلبتَ مقابلتي مِنْ أجله؟

- إنني...

- أَحْمَق.

بترت حروفه بابتسامة ساخرة، رفع عَيْنَهُ بعينها، تبادل جميعهم نظرات مستغربة إلَّا رَيَّان بدت نظرته سعيدة...

- عفوًا مولاتي!

- أَنْت هُنَا لتتقدم لي حياتك مقابل حياة رجالك لأعفو عَنْهُمْ؟

تَأَمَّلَها بدهشة، لَمْ تمسه فكيف لَهَا أَن تعرف مَا الَّذِي أتى لأجله؟! لتتقدم مِنْهُ خطوتين، فأتبعت...

- تعتقد لَوْ طلبت حياة رجالك مُقابل حياتك فهَلْ سيدفعونها لأجلك؟
- لَنْ أسمح لَهُم أَن يفعلوا.
- كَمَا قالت عَنْكَ دَلين؛ إنَّكَ شجاع إلى حد التهور.

صمتت لَحْظَة وخطواتها ازدادت أُخْرَى نحوه، ثمَّ الْتفتت نَحْو رَحِيل وغمزتها...

- لكنني أؤيد كونك أَحْمَق، تعتقد أنني سَوْفَ أقتلك أَنْت ورجالك؟

وصل ذهوله أَوْجَهُ، هَلْ تقرأ كُلَّ مَا يدور برَأْسِه؟! تعرف أَنَّهُ يُفكر بكونها ستقوم بإعدامه وجيشه، فجميع المنتصرين بحروب الظلام يفعلون! زَارَا يأمر بإعدام الجيش المُنهزم أمامه مَهْمَا كَانَ عدده، حَتَّى وإن استسلم بكامل إرادته، فِي الحرب لَا شَيْء يشفع للخاسر، المَوْت دَوْمًا النتيجة المحتومة!

لتستحثه بنظرة أَن يُجيب، لَكِنَّهُ لَمْ يُجب بصوته رَغْم صرخات عقله المُتتالية بأن لَا شَيْء يمنعها، لتبتسم بتنهيدة...

- لَوْ كُنْت أرغب بِهَذَا لكنت تركتكم للروشم، كانوا سيستمتعون، ولَا أتكبد عناء دمائكم.

تقدمت خطوة أخيرة مِنْهُ فبَاتَ لَا يفصلهما شَيْء...

- أَنَا لَسْت زَارَا، إِذَا أردت أَنْت وجنودك الرحيل يمكنكم ذَلِك.
- سِيَّا!

انتفض تِيَّام الَّذِي دخل المكان توًّا عَلَى كلمتها، لتُشير إِلَيْهِ أَن يصمت، بَيْنَمَا آصَف يراقب دُونَ حرف...

- مَنْ يرغب بالرحيل يمكنه ذَلك، وله مني الأمان ومِنْ كُلِّ الطرائد عَلَى الأَرْض، لَنْ يَقْتَرِب منْهُ أَحَد أَوْ يؤذيه.

لوهلة لَمْ يُصدق مَا قالته، هَلْ حَقًّا عفت عَنْهُ وعَنِ الجميع؟! ووعدتهم بالأمان في كنفها! بالطبع يهذي! لَكن شَيْئًا بصوتها ونظرتها جعله يُصدق، رَغْم توجسه، شَيْء بِهَا مُخْتَلف عَنْ كُلِّ المنتصرين الَّذِينَ عرفهم أَوْ سمع بهم! بدت مدحورة بانتصارها أَكْثَر مِنَ انكسارهم بهزيمتهم!

سحب سيفه فتحفزت العيون وانتفض رَيَّان وَاقفًا، أشارت لَهُ أَن يثبت بمكانه، غرسه دَلشيَّر بَيْنَهما وانحنى عَلَى ركبته أمامها...

- لكننا جنود السَّدِيم وحرس القصر والمعبد، وجنود مولاتي.

انحنت نحوه بعيون متحفزة ونبرة حادة، ليظل عَلَى وضعه وهدوئه...

- لِمَاذَا انحنيت لي يا دَلشيَّر؟

- لأَنَّك ملكة السَّدِيم الشرعية.

- حَتَّى وإن كُنْتُ هجينًا؟

- تحملين دماء النُّور وهَذَا يكفيني.

- لكنك انحنيت لزَارَا سَابِقًا!

- نَحْنُ جنود المملكة، نحمي مملكتنا وعرشها وملكها.

- زَارَا ملكها وَلَيْسَ أَنَا!

- بالسابق اعْتَقَدْنَا أَنَّهُ تَمَّ القضاء عَلَى كُلِّ دماء النُّور، فَلَا مَلك غَيْر زَارَا، لَكن اليوم نعرف أَن واحدةً منهم حيةٌ، والعرش هُوَ حَقُّ مولاتي ونَحْنُ جنودها.

الْتفتت نَحْو آصَف بابتسامة ساخطة ونبرة مُهتاجة بالحنق...

- مات الملك، عاش الملك!

بادلها الابتسامة بأخرى موجوعة في نبرته...

- لَا يحمون مَلِكًا بَلْ مُلْكًا، جنود العرش، تلْك نكبتهم الكبرى أنهم جنود السلطة والصولجان، لَا يهم مَنْ يحملهم... الأهم أَنَّهُ يحملهم!

رفع دَلشيَّر طرف عَيْنِهُ بعينها بنظرة ثابتة ونبرة متزنة...

- أعرف أَن مولاتي لَنْ تُوليني ثقتها، لَكِن الأيام سَوْفَ تُثبت لَكِ صدق مَا أقول، وأننا لَا ندين بالولاء إلا لملكات النُّور، ولَيْسَ كوننا جيش الْمَوْت يَعْنِي أَن هَذَا كَانَ بإرادتنا، ولاؤنا لِمَنْ يجلس علَى العرش.

اعتدلت بوقفتها، حرك رَأْسَه بروية بَيْنَ العيون بنظرات واثقة ونبرة مُتَمَاسِكة...

- لَا أقول إِنَّهُ عدل، لَكِنَّهُ العَدْل المُتاح أَمَامنا، أعرف أَنَّهُ قاتِل، لَكِنَّهُ كَانَ كُلَّ مَا لَدَيْنَا، أَنْتِ لَا تدرين كَمْ باتت الضباع جائعة بَعْدَ إِلْكَاي لتنهش مَا تطاله! وإن تركنا لَهُم لالْتَهَموا قلب المملكة وتَمَزَّقَت بَيْنَ الطامعين.

عاد بعينيه إِلَى سِيًّا واستقر بَيْنَهُمَا صمْت صَاخِب، استفزته نظرة أَصَابَتْه بِهَا، لَمْ يفهم أهي تكذيب أَمْ سخرية! لَكِن كون ولائه للسديم وعرشه محل تشكيك، فهَذَا كافٍ ليُثير عواصفه.

شعر أَنَّهُ مُتهم وعَلَيْه الدفاع عَنْ شَيْء لَمْ يختَرْه! مُتهم بِأَنَّهُ ضمن المؤامرة ضدَّ ملكات النُّور، فكيف لَهَا أَن تُلقي عليه بتهمة الخيانة وهُوَ أكثرهم ولاءً؟! كَيْفَ تطعنه بشرفه وقسمه الَّذِي لَمْ يُنكسه يَوْمًا؟! أقسم بالولاء للسديم أَن يُبقيه قَوِيًّا شامخًا، وهَذَا مَا يفعله ويُضحي بحياته

مِنْ أجله، فَلَا يهمه إن حَكَمه ظَالم أَوْ جبَار ما دام يُبقِيه كَاسرًا وَلَيْسَ مُنكسرًا! مُفترِسًا وَلَيْسَ فريسة!

لَكن أَكْثَر مَا أثار سخطه أَنَّهُ لَمْ يختر كُلَّ هَذَا! فكيف لَهَا أَن تُدينه! وهَذَا كُلُّ مَا أُتيح لَهُم! يكز أسنانه مُحتدًّا...

- تلْك حروب لَا نختارها، قُسرنا عَلَى خوضها، والأسوأ أننا لَا نملك حَقَّ الاِسْتِسْلَام بِهَا، لَكِن أتعرفين مَا الأَمَرُّ حقًّا مِنْ كُلِّ هَذَا؟

عينها مُثبتة بعينه، وبنبرة تركض نَحْو غضبٍ أحكم قبضته عَلَى صَدْره...

- أننا مُكرَهون عَلَى الفوز بِهَا، فَلَا مجال للهزيمة، إما تَقْتُل وإما تُقْتَل، فلَيْسَ لَدَيْنَا خِيار، إما أَن ننحني ونُقسم بالولاء والطاعة، وإما تُصفَّى دماؤنا عَلَى أبواب القصر والمعبد.

رشقها بنظرة ساخرة كَابتسامته الَّتِي افْتَرَّ عَنْهَا ثغره رَغْم استبداد غضب عارم بنبرته...

- رُبَّمَا لَو استطعنا الهروب كَغيرنا...

صمت وبعينه نظرة اتهام ضَاقَ لَهَا صدر آصَف وهُوَ يتبادل النظرات مَعَ تِيَّام، ليسترسل بنفس الهيئة المحمومة...

- أَنْتُمْ أصحاب نفوذ وسلطة تختارون مَا تشاءون، تُقيمون حُروبًا أَوْ تُنْهونها، أَمَّا نَحْنُ الشعوب المسيرون المُكرَهون، مَنْ نخوض حروبكم القذرة، حُروبًا لَيْسَتْ لَنَا، أُجبرنا عَلَيْهَا، ومَهْمَا انتصرنا فوحدنا الخاسرون، لأننا ندفع ثمنها مِنْ دمائنا وحياتنا، بَيْنَمَا تتحصنون داخل قلاعكم المنيعة، فَلَا تتجرئي وتسأليني ولائي لِمَنْ!

انتفض وَاقفًا وغضبُه سيلٌ عارم، انتفضت دَلِين ورَيَّان، وتِيَّام الَّذِي كَانَ الأقرب لَهُما، واستدعى ثلاثتُهم سيوفَهم...

- ولائي لحياتي، ولَيْسَ لأحد، لأنه لَا أَحَد يَسْتَحِقّ، جميعكم طُغاة قتلة، ولَا يهمني مَنْ مِنْكُمْ يربح حربكم الآسِنة، كُلُّ مَا يهمني رجالي وشعبي، وبَعْدَهَا لِيَكُنِ الجحيم عَلَى رءوسكم جَمِيعًا.

تَقَدَّمَ خطوة مِنْهَا فتحفز ثلاثتهم حِيْن أوقفتهم بصوتها يَصْرُخ برءوسهم «**لَا يَتَحَرَّك أَحَد**»، رفع سبابته بوجهها، يُحركه بحزم وضيق واتهام صارخ بعقله أَنَّ جميعهم واحد «**أنت مثلهم قاتلة**»، لَمْ يهتز لَهَا طرف ولَمْ تُحرك اختلاجة، فأَدْغَمَ بذات الهيئة الجامحة...

- لَوْ كُنتِ فعلًا غَيْر زَارًا كَمَا تدَّعين، لَوْ تُنهين تِلْك الحروب وتُعطيننا الخيار مثْلَمَا تزَعُمين، فرُبَّمَا يومها -ويومها فَقَطْ- يكون ولائي لَكِ، وحَتَّى ذَلِك الحين فولائي لنفسي وللسديم وحده.

بَرَكَ صمت ثقيل، تراخت أعصاب ثلاثتهم حِيْن تراجع دَلشَيَّر خطوتين، تَخَلَّت دَلِين وتِيَّام عَنْ أسلحتهما بَيْنَمَا ظَلَّ رَيَّان مُطْبِقًا عَلَى سيفه.

ساد هدوء حذر، تبادلوا عَلَى إِثْره نظرات ثرثارة ساخطة، فَكُلُّ مَا قاله حَقِيقَةٌ يعرفونها، فَلَمْ يَكُنْ وجود أيٍّ مِنْهُمْ هُنَا باختياره! الجميع يخوض الحرب مُرغمًا سَوَاءٌ أكان يؤمن بِهَا أَوْ يرفضها، لَا يهم، تَحْتَ وطأة رحاها الجميع مُتهم خائن ومُدان لَا فرق أَن تكون مَعَ أَوْ ضِدًّا! أَنْت قاتل وإن كُنت المقتول!

هِيَ خير مَنْ يعلم كَيْفَ يكون شعور الإِرْغَام والإِجْبار مُهلكًا، خانقًا، يُبرح القلب وجعًا، ويعتصر الروح ضياعًا، حرب تخوضها صاغرًا،

مُكرهًا عَلَى المسير بطريق لَا تريده! لَيْسَ فَقَطْ لأن نهايته هِيَ نهايتك، أَوْ أَن المَوْت يتربص بك بَيْنَ جنباته، بَلْ لأن كُلَّ خطوة داخله هِيَ الجحيم بحد ذاته، لَكِن مَنْ يهتم بِمَا تريده أَوْ ترغبه؟! أَنْت بِتَّ وسط الجحيم وهَذَا كُلُّ مَا يهم الآنَ!

تراجعت عدة خطوات وعينها لَا تُفارق عَيْنَهُ المُتقدة بالسُّخط، عادت إِلَى مَقْعَدهَا المهترئ والجميع ينقلون النظرات بَيْنَهُمَا، ودَلشيَّر عَلَى وقفته بَعْدَمَا هدأت أنفاسه واسْتَرَدَّ رباطة جأشه، ارْتَكَنَ ظهرها للكرسي وعقدت ساعديها، ورَأْسُهَا متجه للأسفل، عينها ترتطم بالأرض الصلدة تَحْتَ قدميها، وترتطم أفكارها بقسوة مَا تفوه بِهِ، ملأت رئتيها بالهواء ومَا زَالَتْ عَلَى وضعها...

- أَنْت جئت تُقَدِّمُ لِي نفسك قُربانًا لأعفو عَنْ رجالك؟

رفعت طرف عينها نحوه بغتة، انتفضت واقفة، استدعت سيفها بلمح البصر، قبضت عَلَيْهِ بقسوة، فانتفض قلبه مذعورًا، وصوتها يهدر بحنقٍ انتفض لَهُ الجميع اضطرابًا، ونبرة أوقعت الرعب بروحه...

- وأَنَا قبلت... حياتك مُقابل حياتهم.

-

الرَّابِع

«إِن كُنا سَنذَهب إِلَى الجَحِيم فلْنأْخُذ الجَمِيع

مَعنَا، هَكَذَا سنشعُر بأُلْفة أكْبَر!»

زَارَا

العيون مِنْ حولهما تَقطُر اضطرابًا، تعالت الأنفاس، لَكِن لَا أَحَد مِنْهُمْ اسْتَطَاعَ التفوُّه بشيء، بدت لَهُم تِلْك اللحظة مُخيفة! لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُهُمْ إنكار ذَلِك! بَعْدَ لَحْظَة تَرَدُّدَ اقْتَرَبَتْ مِنْهَا دَلِين بوجهٍ قلق، نضح بِهِ العرق، ووشت اختلاجاتها بالخوف الحقيقي، تتساءل بصوت هامس...

- أنت لَنْ تقتليه؟

رمتها بابتسامة حانقة وعتها دَلِين جَيِّدًا وتهاوى لَهَا نبضها، اقْتَرَبَتْ مِنْهُ، نزل عَلَى ركبتيه مُجَدَّدًا أمامها بنظرة ثابتة دُونَ ارتعاشة واحدة، عَلَى عكسِ داخلِه الَّذِي ينتفض قلقًا، فرغم أَنَّهُ مَنْ أتى إِلَيْهَا وقدَّم حياته بكامل إرادته، فإنَّ مواجهة المَوْت هزت شَيْئًا بداخله، لَيْسَت المرة الأولى الَّتِي يواجهه بِهَا، لَكِن لَيْسَت الطريقة الَّتِي تمناها أَو انتظرها! فدومًا ينتظره بأرض المعركة، وَاقِفًا شامخًا يحمل سيفه بيده.

الجَمْع الصامت يترقب بقلق، حَتَّى رَيَّان تحوَّلَت نظراته الحانقة لنظرات متوجسة مُرتابة مِنْ ردة فعلها المفاجئة للجميع وهُوَ أولهم؛ وضعت نصل سيفها عَلَى عُنُقِه، وبنبرة جامدة كعينيها...

- انظر لِي جَيِّدًا يا دَلشيَّر لأن تِلْك اللحظة بَيْنَنَا لَنْ يُعيدها الزمن.

رفع طرف عَيْنِهُ نحوها ونظرتُه تزداد ثباتًا وداخِلُه ارتجافًا...

- كُلُّ مَا رأيتِه بعينك وسمعتهُ عَني مُنْذُ حرب الرَّوْشَم لَا شَيْء بجوار مَا يمكنني فعله، إن كَانَ زَارًا لكَم الظلام فأنا الجحيم بحد ذاته.

اقْتَرَبَتْ خطوة، وازداد نصلها احتكاكًا بعنقه، ونبرتها تَقطُرُ سُخطًا كنظراتها المشتعلة غضبًا، انحنت نحوه، أطبقت يدها الأُخْرَى عَلَى عُنُقِه...

- أقسم برب الأرباب، بكُلِّ قطرة دماء أريقت مُنْذُ لَيْلَة إِلكَاي وحَتَّى الآنَ بَيْنَ كُلِّ العوالم مجتمعة...

أطبقت أَكْثَر تكاد تهشم عُنُقَه...

- أقسم بدماء أبي والجحيم الَّذِي تذُوقه أُمِّي، إن خنتني يَوْمًا، أَن أنتزع قلبك حيًّا بيدي، أجعلك تشتهي المَوْت ولَا تناله، وإن كُنْتُ داخل قبري.

أفلتت عُنُقَه، وخلفت أناملها وديانًا بِهِ، انتفضت واقفة، تغرس سيفها أرضًا بَيْنَهُمَا، والجميع يتبادلون نظرات الدهشة الممزوجة بالاضطراب، بَيْنَمَا دَلشيَّر انحنى يتحسس عُنُقَه مِنَ الألم الَّذِي لَمْ يعد يَسْتَطِيعُ مُداراته، يُحَاوِل استرداد أنفاسه وشجاعته الَّتِي انفرطت سَيْلًا تَحْتَ وطأة أصابعها، لَا يُصدق أَنَّهُ مَا زَالَ حيًّا، اعتدل عَلَى صوتها المحتد وهِيَ تلتفت مُغادرة...

- استعِد، سَوْفَ تنتقل مَعِي إِلَى السَّدِيم.

تركزت العيون حَوْلَهَا، فُغرت الأفواه دهشة، وقَبْلَ أَن يستوعب أحد مَا قالته جاءتهم بوقع المفاجأة الأشد...

- ستكون حارسي الخاص!!

لكُلِّ لياليها التالية ومَعَ أولى خيوط الفجر تهبُّ مِنْ نومها فزعة، تَصْرُخ بجنون يتلبسها، ترجُّ أرجاء المخزن حَتَّى ناهَزَ يقض عَلَيْهِمْ أنقاضه الباقية.

تظل تنتفض وتنتفض بمكانها كَالمسوسة، تُحبَسُ بفراغ سحيق، لَا ترى ولَا تسمع سِوَى فحيح خافت يرن بقاع روحها بكلمات لَا تفهمها، يُجبرها أَن ترى وتسمع صراخًا ودماءً، دمارًا وخرابًا، تشعر كأَنَّ روحها تُغلغل داخل دوامة تعبر بهَا كُلَّ زمان ومكان! تخوض بلحظات أحداثَ ألف عام وعام! لتُلقى بَغتة بَيْنَ وجوه اختلطت بَيْنَ ملائكة وشياطين! يخْتَرِقُها كوميض برق خاطف براكين وزلازل وحروب أكوان، لتقَذَفَ روحها بقارعة الضياع، تُبعثرها بَيْنَ كُلِّ مفترقات الحياة والممات!

ليتلاشى كُلُّ شَيْء أمام رموز المخطوطة، تتوهج أمام عينيها وترى نفسها مُكبلة مِنْ يَدَيْهَا وقدميها مشدودة الوثاق ومصلوبة إلَى جدارٍ بسلاسل الخضوع تَصْرُخ مِنَ الفزع والألم!!!

هرولت الشمس راحلة تلملم مَا بقي لَهَا مِنْ خيوط حمراء واهنة، تاركة وراءها اللَّيْل يبسط ستائره عَلَى الأرجاء، بَيْنَ نسيمه العليل وسكونه الهادئ، لَيْلَة مُقمرة تُنذر بكثير مِنَ الهدوء والارتياح خِلافًا لِتِلْك الليالي السابقة، وكُلِّ مَا حملته مِنْ تقلبات مدوية.

تحلقوا بدائرتهم بفناء المخزن، ينتظرون إجابات عَلَى مَا حَدَثَ! فَلَمْ يَسْتَطِعْ أيٌّ مِنْهُمْ الاقتراب منْهَا بَعْدَ مَا حَدَثَ مَعَ دَلشيَّر، أتت هادئة مُبتسمة، تبدو مُخْتَلِفَة كليًّا كَأَنَّهَا شَخْص آخَر! وظهر هُوَ مِنْ خلف كتفها؛

مَا أثار حفيظة العيون المترقبة بشكل عام، ورَيَّان بشكل خاص! اتَّخَذَت مجلسها بِطَرْف الدائرة كعادتها، وجلس هُوَ قرِيبًا مِنْ آصَف حَيْثُ أشارت إِلَيْهِ أن يفعل.

يُحَاوِل استيعاب الحديث الَّذي دار بَيْنَهُمَا قَبْلَ قليل، عَنْ كون زُمُرُّدة عَلَى قيد الحياة! كتاب القَدَر الَّذي كَانَ يُوقن أَنَّهُ خرافة! انتقالها إِلَى دَهَّام! لَكن أَكْثَر مَا لَا يستوعبه، هُوَ أَنَّهَا أخبرته كُلَّ هَذَا! تأتمنه عَلَى أسرار لَمْ يَكُنْ ليأتمنه عَلَيْهَا سَطَام بكُلِّ مَا كَانَ يحبوه بِهِ مِنَ اهتمام! وفوق كُلِّ هَذَا اتخذته حَارسًا شخصيًّا لَهَا! كَأَنَّهَا تمنحه ثقتها دفعة واحدة، إِنَّهَا حَقًّا أَكْثَر تهورًا مِنْهُ لتفعل! تعلقت عَيْنَهُ بِهَا بانبهار وتوجس وحيرة وقلق وخوف «**مَا تِلْك الفتاة؟!**»

جذبته مِنْ عواصف أَفْكَارِه المُتلاحقة، بصوتها الهادئ المُبتسم، واقفة...

– سأنتقل إِلَى السَّدِيم، انتقَالًا كُليًّا وَلَيْسَ تجوالًا كَخطتنا بالبداية.

تبادلوا نظرات الدهشة رَغْم أنهم توقعوا ذَلِك بَعْدَ ظهور زُمُرُّدة، لَمْ تُعطِ أحدًا فرصة ليقول شَيْئًا، لتُردف بذات الابتسامة...

– لَا يمكنني أَن أتخلى عَنْ أمِّي فهِيَ كُلُّ مَا تبقى لِي، سأستعيدها بِأَيِّ ثمن.

دارت بنظراتها بَيْنَهُمْ...

– لَن أطلب مِنْ أيٍّ مِنْكُمْ مرافقتي، فأنتم بالفعل قدمتم الكثير، مَنْ يريد المغادرة يمكنه ذَلِك، أَنْتُمُ الآنَ بأمان.

تَملَّكَتها نظرة واهنة، كَنبرتها المُرهقة...

- أَنَا لَمْ أبدأ تلْك الحرب لكنني مَنْ سيُنهيها، لَيْسَ لِأَنَّنِي أعرف كَيْفَ أُنهيها، لَكِن لِأَنَّ هَذَا خياري الوحيد، فهُم لَمْ يتركوا لي سواه.

- أَنْت مُحقة فنحن بأمان، لَكِن الآنَ فَقَطْ وهُنَا عَلَى الأَرْض، فمَاذَا بَعْدُ! مَاذَا لَو اسْتَولى زَارًا عَلَى الكتَاب! لَا مكان فِي الكون سَوْفَ يحمينا، أَوْ يردعه عنَّا، غير أن جَمِيعَنَا يَعْرِف أَنَّكَ حمقاء ولَنْ تَنْجِي مِنْ دوني.

غمزتها رَحِيل بابتسامة حانية، ووقفت بجوارها، لترد بابتسامة دامعة...

- أعرف ذَلِك.

لتتقدم دَلِين خطوتين نحوهما...

- تعرفين أنني سَأكون دَائِمًا إِلَى جوارك مَهْمَا كَانَتِ الظروف أَوِ التبعات.

لَمْ تقل شَيْئًا لَكِن نظراتها الممتنة قالت الكثير، لتقف دَلِين بَيْنَهُمَا تضع ذراعيها عَلَى كتف كلتيهما...

- غَيْر أَن كلتيكما تحتاجان لرعايتي.

لتغمزهَا رَحِيل...

- هَلِ اعتقدَت الحمقَاء أَنَّهُ يُمْكِنُها التخلص مِنَا بتِلْك السهولة؟

- ألم تقولي إِنَّهَا حمقاء؟!

تهكمت دَلِين بضحكة مرحة، لتزداد ابتسامة سِيًّا...

- كَانَ علَيَّ المُحَاولة.

ليقف رَيَّان أمامها...

- سأتبعك إِلَى نهاية الكون.

الْتفتت نَحْو رُونَا الَّتِي انتفضت غاضبة...

- هَلْ فقدت عقلك؟! زُمُرُّدة مسؤوليتي وسَوْفَ أَسْتَرِدُّها بِأَيِّ ثمن.

- لَمْ يبقَ غَيْرُكَ يا آصَف؟

- تعتقدين إِنَّهُ يُمْكِنك أَن تَنْجِي عَلَى الجانب الآخر من دوني؟

- لَا أَعْتَقِدُ أنني سأفعل من دون أيٍّ مِنْكُمْ مَعِي.

- مِنَ الجيد أَنَّكَ تعلمين، غَيْر أنني...

تنهد وتبددت ابتسامته، نظر نَحْو الفراغ الممتد أمامه...

- أدين لرُهَانَا بِذَلِك.

- أَنَا أَيْضًا قادم.

- كَلَّا يا تِيَّام، أَنْت لَنْ تَذْهَب إِلَى أَيِّ مكان.

رشقها بنظرة احتجاج، تَقَدَّمت مِنْهُ، وضعت يدها عَلَى كتفه...

- لَنْ أَسْتَطِيعُ ترْك جيشي مِن دُون قائده، أينما يكُن جيش النُّور يكُن قائده.

ابتسمت رُونَا وتبادل جميعهم نظرات الفرحة والرضا، ليتساءل بتلعثُم...

- أتعنين...

- أَنَّكَ قائد جيش النُّور، سيكون تَحْتَ إمرتك، مُتأهب حَتَّى تحين لَحْظَة العبور، أحتاجك هُنَا أَكْثَر مِنْ أَيِّ مكان آخَر.

وضع يده عَلَى كتفها وضغطها بحنان، ويُشير بيده الأُخْرَى نَحْو قلبها بابتسامة رائقة...

- أخبرتك أنكِ ستجدينها.

بَعْدَ بُرهة غادر ومَعَه رُونَا فِي جولة خاطفة للطرائد الَّذين مَا زالوا عَلَى علاقة وثيقة بآخرين عَلَى السَّدِيم، أصرًّا عَلَى طرق كُلِّ الأبواب المتاحة!

اعتدل دَلشيَّر يُطعم النار بَعْض الأغصان اليابسة ليُبقيها مشتعلة، وعَيْنُهُ تخطف النظرات العابرة لدَلِين، بِهَا شَيْء يجذبه! لطالما جَذَبَه فِي الماضي! فبكل مرة تقع عَيْنُهُ عَلَيْهَا تخطف أنفاسه، لَكنَّهُ مَا كَانَ يَجْرُؤ أَن يُصارحها وَلَوْ بنظرة عابرة عَمَّا بداخله! فيعلم أَن رَأْسَه سَوْفَ يطير قَبْلَ أَن يُنهي أول حروفه.

قرأت سيِّا مشاعره دُونَ الحاجة للدخول إِلىَ عقله «**عين الكاره بئر فاحمة تستر ألف باغية عارية، وعين العاشق تفضح ناسكة تلتحف ألف حجاب**».

جذبت انتباهه، وضع أمامهم خريطة للطابق الَّذي تقع بِهِ القاعة المحرمة والحجرة الدخيلة والَّتِي باتوا مُتيقنين أَن زُمُرُّدة مُحتجزة بِهَا، رسمها ليعلموا توزيع الجنود داخل الردهة وأمام الحجرة، ليبدأ دَلشيَّر بصوت قائد عسكري واثق...

- تِلْك الحجرة لَا يَجْرُؤ أحدٌ على الاقتراب مِنْهَا، تُعَد ثكنة حربية، تتم حراستها عَلَى مدار اللَّحْظَة، كُلُّ دورية بِهَا عشرة حُراس يتوزعون مِن مُنتَصَف الردهة حَتَّى باب القاعة المحرمة، إِلَى باب الغرفة، تتغير دوريتهم كُلَّ أربع ساعات، غَيْر أربعة حراس يقفون بمدخل الباب وحده، وهَؤُلاء يتغيرون بنوبتَي حراسة، صَباحًا ومَساءً، يكونون مِنْ حرس زَارَا الخاص.

نظر بعينها مُحذرًا...

- غَيْر حاجز مِنَ السحر الأسود يحوطها فلَنْ تستطيعي الاقتراب، حَتَّى هَؤُلاء الحرس الَّذِين يقفون ببابها نفسه لَا يستطيعون تخطِّيه.

- لَكِن أَخْزَم يَسْتَطِيع.

أَكَّدَت وهِيَ تعقد ساعديها بنظرة واثقة، لتهتف دَلِين...

- وأَخْزَم لَنْ يفعل!

تبسمت مِنْ طرف فمها بخبث نبه كُلَّ حواس دَلِين، ليتساءل دَلشيَّر بتوجس...

- مَا الَّذِي تفكرين بِهِ؟

- تعتقدون كَيْفَ استطعنا الصمود حَتَّى الآنَ؟

تنقُل نظراتها بَيْنَهُمْ، لتعتدل رَحِيل...

- لأننا أقوياء؟

- لَمْ يَعُد البقاء للأقوى، ولو كَان كَذلك لهزمَنا زَارًا مِنَ الجولة الأولى، البقاء للأذكى، هَذَا مَا أبقانا أحياءً حَتَّى الآَن، نعرف جيدًا كَيْفَ نستغل ذكاءنا ضدهم.

- سِيَّا مُحقة، هُمْ أقوى لكننا استطعنا أَن نستخدم الحيلة والذكاء والسحر لمجابهتهم.

أكد رَيَّان، لتُكمل دَلِين بابتسامة ماكرة...

- أَعْتَقدُ أنني أعرف مَا الَّذِي تُخططين لَهُ، ستحاولين استدراجه خَارِجًا!

رفعت سِيَّا حاجبها مُشاكِسةً، فرك دَلشيَّر لحيته بتردُّد...

- تعتقدين أَنَّهُ سيقع بنفس الفخ الَّذِي وقع بِهِ سَطَام؟ أستبعد أَن يفعل.

- سيفعل.

رَدَّ آصَف سريعًا، لتزداد الحيرة بعين دَلشيَّر، فأردف...

- لأَنَّهُ أرعن، يعتقد أَنَّهُ الأذكى، يُوقن أَن امتلاكه زُمُرُّدة نقطة قُوَّة لَهُ ستمكنه مِنْ تحريك اللعبة كيفما يَشَاء، غروره أَكْبَر مِنْ أَن يرى، ولهذا السبب تَحدِيدًا سيقع بنفس الفخ.

- بالضبط.

أَكَّدَت وهِيَ تلتفت نَحْو دَلشيَّر...

- أتعرف لِمَاذَا لَا يتعلم أحدٌ مِنَ التاريخ، ويُكررون ذَاتَ الأخطاء الَّتِي يقع بهَا السابقون بكُلِّ حذافيرها؟!

حرك رَأْسَه بِأَنَّهُ لَا يَعْرِف، فتبسمت بسخرية...

- لأن كُلَّ واحد مِنْهُمْ يعتقد أَنَّهُ الأذكى، ولَيْسَ بالحمق الَّذِي يجعله يقع بنفس أخطائهم، ورَغْم أنهم يَرَوْنَ الفخ بكُلِّ شواهده فإنهم يسيرون إِلَيْهِ بكامل غبائهم، لَا يعرفون أَن التاريخ يُعيد أحداثه وكذَلِك شخصياته؛ مَنْ لعب دور الأبله، مَنْ يتخذ دور القوي، ولاعب الخفة الذكي الَّذِي يُخفي حيَله بَيْنَ أطراف أصابعه، وكُلُّ مَا عَلَيْكَ فعله اختيار مَنْ تكون؛ الأَبله الَّذِي ستنطلي عَلَيْه الحيلة، أَم الأحمق الَّذِي يغترُّ بقوته ليُسحق بغبائه، أَمْ لاعب الخفة مَنْ يُلَملم أوراق اللعبة بيده. لَكِن أتعلم مَا المضحك حقًّا؟

أمال رَأْسَه باستفهام، لتضغط بيدها فَوْقَ الخريطة...

- لَا أَحَد يَأْخُذ الدور الَّذِي يختاره، بَلِ الدور الَّذِي يستحقه! لَنْ تربح حرب أَنْت بالفعل تخليت عَنْهَا واستسلمت لهزيمتك فِيهَا! لَا يربح الحروب صاحب القوة أو الحَقِّ بَلْ يربحها الصامدون فوحدهم

الأحق، تربحها حِيْن تُناضل بكُلِّ مَا تَسْتَطِيع وتمتلك لاسترداد حقك المسلوب؛ لأن صمودك أقوى مِنْ أسلحتهم، مُقاومتك الواهنة تُخيفهم، تُذكرهم بآثامهم، أنهم المغتصبون، لكنك لَنْ تربحها وأنت مُتخاذل مُختبئ، تنعي سوء حظك وتتحسر عَلَى أمجاد ماضيك المهدور! أَوْ تنتظر أن يربحها لَكَ غَيْرُكَ فَتِلْك حماقة أَكْبَر.

- أَعْتَقِدُ أنكِ مُحقة تَمَامًا.

أكد مَا قالته بإعجاب ينتفض بَيْنَ نظراته وحروفه مَا زاد مِنَ اسْتِياء رَيَّان، لَكِن إعجاب آصَف بتلميذته فاق الجميع، ليُتبع دَلشيَّر بابتسامة مرحة...

- وأَخْزَم أرعن إِلَى أقصى حد، يعتقد أَنَّهُ مَنْ سيصفق لَهُ الجمهور.

- لنرَ أَيَّ دور يَسْتَحِقُّ!

أنهت دَلِين الأفكار المتخبطة بأملٍ واهٍ لَكِنَّهُ كُلُّ مَا يمتلكونه، لتعقد رَحِيل ساعديها...

- هَلْ لدى أيٍّ مِنْكُمْ فكرة عَمَّا هُوَ تَحْدِيدًا الفخ الَّذِي سيستدرجه حَيْثُ نريد؟

تركزت العيون باتجاه سِيَّا! أطبقت عَلَى صمتها وهدوئها، وعقلُها يُعيد رسم خُطتها الَّتِي جهزتها، ومَهْمَا بدت جنونية لَا يهم، فهِيَ الآنَ يائسة إلى حد دفْع روحها إِلَى هاوية الجحيم الأبدي بحد ذاته.

بكُلِّ الأحوال هِيَ ذاهبة إِلَى الجحيم، لَكِنها لَنْ تكون وحيدة ستأخذ زَارَا وأَخْزَم مَعَهَا، لاَ يهم كَيْفَ سينتهي كُلُّ هَذَا ما دام سَوْفَ ينتهي، أَحْيَانًا تكون النِّهَايَة بحد ذاتها مَا نسعى خلفه!

رمتهم بابتسامة ماكرة...

– الكِتَاب هُوَ صاحب الأفضلية داخل اللعبة، مَنْ يمتلكه فسَوْفَ يفوز بالحرب، وهُوَ الطُّعم المناسب لاجترار زَارَا نفسه خارج حصونه.

ثبتت نظرة تحدٍّ نَحْو آصَف...

– ولَنْ يكون لأَحَدٍ غيري.

تبادل جميعهم نظرات الاهْتِمَام، فأتبعت...

– لذَلك سنُغير قوانينِ اللعبة، زَارَا لَنْ يصل للكتاب مِن دُون أمِّي، وإن وصل للكتاب فأُمِّي لَا تُساوي شَيْئًا، الكِتَاب هُوَ مَا أبقى عَلَى حياتها، لذَلك سَوْفَ نُبقي الوضع هَكَذَا حَتَّى نستردها.

– لَمْ أفهم!

عقبت رَحِيل وبدت كُلُّ العيون مثلها، إلَّا آصَف! لتستطرد بحماسة...

– سَوْفَ نحرص عَلَى أَن تبقى أمِّي والكتاب بعيدَين أحدهما عن الآخر.

– كَيْفَ وأمك والكتاب بالفعل لَدِيه؟

تساءل رَيَّان يُحَاوِل مُجاراة حماسها، لتنتقل عينها بَيْنَهُ وبَيْنَ آصَف...

– عَمليًّا زَارَا لَا يملك سِوَى أُمي فَقَطْ، أمَّا الكِتَاب، فَلَا أَحَد يمتلكه.

– لَكِنَّهُ داخل رُوسيل، وهَذَا يَعْنِي أنَّهُ تَحْتَ يده أَيْضًا؟

استفهمت دَلِين لتصوب عينيها نحوها...

– نَظرِيًّا فَقَطْ، رُبَّمَا لَا أستطيع الحصول عَلَى أمِّي، وهِيَ تحوطها كُلُّ تِلْك الحراسة، لكنني سأحصل عَلَى الكِتَاب، وحينها سأصل إِلَيها.

- كَيْفَ؟

تساءلت رَحِيل بتشكك، لتثبِّت عينها بعين آصَف الصامت...

- سأذهب إِلَى رُوسِيل وآخُذ الكِتَاب.

تعالت شهقاتهم المذهولة، فحركت دَلِين يَدَيْهَا باضطراب، تُحَاوِل إيقاف حماسها الجامح، والأهم أَن تستوعب مَا شطح إِلَيْهِ جنونها...

- أَنْتِ تعرفين أَنَّهُ لَا يُمْكنك فعل ذَلك وأنت تتجولين!

- فِي تجوالي نَعَمْ... فَلَا أَسْتَطِيعُ أَن آخُذ شَيْئًا أَوْ أترك شَيْئًا.

- أَنْت لَا تفكرين فِي...

لَمْ تُكمل جملتها، تَصَلَّبَت حدقاتها بحدقات سِيَّا مِنَ الذهول لتكمل الأُخْرَى وترمقها بنظرة عنادٍ هِيَ خير مَنْ يعرفها...

- أَن أذْهَبْ إِلَى رُوسِيل بكامل انتقالي! هَذَا تَحْدِيدًا مَا سأفعله.

داخل القبو، يجلس أمام منضدته، عَلَى ضوء شمعة واهية، مُغطًّى بعباءته السوداء الَّتِي تبتلعه داخلها فَلَا يَبْدُو مِنْهُ سِوَى عينيه المُعلقتين بمخطوطته الأثيرة، يُحَاوِل فك طلاسم رموزها، فرغم أَنَّهُ حفظها عَنْ ظهر قلب ويَعْرِف جَيِّدًا مَا الغرض مِنها، فإِنَّهُ مَا زَالَ لَا يَسْتَطِيع فهْم كُلِّ الرموز داخلها، وكيفية تحكُّمه بِهَا!

رَغْم فشل رجاله فِي إحضارها، لَكنَّهُ لَا يتعجل بأَيِّ حال، فهِيَ آتيةٌ آتيةٌ لَا محالة، هَكَذَا يَعْرِف ويُوقن أَن القَدَر سيسوقها إِلَيْه، هَذَا مَا رآه برؤياه وما راهن عَلَيْهِ، وحَتَّى تَأْتِي تِلْك اللَّحْظَة عَلَيْهِ أَن يتحضر لَهَا جَيِّدًا، ويُعد

لَهَا كُلَّ مَا امتلك، لأَنَّهَا ستكون فرصة واحدة، وإن أفلتها أفلتَ مَعَهَا كُلُّ مَا سهر ليالي يُشيده، وحياته!

تلْك الليلة لَمْ يُدَاعب النَّوْمُ جفنَها، أَوْ بالأحرى تهرب هِيَ مِنْهُ، فَلَا تشاء أَن تقع فريسة كوابيسها، فبَاتَت جزءًا لَا يتجزأ مِنْ ليلتها.

اعتدلت جالسةً فِي سريرها حِيْن داعبها خاطرٌ مَا! فهبَّت واقفة، ليلفت نظرها أَن رَحِيل لَيْسَتْ بسريرها! بَيْنَمَا دَلِين نائمة بالسرير الآخر.

هَمَّتْ مُغادرةً إِلَى الدور العلوي، لتجد آصَف يجلس علَى كرسيه وعَيْنُهُ مُعلقة بالسماء الساكنة الَّتي تتلألأ بصفحتها نجوم مُتفرقة، ضيَّقَت حاجبها حِيْن لمحت رَحِيل مُمددة قرِيبًا مِنْهُ عَلَى الأريكة، تغط بنوم عميق.

تقدمت بخطوات بطيئة حِيْن تناهى لعقلها بَعْضٌ مِنْ أفكار آصَف، يَبِسَت بمكانها! وخاطبت نفسها بذهولٍ «**كَيْفَ هَذَا؟!**»

عاودت تقدُّمَها حَتَّى وصلت مجلسه وذَاتُ الابتسامة المشدوهة تحتل مُحياها! وجدها تقف أمامه، همس بصوت خافت...

- يَبْدُو أَنَّهَا لَيْلَة طويلة!

جَلَسَتْ قرِيبةً مِنْهُ، رمته بذَات الابتسامة وهِيَ تنظر نَحْو رَحِيل، فهز رَأْسَه بتنهيدة مُغتاظة...

- ألم تسمعي عَنْ شَيْء يُدعى الخصوصية بالحياة؟

كادت تنفلت عَنْهَا ضحكة كتمتها بيدها، تهز رَأْسَهَا دُونَ تَصْدِيق، وبصوت هامس كي لَا تُوقظ النائمة...

- أَنْت ورَحِيل أتمزح مَعِي؟! كلاكما عَلَى النقيض مِنَ الآخر أيُّهَا العجوز العاشق.

- أَنَا لَسْت عَجُوزًا، وهَذَا لَيْسَ مِنْ شأنك!

حاول تَمَالُك ضيقه كي لَا يُوقظها، وبنبرة مُحذرة هامسة رَغْم ثورته الَّتِي لَمْ يَسْتَطِعْ كبحها...

- لَا تتحدثي عَنْ شَيْء لَا تعرفينه يا حمقاء!

كادت أَن تسأله كَيْفَ صَارَ عَجُوزًا إلَى هَذَا الحد! لَكنَّهَا آثرت الصمت، وابتسمت لخاطر آخَر، يَبْدُو أَنَّهُ غارق بالعشق حَقًّا، حاولت تَمَالُك ضحكتها، رمقها بنظرة مغتاظة وهُوَ يدفعها للمغادرة...

- هيا اذهبي للأحمق رَيَّان، مَا الَّذِي أتى بك إلَى هُنَا؟

هبَّت مُغادِرةً، لكنها تذكرت لِمَاذَا أتت، فعاودت جلستها، تتصنع الجدية، ويرميها بنظرة تنذرها أَنَّهُ لَنْ يتهاون، فأشارت أَنَّهَا لَنْ تفعل.

سحبت عصًا صغيرة مُلقاة على الأرض واتخذت نبرة جدية هادئة...

- أعرف أَنَّكَ مِنْ أَكْثَر الرهبان ذكاءً وسُرْعَة بديهة، لذَلك جعلَتك رُهَانًا معلمًا لزُمُرُّدة، ولَدَيْك ممَّا تعرفه عَنِ السحر مَا يفوق كُلَّ الموجودين عَلَى الأَرْض ورُبَّمَا السَّدِيم أَيْضًا.

هز رَأْسَه بثقة وابتسامة غرور، لتُحرك يدها بالعصا ترسم شَيْئًا...

- أخبرتك حِيْن انتقلت إلَى ذَاك القبو...

- مَا زلت أحاول فهْم كَيْفَ انتقلت إلَى داخل ذكراه حاضرة وَلَيْسَ مُجرد رؤية مِنَ الخارج!

يحك لحيته بِحِيرة، قواها تتطور أسرع مِمَّا يمكنه فهمه أَوِ استيعابه، ترددت...

- هُنَاك شَيْء لَمْ أُخبرك عَنْهُ شاهدته بالداخل.

ارتجف شَيْء بصدره، لَا يَعْرِف لِمَاذَا، لَكِنَّهُ حاول التمسك بهيئته الخارجية، رفع طرف عَيْنِهُ نحوها، لتُكمل وهيئَتُها تزداد اضطرابًا...

- شَيْء يشبه مخطوطة قديمة...

ابتلعت ريقها بقلق، تتنفس بصعوبة...

- أراها تُطَاردني كُلَّ لَيْلَة فِي أحلامي!

فرك لحيته، وقلبه يُنبئه أَنَّهُ الَّذي رآه وجعله يستدعي زُمُرُّدة! شَيْء لَهُ طاقة ظلام هائلة، وتمنى أَن زُمُرُّدة تعرف لَكِنَّهَا مثله لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا إجابة!

مَدَّ يده نحوها...

- أرِينِي مَا رأيتِه هُنَاك.

أَمْسَكَت يده، أغمضت عينها وتَرَكَتْه يَدْخُل إِلَى كابوسها، لَحْظَات وارتجفت يده وارتفعت أنفاسه، انتفض مذعورًا كَالممسوس يكاد عقله يُغادره، يَصْرُخ بصوت خافت «**مُسْتَحيل... كَيْفَ؟!**» يلف حَوْلَ نفسه كحيوان بري محبوس، يبحث عَنْ طريقٍ نَحْو الحرية، فَلَا يجد فيزداد هياجه وذعره! وَجْهُه شحب كَالأموات!

أصابها الذهول مِنْ ردة فعله، أَمْسَك يدها بغتة، قبضتُه استماتت عَلَيْهَا!

سحبها ونزلا السُّلم، اتَّجَها نَحْو غُرفة رُونَا، أيقظها، انتفضت لتجدهما أمامها وقَبْلَ أَن تنبس بحرف أمرها أَن تتبعهما، كادت الدهشة تقتلها، لَكِنَّهَا أطاعته دُونَ كلمة، حَتَّى غادر إِلَى الفِناء الخالي بَعِيدًا، ترك يدها، وكلتاهما عَلَى ذهولها، لَا تفهمان مَاذَا أصابه!

رسم دائرة حَوْلَهم، أطلق صفيرًا تعرفانه جَيِّدًا، لَحْظَات ووجدتا الصقرَين يُحلقان فوقهما؛ مَا زاد دهشتهما، ألقى بتعويذة لَمْ تسمعاها سَابِقًا، فغلَّفَتهما دائرة سوداء، اختفى ثلاثتهما والصقران داخلها!!

الخَامِس

«دَعْنَا لَا نَحْتَسب هَزَائِمنَا المَاضِية مِنْ أعمَارنَا!

ونَحَسب بَعْدَهَا كَمْ تَبقى لنَا! لَا تَتفَاجأْ إِن

أَخبرتُك أَننَا لَمْ نُولَد بَعْدُ!»

دَلشيَّر

جاءهم صوتها مِنَ الخَلْف! تَصَلَّبَت رُونَا! هَذَا الصوت تعرفه!! لِلَحْظَات لَم تَسْتَطِع الحراك! لَمْ تَجْرُؤ عَلَى الالتفات، خذلها جسدها أن تفعل!

رماها آصَف بنظرة مُشفقة حانية مُطَمْئِنة، استجمعت شجاعتها ولملمت أنفاسها واستدارت عَلَى مهل، لتقع عينها عَلَيْهَا، فهتفت زُمُرُّدة بنبرة شوق «رُونَا» لِيَكُون أوَّل مَا تتفوه بِهِ مِنْ بَيْنِ دموعها...

– آسفة أنني تخليت عَنْك.

– لَمْ تفعلي يَوْمًا.

نقلت سِيًّا عينها بَيْنَ زُمُرُّدة وآصَف، تفحَّصت مقابلتهما الفاترة! وردّ فعلهما الهادئ بدا غريبًا لشخصين لم يتقابلا مُنذ أمد! حركت يَدَهَا بنظرة مُستنكرة...

– أنتما التقيتما قَبْلَ الآنَ!

ضيقت رُونَا بَيْنَ حاجبيها بِعَدَم تَصْدِيق، ترميه بنظرة مُغتاظة مُعَاتبة تطلب توضيحًا، ليُحرك كتفيه بغير اكتراث...

– لَا يهُمُّ الآنَ.

– بَلْ يهُمُّ.

اهتاجت بوجهه، لتُقاطعهما زُمُرُّدة بِرَوِيَّة...

- تقابلنا لعدة مرات، وأَنْتِ مَنْ فعل يا سِيًّا!

الْتفتت نَحْو أمها مشدوهة، تتبادل النظرات غَيْر المستوعبة مَعَ رُونَا، ارْتَكَن آصَف إلَى جذع شجرة يابس خلفه...

- لَسْت وَاثقًا كَيْفَ؟ لكنك استطعت أن تفتحي ثغرة، بَابًا خلفيًّا فِي تعويذة الإخفاء الَّتِي يُلقيها حَوْلَهَا.

ابتسمت بأَسًى ودموعها تُغرق وَجْهَهَا، عينها مُعلقة بابنتها...

- اسْتَطَاعَ آصَف عكس التعويذة واستخدام سحره لاستدعائي، الصقران هما حلقة الوصل الَّتِي مِنْ خلالها أستطيع الحضور عَلَى الأَرْض ومِن دونهما قَدْ لَا ينجح الأَمْر.

ركعت سِيًّا أمامه بلهفة طفلة صغيرة...

- أخبرني كَيْفَ أفعلها مُجَدَّدًا؟

فرك لحيته، شابَ هَيْئَتَه هدوء مُتوجس...

- أَعْتَقِدُ أَن انتقالك إلَى الرَّوْشَم هُوَ مَا خلخل التعويذة؟ الثمن الَّذِي دُفِع قربانًا لعودتك كَانَ باهظًا! لَا بُدَّ أَنَّكَ كسرتِ حلقة مِنْ حلقات الانتقال!

تقدمت زُمُرُّدة صارخة...

- مَاذَا فعلتَ؟!! هَلْ تركتها تَذْهَب إلَى عالم الموتى؟!

- عَنْ أَيِّ ثمن تتحدث أَنَا لَمْ أدفع شَيْئًا! أَنَا أعدتهم لوطنهم!

تجاهلت ثورة أمها، قطَّبَت حاجبيها باستفهام، ليبتسم بمرارة...

- لَا شَيْء فِي الحياة دُونَ مقابل، هَذَا ثمن مُحاربة الرَّوْشَم إلَى جانبك، فمَاذَا تعتقدين سيكون ثمن السحر الَّذِي أعطاكِ

كُلَّ هَذَا؟! لِكُلِّ سحر ثمنه، وكُلَّمَا غَلَا مَا تطمحين إِلَيْهِ، غَلَا مَا تدفعينه بالمقابل.

سَخر بحُرقة منْ نفسه، وهُوَ يُردد كلمات رُهَانَا! أعاد رَأْسَه للخلف ودمعة تُثقل عَيْنَهُ، وتُثقل ذكرياتُه روحَه، لَمْ يُرد إِخبارها أَنَّ لانتقالها إِلَى عالم المَوْت ثمنًا باهظًا، لَكِن الآنَ وبَعْدَ التعويذة الَّتِي تَصْرُخ بداخلها يجب أن تعرف أَن الثمن الَّذِي ندفعه للوصول إِلَى شهواتنا غَالٍ فَوْقَ الاحتمال، مَهْمَا ادَّعينا أننا نتحمل، هزت رَأْسَهَا نفيًا...

- لَمْ أفعل!

صُلبت أحداقهما بعضها ببعض، ويصدح برَأْسِهَا بأسًى...

- أَنْتِ طلبت المرور إِلَى عالم الموتى، أتعتقدين مَنْ يمكنه العبور إِلَى المَوْت إن لَمْ يَكُنْ عَلَى قيده وأَحَد أتباعه؟!

شَقَّت نبضاتها واختلجت أنفاسها، ليستطرد بذات النبرة...

- للحق هَذَا شَيْء لَا تدفعين لَهُ، لَكِن أَن تعودي...

ازداد ارتجافها، ليُغمض عَيْنَهُ بحُرْقَة...

- أتعتقدين أَيُّ ثمن يوازي العودة إِلَى الحياة... مُجَدَّدًا؟!

ارْتَدَعَت عَن التنفس، دوَّى داخلها «**مُجَدَّدًا! أهذا يَعْنِي أنني مُـ...**» لَمْ تَجْرُؤ على التفوه بِهَا!

ليُعاود صَخَب صوته الحزين برَأْسِهَا...

- كُلُّ الدماء الَّتِي أُرِيقت لَيْلَة الرَّوْشَم قُدمت قُربانًا لعودتك للحياة، الدماء لَا يساويها إِلَّا الدماء.

ارْتَاعَ جسدها خَوفًا وألمًا وسخطًا، وبتنهيدة خائرة لثلاثتهم، ودمعة يحبسها بَيْنَ جفنيه ونبرته...

- لِكُلِّ تعويذة ثمنها، ولِكُلِّ سحر أسود قُربان.

أغمضت زُمُرُّدة عينيها بأسًى فهِيَ تعي قواعد اللعبة، بَيْنَمَا انحنت رُونَا تريد ضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهَا، لَكِنَّهَا مَا استطاعت سِوَى مراقبتها، وضع يده عَلَى كتفها...

- كُلُّ سحر قوي تُطلقينه يكون لَهُ تبعات، خَاصَّة إن كَانَتْ تعويذة سحر أسود! تعويذة الرَّوْشَم فتحت بَابًا فِي تعويذة الإخفاء وأحدثت خللًا فِي الانتقال، مَا استدعى زُمُرُّدة، ولنحمد الله أَن هَذَا مَا حَدَث.

أخذ نفسًا عَمِيقًا، زفره وزفر مَعَهُ خوفًا يركض بَيْنَ ضلوعه...

- لَكن الأَمْر الآنَ أَصْبَحَ أَكْبَر مِنَ الكتاب واللعنة، وحَتَّى استرجاع زُمُرُّدة.

- مَا الَّذي تعنيه؟

تساءلت زُمُرُّدة بقلق مُتزايد «**هَلْ ذهابها إِلَى الرَّوْشَم كشف سرها؟! أَحْمَق آصَف، يعتقد أَن تعويذته هُوَ مَا أعادها مِنْ عالم الموتى!**» انتبهت مِنْ تَشَوُّش أفكارها عَلَى نبرته الَّتِي أَلْقَتْهَا بغياهب جُبٍّ سحيق...

- زَارَا لَديه تعويذة الاستحواذ ولذلك يُحَاوِل اختطافها.

ترنحت زُمُرُّدة وشهقت بفزع، عينها دَنت تُغادر محاجرها، زادت دهشة رُونَا الَّتِي لَا تفقه شَيْئًا، لتهتف بنفاد صبر...

- مَا الَّذِي يعنيه هَذَا؟ مَا هَذِهِ التعويذة؟

- واحدة مِنْ بضع تعويذات تَمَّ اقتطاع لفائفهم مِنْ كتاب القَدَر حِيْن اختفى بالمرة الأولى.

ردت زُمُرُّدة بتوتر تفرك أصابعها، أخذ آصَف نفسًا مُتقلقلًا...

- يُقال إِنَّهَا التعويذة الَّتِي أشعلت حروب الظلام الست!

- لَا يمتلكها.

الْتفتوا نَحْو زُمُرُّدة لتؤكد بنبرة حادة، وعينها بعين ابنتها...

- لَوْ كَانَ يمتلكها لَمَا كَانَ لينتظر حَتَّى الآنَ!

- رُبَّمَا عثر عَلَيْهَا قَرِيبًا أَوْ...

تَمَهَّل آصَف يفرك لحيته، لتغتصب سِيًّا انتباهها بَعْدَ صدمتها...

- لِمَاذَا لَا أُطلقها أَنَا أَوَّلًا ضِدَّهُ؟

التفَت إِلَيْهَا ثلاثتهم، لتستطرد بنبرة تائهة...

- أَنَا أحفظ كُلَّ رمز داخلها وعباراتها تتردد داخلي رَغْم أني لَا أفهمها.

- لِكُلِّ شَيْء ثمنه يا غبية، انظري لِي جَيِّدًا.

صَرَخَ بوجهها، أطبق يده بحنق عَلَى رقبتها وبنظرة ارتجفت لَهَا، فَلَمْ تَرَه يَوْمًا هَكَذَا، ولَا بأشد حالات جنونه! تحركت رُونَا نحوها فأوقفتها زُمُرُّدة! اتقد الجمر بعينه وانتفض الشَّيْطَان بنبرته...

- أَمْعِنِي النظر بي، لتعرفِي أَنَّكِ لَنْ تتحملي يَوْمًا دفْع التكلفة.

أحكم الصمت مقصلته الخانقة عَلَى الوجوه المُترقبة، أطلق سراح أنفاسها المضطربة، هَدأَ مِنْ نبرته، تلجلجت خطوة زُمُرُّدة قَبْلَ أَن ترتاب نبرتها...

- بدأت الكوابيس تُطاردك؟

نكَّس رَأْسَه أرضًا، يُحركها أَن نَعَمْ، تنهد بنبرة مُتخاذلة...

- لَمْ تتمكن مِنْهَا بَعْدُ، لَكِنَّهَا تستدعيه... وبقوة.

ضَجَّت سِيًّا بكليهما فانتفضت واقفة، اكتفت مِنَ الألغاز والصفعات وصرخت بغضب...

- تستدعي مَنْ؟

أطبقت زُمُرُّدة كفها عَلَى ذراع ابنتها تجذبها نحوها، التصقت بصدرها همست بمسحة ألم تُغرق عينها ونبضها...

- هَذَا كُلُّه خطئي لَكِن لَمْ يَكُنْ أمامي سبيل آخَر!

اختزلت باقي مَا تمنت قوله فِي تنهيدة حزن ونظرة ندم، مَا ستبوح بِهِ لَنْ يزيد الوضع إلَّا سوءًا، فأسَرَته داخلها، مَا اعتقدت أَن الأمور قَدْ تؤول إِلَى مَا آلت إِلَيْهِ!

طَالَ الصمت بَيْنَهُمَا، لَمْ يَجْرُؤ أَحَدُهُمَا عَلَى كسره، هَوَت رُونَا لجذع الشجرة، أرخت رَأْسَهَا بَيْنَ كفيها، تذكرت كلامه، الآنَ فهمت مَا الَّذِي كَانَ يقصده!

لتستردها صرخات الحانقة وسطهم، فخرج صوتها راسخًا مدويًّا...

- تستدعي الظلام بداخلك.

فِي اليوم التالي استيقظت بَعْدَ أَن توسطت الشمس كبد السماء، دلفت إِلَى الحمام، ورَغْم برودة الجو فإِنَّهَا لَمْ تشعر ببرودة المياه الَّتِي انسابت

فَوْقَ جسدها، الَّذِي وجهته نَحْو الجدار، استندت إِلَيْه بكلتا كفيها، وتركت المياه تتكفل بتهدئة غليان رَأْسِهَا، الَّذِي لَمْ يَهْدَأْ عَنْ إعادة كُلِّ مَا تلا حديث رُونَا عَنِ الظلام بداخلها، ومشاحنات ثلاثتهم.

ظلت عَلَى صمتها بَيْنَهُمْ، ترى صراخهم وتَناحُرهم عَلَى مصيرها، لَمْ يُعرها أَحَدُهُمْ برهة واحدة ليسألوها عمَّا تشعر به أَوْ تريده! انفلت عَنْ طرف ثغرها بسمة ساخرة وتُزيح الماء المنهمر فَوْقَ جسدها عَنْ عينيها «**مِنَ السخرية أَن يتناحر الآخَرون عَلَى مصيرك ويحددوا لَكَ مَا يجب أَن تكونه، دُونَ أَن يُزعج أَحَدُهُمْ نفسه بسؤالك عَمَّا تشعر به أَوْ مَا تريده، كأَنَّ مَا يتصارعون عَلَيْه شخص آخَر غَيْرُكَ أَوْ بالأحرى شَيْء يمكنهم فعل مَا يحلو لَهُم بِهِ!**»

أغمضت عينها ورفعتهَا للأعلى، تركت المياه تنساب عَلَى وَجْهِهَا وتختلط بدموع تُغرق روحها، فما سمعته بالأمس عَنْ مصيرها والتعويذة الَّتِي تُطاردها يكفيها لتقتل نفسها! نكستها للأسفل والمياه تُحَاوِل نزع فتيل اشتعال أفكارها هدرًا، رفعتهَا للأعلى مجُددًّا «**سَوْفَ أموت بطريقتي، لَيْسَ مسموحًا لأحدٍ بَعْدَ الآنَ أَن يُقرر عَنِّي مصيري!**»

وقفت أمام المرآة بالحمام، نظرت لوَجْهِهَا بتَفَرُّس، تُمسك بخصلات شَعْرِهَا، تتذكر كلمات أمها وتُوقن أَنَ شَيْئًا تُخفيه! فضحها رَدُّ فعلها الغاضب واهتياجها كالمحمومة بالرفض بَعْدَ آخر مَا صَرَخَت بِهِ بوجوه ثلاثتهم، والَّذِي أقسمت عَلَى فعله سَوَاء قبلوا أَوْ رفضوا وخلَّفتهم وراءها وغادرت!

مُتحلِّقين بوسط المخزن يتكئ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى موضع، لَا يعلمون سر الاجتماع! كُلُّ مَا يعرفونه أَن آصَف طلب إِلَى الجميع الحضور، بَيْنَمَا هُوَ

ورُونَا مَا زالا يُفكران هَلْ ستُقدم حَقًّا عَلَى مَا أقسمت عَلَيْه أمس رَغْم اعتراض زُمُرُّدة القاطع! والَّذي كَانَ بالنسبة لَهُ غريبًا ومريبًا! كُلُّ شَيْء بزُمُرُّدة بَاتَ مُبْهَمًا! أتخفي عَنْهُمْ شَيْئًا! رُبمَا، ورُبَّمَا يتوهم، فَكذَلك رفضت رُونَا!

وصمْت ثَقيل خلفه هُوَ وراءه، رُبَّمَا لأَنَّهُ أَكْثَر مَنْ يَعْرف أنه لا أَحَد سيُوقفها! أَوْ لأَنهُ يَعْرف أن القَدَر كتب كَلمته وقَد اخْتَارَ المَوْعد لإلقائها، فَلَا رادع لَهُ!

دَخَلَتْ عَلَيْهمْ، ترتدي بنطالًا أسود وقميصًا قطنيًّا سماويًّا منْ فوقه سترة سوداء قصيرة، لَهَا غطاء للرأس، وحذاءً رياضيًّا، مَا لفت انتباه دَلين أَنَّهَا ذَاتُ الملابس الَّتي كَانَتْ ترتديها لَيْلَة الحفل الَّتي قُتل بهَا نُوَاه! أَكْثَر مَا حيرها أَنَّهَا لَمْ ترتد تلْك الثياب بَعْدَهَا يَوْمًا، وأسَرَّت لدَلين ذَات مرة أَنَّهَا تخاف ارتداءها، لَمْ تُخبرها لمَاذَا، ولَمْ تسأل هيَ، والآنَ ترتديها!

كَانَتْ تخافها لأَنَّهَا مَا فَتَح باب الجحيم أمامها، تحمل أَسْوَأ ذكرياتها، القَتْل والدماء، يَوْم اكتشفت أن كُلَّ شَيْء بحياتها خُدعة، كذبة كبيرة، أمها لَيْسَتْ أمها وهيَ لَيْسَتْ هيَ، كُلُّ هَذَا ارتبط بهَذَا اليوم وتلْك الثياب، والآنَ ترتديها، باتت تعلم إنْ كَانَ عَلَيْكَ تخطِّي مخاوفك فعَلَيْكَ مواجهتها، الهرب لَنْ يُجدي نفعًا بَلْ سيزيد فزعك أَكْثَر، المواجهة تُنهي الوجع سريعًا، فَإنْ قابلتَ مخاوفك بطريق، لَا تُغير الاتجاه هربًا، كُن راسخًا أمامها، نَحْنُ مَنْ نخلقها ونَحْنُ مَنْ نتغلب عَلَيْهَا إن جردناها منْ هالة الرهبة الَّتي نُضفيها عَلَيْهَا.

لَكنَّ مَا فغروا لَهُ أعينهم حَقًّا مُنْذُ لَحْظَة دخولها أَنَّهَا حلقت شعر رَأْسهَا تَمَامًا! فبدت للَحْظَة مُخْتَلفَةً، ورُبَّمَا مُخيفة! والأهم بدت بنظراتها المتألقة واللامعة شَخْصًا غريبًا!

وقفت قرِيبةً مِنْ رَيَّان، نظرت نَحْو آصَف نظرة ثقة لَمْ يرها سَابِقًا...

- هَلْ كُلُّ شَيْء جاهز؟

نظر نَحْو رُونَا الَّتي غَلَّفَ وَجْهَهَا نظرةُ يأس طافحة بالمرارة، أومأ إِذْعَانًا، لتنظر نَحْو رُونَا...

- يُمْكِنك البقاء؟

- أينما تحط قدمك فستكون قدمي قَبْلَهَا.

كانت نبرة رُونَا جامدة قاطعة، حانقة رافضة، يشوبها رضوخ المضطر، اعتدل الجميع وزادت دهشتهم، لتقف سِيًّا بالمنتصف...

- سنُغادر إِلَى دَهَّام... الآنَ.

أحكم الصمت قبضته بجَلَدٍ عَلَى الوجوه، رفعت عينها بعين آصَف...

- تِلْك الفرصة الأخيرة للهروب.

لَمْ يتَفَوَّهَ أَحَد، استدعت صقرَي تَليد اللَّذين سكنا في الهواء خلفها، نظرت نَحْو آصَف وأومأت لَهُ أَن يبدأ، والَّذي أشار نَحْو دَلشيَّر أَن يُوزع كؤوسًا صغيرة جهَّزها سَابقًا، تجرعوها دُونَ أَن يسأل أَحَد عَنِ السبب!

بدأ بَعْدَهَا بتوزيع الأحجار بالتساوي، وساعدته الفتاتان، بَيْنَمَا ابتعد تِيَّام ورُونَا عَنِ الجميع، وتعانقا كأنهما لَنْ يلتقيا مُجَدَّدًا!

اقْتَرَبَ مِنْهَا رَيَّان بنبرة مترددة...

- هُنَاك شَيْء يجب أَن أخبرك بِهِ.

أَوْلَته نظرة اهتمام، تلجلج كَثيرًا، وتعرق جبينه، لتبتسم...

- أَنَا وعدتك سَابِقًا أَلَّا أدخل إِلَى عقلك، فَلَا تُجبرني عَلَى فعلها!

انعقدت الحروف بفمه، فَهُوَ يَتَذَكَّر وعْدَهَا، وقَبْلَ أَن ينطق، اعتدل آصَف بَعْدَمَا انتهوا مِنْ توزيع الأحجار حَوْلَهَا، وأمر الجميع بالدخول، ربَّتت عَلَى كتفه...

- يُمْكِنك إخباري على الجهة المقابلة.

- يجب أَن تعرفي هُنَا، إِنَّهُ بشأن المرات الَّتِي ذهبت بِهَا إِلَى دَهَّام سَابِقًا...

قاطعهما آصَف، يسحبها مِنْ يدها إِلَى مُنتَصَف الدائرة لَا يفصلهما سِوَى صندوقه الأثير، أمره أَن يَتَّجِه بجوار رَحِيل ودَلِين، والصقران يُحلقان فوقهما داخل حُدُود الدائرة...

- ستدخلين إِلَى واحدة مِنَ الخمس قاعات المُحرمة عَلَى السَّدِيم بأَسْره.

فغر الجميع أفواههم، ليُطبق عَلَى كتفها بإحكام...

- يجب أن تدخلي بقوة، كُلَّمَا كَانَت البداية جسورة مُسيطرة، كَانَ الوصول إِلَى الهدف أسرع وأكثر دقة، والأهم باتت النِّهَايَة محسومة لصالحك...

قاطعه رَيَّان بارتياب وعيون مندهشة...

- أَلَا يجب أَن يكون دخولًا أَكْثَر تهذيبًا وأَلَّا نُغالي فِي إظهار القوة!

- لسنا ذاهبين للتفاوض، بَلْ لفرض السيطرة.

ازدادت نبرة آصَف حِدَّة وصلابة، وعَيْنُهُ مُثبتة بِهَا...

- أنتِ ملكتهم، مَنْ يدينون لَهَا بالعهد والولاء، أنتِ لَسْت هُنَاك لكسب تعاطفهم، بَلْ لامتلاك احترامهم.

- يمكننا كسب الاحترام بالتحاور يا آصَف، أَنْتَ أَكْثَر مَنْ يَعْرِف هَذَا!

تدخلت دَلِين، وقَدْ فاجأها أَن آصَف هُوَ مَنْ يتحدث عَنْ فرض القوة، فتوقعت هَذَا مِنْ رُونَا، للحق جميعهم كَانَ مندهشًا، وأولهم رَحِيل! بَدَا آصَف مثلها مختلفًا أَوْ بالأحرى غريبًا!

الأغرب أَن رُونَا التزمت الصمت تَمَامًا وظلت عينها مُعلقة بعين الصقرَين، بنظرة ألم حفرت خناجرها بملامح وَجْهِهَا، مُعلقة بعيون زُمُرُّدة الدامعة اليائسة المهزومة فِي أولى معاركها أمام ابنتها، تتكوم عَلَى نفسها فَوْقَ حشيتها داخل أغلالها عَلَى الجهة الأُخْرَى! لأول مرة تُحس القيود تُغلغلها، لَمْ يَسْتَطِعْ زَارًا لسنين أَن يكسرها، بَيْنَمَا تُمزقها مخاوفها المتقدة عَلَى ابنتها، والأسوأ أَنَّهَا لَا حَوْلَ لَهَا ولَا قُوَّة، فَلَا تملك أَن تمنعها. لَكن مَا كسرها حقًّا منَ الداخل أَنَّهَا السبب!! لَكن حينها هَلْ كَانَ لَدَيْهَا خيار؟! هَلْ كَانَتْ أنانية إِلَى هَذَا الحد؟! فمَاذَا الآنَ لَو انكشف كُلُّ شَيْء؟!! تكاد تقضي نحبها كمدًا لمجرد الفكرة!

لتردَّ سِيًّا تِلْك المرة، بنبرة قاسية كَنظراتها الَّتِي دارت بَيْنَهُمْ...

- فِي معادلة القوة ومَعَ ميزان السلطة، لَا يكسب الضعيف أَيَّ شَيْء سوى الشفقة، إن أردت أَن تكسب احترام الأقوياء فعليهم أَن يروا قوتك، أَن يخشوك ويخشوا غضبك.

ثبتت عينها بعين دَلِين...

- فِي هَذَا الكون لَا احترام للضعيف، فَقَطْ إذلال ومهانة، وإن ترأفوا بحاله أشفقوا عَلَيْه، فِي قانون الأقوياء الاحترام لَا يُطلب بَلْ يُنتزع، وهذَا تَحْدِيدًا مَا سنفعله، سننتزع حقنا بالاحترام شاءوا أَمْ أبوا.

خيم الصمت وهام كُلٌّ فِي أَفْكَارِه، انسحب تِيَّام إِلَى آخر عمود قائم بالمكان يحتمي خلفه، بَيْنَمَا سحبت سِيًّا خنجر رُونَا الَّذِي أَصْبَحَ لَا يُفارقها، وضعت يدها بِيَد آصَف، نثر فوقها رمادًا أزرق مخلوطًا بآخَر أحمر، بدأ يترنم بتعويذته وهِيَ مَعَهُ، ثمَّ سحبت نصل الخنجر داخل كفها، فاختلطت دماؤها بالرماد الملون، وراحت تتوهج ببريق يخطف العيون، وبذات اللَّحْظَة الَّتِي انفلتت مِنْ قبضتها الدماء لتُلامس الأَرْض، احتدمت دوامة رعدية عَاصِفَة ابتلعت الجميع داخلها!

عَلَى الجهة الأُخْرَى ومَعَ بداية تألُّق أول خيوط القمر فَوْقَ سماء دَهَّام ليسطع بضوئه الفضي فَوْقَ جبالها وكهوفها، ويُلقي بأشعته الخلابة بمُنْتَصَف قاعة العرش داخل قصر يُورَان، والَّتِي صُممت قُبتها كشُعلة لهب تتَأَلَّقَ فَوْقَ القصر مِنْ زجاج قوي بلون برتقالي مَائل إِلَى الحُمرة، يُفتح ويُغلق، يتم فتحه فِي الاحتفالات الخاصة فَقَطْ، كذَلِك الَّذِي يُقيمه الملك الليلة بمناسبة الاحتفالات بعيد مولد صغيرته مِيلَّا.

عشاء عائلي هادئ، وَلَيْسَ صَاخبًا كَالاحتفال بعيد تُولَاي، وهَذَا تَحقِيقًا لِمَا أرادته مِيلَّا، فهِيَ لَا تُفضل الاحتفالات الصاخبة.

يجلس الملك وإِلَى جواره زوجته وإِلَى جوارها تجلس تُولَاي وبجوارها كَال صامت لَدَيْه إحساس غريب لَا يريحه! بَيْنَمَا تجلس مِيلَّا إِلَى جوار والدها، وإِلَى جوارها عمها، تمتد أمامهما بالتوازي طاولتان مُتقابلتان، يجلس إليهما قواد حرسه وقادة جيشه وبَعْض مِنْ كبار كهنة معابده، وبَعْض الأمراء المقربين.

تعزف الفرقة الموسيقية الموسيقى الهادئة الَّتِي تُفضلها مِيلًا، لَكِنَّهَا بدت ضجرة كَالعادة، فمثل تِلْك الحفلات لَا تُثير اهتمامها أَوْ تستهويها، لَكِنَّهَا تُحَاوِل التظاهر بالرضا إرضاءً لوالديها، تحضرت الطاولات بأفخم المأكولات والحلوى والشراب الَّذِي أشرفت عَلَيْهِ الملكة، والحفل بأكمله ليسر ابنتها الصغيرة ويُبهج قلبها، جَلَسَ الجميع إِلَى أماكنهم لتناول الطعام.

دُونَ سابق إنذار اهتزت الأنوار داخل القاعة، انتبه الجميع لتيار الهواء الَّذِي راح يسري بالمكان، تحرك الحراس يتفقدون النوافذ، مَعَ ازدياد حِدَّة تيار الهواء، وقف كَال وشعور سيئ أصابه، ليُجلجل بنبرة هادرة بالحرس...

- أغلقوا جَمِيع الأبواب والنوافذ بسرعة.

تحرك الحراس ينفذون الأَمْر دُونَ تَرَدُّدَ، أغلقوا كافة الأبواب والنوافذ، وأغلقوا قبة القاعة، عم السكون لِلَحْظَة تَقَدَّمَ بِهَا كَال خطوتين للأمام، يُحَاوِل مسح الهواء بيده، لعله يرى شَيْئًا، قُوَاهُ لَنْ تعمل هُنَا! هُوَ خير مِنْ يَعْرِف، لَكِنَّهُ حاول!

تَقَدَّمَ أُخْرَى وقَبْلَ الثالثة دفعه شَيْء خَفِيٌّ للخلف! ارتَدَّ مترين حَتَّى اصطدم بطاولة الملك، الَّذِي انتفض وَاقِفًا ومِنْ خلفه الجميع، وارتسم القلق بالوجوه، ترقبت العيون المتوجسة لَحْظَة سكون خاطفة لَمْ يهنأ بِهَا أَحَد! تواترت للأعين موجات كهربية بدت كَالرعد الغاضب، تتشكل بوسط القاعة دائرة كبيرة شفافة ينبض حَوْلَهَا موجات تتوهج!

انتفض الجميع يتراجعون، وقَدْ غُلقت القاعة مِنْ كُلِّ الاتجاهات، فَلَمْ يعد هُنَاك منفذ للهرب، هَمَّ كَال يتحامل للوقوف، لَا يُصدق مَا يرى «**أتلْك بوابة عبور تُفتح داخل قاعة محرمة؟!**» شَيْء لَمْ يَحْدُث مِنْ قَبْلُ ولَمْ يسمع بِهِ! انتفض يَصْرُخ بالحرس المتردد، الَّذِينَ يُغرقهم الاضطراب فَلَا يصدقون مَا يَرَوْنَ...

- احموا ملككم.

التفَّ الحرس حَوْلَ المائدة مُشكِّلين درعًا بشريًا، سحب كُلُّ الموجودين وقادة الجيش أسلحتهم، وتحفزوا للمباغتة، وقف شَاتَاي أمام مِيلَّا الَّتِي احتضنها الملك يضعها خلفه، سخطت العيون، فعلها زَارَا ويحاول اغتيال ملكهم للمرة الألف، وتِلْك المرة تخطى كُلَّ الحُدُود وجَاءَ داخل حصنهم! ترقبت العيون المذهولة كَيْفَ اسْتَطَاعَ تخطي سحر القاعة! فتلْك القاعة واحدة مِنَ الخمس قاعات المحرمة حَوْلَ السَّدِيم، فكيف يَحْدُثُ هَذَا!

الملك يحتضن زوجته، بَيْنَمَا تُولَاي تقف أمام أمها مُتحفزة، ينتظرون ظهور زَارَا ورجاله، لَحْظَات وهدأ كُلُّ شَيْء، وانقشعت العاصفة واختفت الدائرة وظهروا مِنْ داخلها، سِيًّا بالمنتصف ومِنْ حَوْلهَا ستتهم يحوطون بِهَا، والصقران فوقها! أثار وجود الصقرَين الدهشة الَّتِي أغرقت الجميع!

تلفتوا حولهم، التجهُّم والضِّيق يُغرقان الوجوه، لَكِن الذهول الغاضب هُوَ ملك الموقف دُونَ منازع، وجدوا الأسلحة تحوطهم مِنْ كُلِّ اتِّجَاه، سحب جميعهم أسلحتهم إِلَّا سِيًّا، وبَيْنَمَا آصَف الَّذِي التقطت عَيْنُهُ عين كَال، تراجع خطوة خلف سِيًّا، وتراجع كَال خطوة خلف ملكه! وكلٌّ مِنْهُمْ عَيْنُهُ عَلَى يد الآخر! رَغْم يقين آصَف عَن انعدام قوى كَال داخل القاعة المغلقة بإحكام، إِلَّا أَن كُلَّ شَيْء أَصْبَحَ يحْتَمِل الشَّكَّ!

الجميع مُترقب والصمت الحانق يسيطر على الجميع، والتحفز لأول حركة مِنْ أيِّ أَحَد هُوَ السمة المُهَيْمِنة على العيون المُتوجسة.

- مَنْ أَنْتُمْ؟ وكَيْفَ دخلتم إِلَى هُنَا؟

أوَّل مَا تفوه بِهِ قائد الحرس المصدوم، ليهتف شَاتَاي بحنق ويتقدم خطوة...

- لَا يهم... فالعقوبة الوحيدة هِيَ المَوْت لمن يقتحم مَجْلِس الملك.

- إنهم أتباع زَارَا وجاءوا لقتل الملك، اقتلوهم جَمِيعًا.

هتف قائد الجيش، فتهيأ الجميع وهجموا عَلَى الدائرة الَّتِي دفعتهم جَمِيعًا وألقت بهم أَرْضًا، بَيْنَمَا دوى صوت صقرَي تَلِيد داخل القاعة، فزاد الخوف بالقلوب الوجلة وتراجع الجميع خطوات للخلف.

ضَيَّق كَال عَيْنَهُ بدهشة، كَيْفَ يخترق هَذَا السحر حصون القاعة؟! وكَيْفَ لَهُ أَلَّا يراه حَتَّى؟! اعْتَقَدَ أَن الدائرة تلاشت، رفع لَهُ آصَف حاجبه بنظرة ذَاتَ معنًى، وأغمض كلاهما عَيْنَهُ!

تحرك كهنة الملك للأمام يحاولون اختراق الدائرة دُونَ أمل فَلَا أَحَد منْهُمْ قواه تعمل! فعاود الحراس ضرب الدائرة لتعاود دفعهم مُجَدَّدًا، بَدَا الجميع متخوِّفًا مشوَّشًا، رَيَّان رُونَا تُولَاي دَلين ميلًا الملكة شَاتَاي، الجميع متوجس يترنح تخوُّفًا مِنْ صدام لَا يَبْدُو أَنَّهُ مأمون العواقب لأيٍّ مِنَ الطَّرَفَيْن.

سيًّا لَمْ يهتز لَهَا جفن أَوْ تحولت عيناها عَنْ سِنمَّار الَّذِي كَانَ راسخًا، رَغْم أَنَّهُ واقع تَحْتَ تأثير صدمة وجودها داخل حصنه وعقله! واستخدامها سحرها داخل أَكْثَر حصونه أمانًا! قاعته المحرمة!

رمقت يده الَّتِي راحت تتحفز بنظرة خاطفة، تهز رَأْسَهَا نفيًا وصوتها يُدوي داخل رَأْسِه «**أرجوك لَا تفعل، أعرف كُلَّ خطوة تُفكر بِهَا، وحدنا مَنْ يمكنه استخدام قواه هُنَا، حَتَّى أخوك وابنتاك لَنْ يستطيعوا فعل شَيْء، ومَهْمَا اعتقدت أنَّكَ سريع وقوي، فأنا أسرع، أَمَّا بالنسبة للقوة، فيُجيبك عَنْهَا وقوفي أمامك داخل أقوى حصونك، حَقيقَة لَيْسَ لدي مَا أخسره بَيْنَمَا أَنْت لَدَيْك الكثير، أَمْ تُفضل أَن تُجازف... كَسَطام؟!**» رمت نظرتها نَحْو زوجته وابنتيه، اضطربت أنفاسه، ارتعشت يده فأرخاها.

قطعت تُولَاي حديثهما، تقف أمام والدها وتُطلق سهمًا باتجاه سيًّا، وتردد تعويذة اعتقدت أَنَّهَا ستخترق الدائرة، فسقط سهمها أرضًا، فانتفض أَحَد الصقرَين مُحلقًا نحوها، بطريقة أرعبت الجميع وانتفض لَهَا قلب تُولَاي الَّتِي اهتزت لأول مرة، فتراجعت خطوة، وهُوَ مُندفع يُهاجمها، لَكِنَّهُ رَسَخَ أمامها مباشرة وعيناه بعينيها؛ مَا أفزعها وجعلها تتعثر فتلقفها حضن أمها.

سلبهم السكون لَحْظَة مِنْ تخبُّطهم، أخرسته سِيًّا بضيق، تدور بعينها بَيْنَهُمْ حَتَّى استقرت بالملك مِنْ جديد...

- يمكننا فعل ذَلك طوال اللَّيْل! وأعدكم أَن أقضي عَلَيْكُمْ جَمِيعًا دُونَ أَن أتحرك مِنْ مكاني... أَوْ يمكننا التحدث!

عاد آصَف وكَال مِنْ حديثهما عَلَى صوتها، انحنى آصَف قَلِيلًا برأسه...

- مولاي أقدم اعتذاري عَن الطريقة الَّتِي دَخَلنَا بهَا، لَكِن اعذرني هُوَ خطئي وحدي فأنا لَمْ آت إِلَى هُنَا سَابِقًا، ولَا أَحَد مِنْ أصدقائي، لذَلِك اخْتَلَطَ عَليَّ الأَمْرِ فِي تَحْديد البقعة الَّتِي يجب أَن أَنْتَقلَ إِلَيْهَا.

- أنتِ هِيَ سِيًّا مَنْ قتلت سَطَام؟

انْطَلِقِ الصوت مِنْ جانبها مُتحمسًا مُفعمًا بالشغف، لتلتفت نحوه، وتقع عينها على مِيلَّا الَّتي تقف عَلَى بُعدِ مترين مِنْهَا، الْتفت الجميع نَحْو الفتاة الَّتِي تسللت مِنْ خلف والدها، وخرجت عَنْ جِدَار حماية الحرس.

تقدمت سيًّا خطوات خارج الدائرة مَا أثار حنق رُونَا وريَّان، لتلتقي عين تُولَاي برَيَّان، اللَّذانِ تبادلا النظرات المشدوهة مِنْ جانبها، والمتوترة مِنْ جانبه!

تقدمت خطواتها نَحْو مِيلَّا، خَرَّ قلب أمها، أطبقت عَلَى يد الملك بذعر، هزت رَأْسَهَا بابتسامة حانية مؤكدة...

- أعتذر إن أفسدتُ حفلتك.

هزت مِيلَّا رَأْسَهَا نفيًا بابتسامة وديعة مُرحِّبة، وقَبْلَ أَن تتقدم كلتاهما نَحْو الأُخْرَى، وقف شَاتَاي بَيْنَهُمَا بحدته المعهودة وغلظته...

- وأَتَيْتَ إِلَى هُنَا لقتل ملكنا والاستيلاء على عَرْش مملكتنا؟

نظرت نحوه بِطَرْف عينها، دُونَ أَن تجيب...

- اقتلوها.

صَرَخَ ليتحفز الجميع، وبلحظة كَانَ دَلشيَّر أوَّل مَنْ رفع سيفه ووقف أمامها، والَّذي عرفه الجميع لَحْظَة أشهر سيفه، وهَلْ يخفى ذراع سَطَام اليسرى، وبأقل مِنْ ثانية كَانَ خمستهم يحوطونها، والصقران حَوْلَهَا، تنظر رُونَا نَحْو آصَف بصَرَخة مُغتاظة...

- خبرتك ألَّا أمان لسحرة السحر الأسود!

- لَا يَتَحَرَّك أَحَد.

احْتَدَّ كَال على الجنود الَّذِينَ بدءوا يقتربون مِنْهُمْ، ليسخط شَاتَاي...

- قُلت لكم اقتلوهم جَمِيعًا!

- الملك وحده مَنْ يصدر الأوامر هُنَا.

رن صوت تُولَاي بنظرة ذَاتَ مغزًى لعمها...

- الملك فَقَطْ مَنْ يأمر وعلى الجميع السَّمْع والطاعة.

تصنم الجميع، دارت سِيًّا بعينها بَيْنَهُمْ ببسمة مِنْ جانب فمها حتى استقرت عِنْدَ شَاتَاي...

- أَنْت مخطئ تَمَامًا، إِذَا كُنْت أريدك مَيْتًا...

زادت ابتسامتها، تخطت دَلشيَّر خطوة وبالثانية اختفت مِنَ المكان، تَجَمَّدَ الجميع والخرس هُوَ الشَّيْء الوحيد القادرون على فعله، ليجدها تهمس خلف أذنه وخنجرها يضغط حنجرته...

- فأنت بالفعل ميت.

تحجرت عين ملكهم عَلَى عين آصَف الواقف مُقَابِلَه لينحني لَهُ، ويهمس داخل عقله بابتسامة تَمْلأ شِدْقَيْه «**نَحْنُ فَقَطْ نريد الحديث لَا أَكْثَر... مولاي**».

تريث سِنمَّار بنظرة قلق، لَيْسَتْ بالخصم السهل، وَلَا مُجَرَّد فتاة ضالة تَرَبَّتْ بَعِيدًا عَنْ حضن راهبات دَارًا، لَا بُدَّ مِنْ إعادة الحسابات، فآثر أَن تمرَّ الليلة دُونَ خسائر، فَهُوَ الآنَ وداخل جدران قاعته الحصينة الَّتِي يجب أَن تحميه خصمٌ ضعيفٌ وفريسة سهلة الاصطياد، إن صمد هُوَ أمامها فَلَنْ تصمد عائلته.

رفع يده وخفضها فخفض مَعَهَا الجميع أسلحتهم، نظر آصَف نَحْو رُونَا فخفض خمستهم أسلحتهم، وفي لمح البصر عادت سيًّا لموضعها، تراجع الحرس، وتَقَدَّمَ آصَف خطوات نَحْو الملك، يفرد ذِرَاعَيْه في الهواء، ويبتسم بثقة...

- دعني أقدم اعتذاري يا مولاي، فنحن لَمْ نقصد أَن نرهب هَذَا الجمع السعيد، أَوْ نُفسد عيد الأميرة، خطأ أَحْمَق في تَحْدِيد بقعة الوصول، ونعلم أَن صدر مولاي الرحب سيغفر لَنَا.

أمال رَأْسَهُ أَن يُكمل وقَدِ اتَّخَذَ الجميع مجالسهم، وعَيْنُهُ عُلقت برُونَا، بَيْنَمَا ظلوا بمُنْتَصَف القاعة...

- إن مولاتي تُطالب بعهد الدم بَيْنَ دَهَّام وملكات النُّور.

- لَكِن ملكات النُّور قُتلن جَمِيعًا وبهذا انقضى العهد بَيْنَنَا وبينهن!

احتدت نبرة قائد الجيش، لتزداد ابتسامة آصَف، ويده تُشيرُ نَحْو دَلشيَّر خَاصَّة...

- إن آخِر ملكات النُّور تقف أمامك، ولَا اعْتَقَدَ أَن مولاي لَدَيْه شَكٌّ في هَذَا، وقَدْ وصلته الأنباء بالفعل بقتلها لسَطَام وإخضاعها لجيش أجنحة المَوْت بأكمله تَحْتَ رايتها.

رفع الملك حاجبه باضطراب حاول دحضه سريعًا، لَكِن آصَف التقطه وأرداه بشدة، فَلَمْ يُخطط لهَذَا الدخول الكاسح، ولَا تعمد ذِكْر جيش الظلام إلَّا لأجل هَذَا تَحْدِيدًا، نجح العجوز في قلب موازين القوة وهز الحصون الراسخة مُنْذُ قرون لصالحه، فاسترسل بثقة أَكْثَر وابتسامة أعرض...

- سقوط زَارَا أَصْبَحَ الآنَ مسْأَلة وقت.

- مَا الَّذِي يدفع بي وبمملكتي للمشاركة بِهَذَا الصراع الدائر؟ فكما ترى استطعت أَن أبتعد بهم عَنْ كُلِّ هَذَا؟

لأول مرة يخرج الملك عَنْ صمته الحذر مُنْذُ وصولهم، بَعْدَمَا اسْتَرَدَّ رباطة جأشه وهدوءه، ليأتيه رَدُّ رُونَا بنبرة ساخرة...

- كلانا يَعْرِف أَن زَارَا الآنَ يُجهز جُل قواته ليهاجمك!

- حاول كَثيرًا مِنْ قَبْلُ ولَمْ يفلح، والآنَ خسر جيشَه الأقوى، والفضل يعود لَكم، فَلَنْ يَجْرُؤ حَتَّى على التفكير.

رَدَّ قائد الجيش بثقة، ليُكمل شَاتَاي بنظرة ذَاتَ مغزًى وعَيْنُهُ بعين سِيًّا...

- نَحْنُ مَنْ يمكنه مهاجمته، والاستيلاء على عَرْش السَّدِيم.

تَبسَّمَت لَهُ، تَقدَّمَت خطوات للأمام حَتَّى مَا عاد يفصلها عَنْ مجلسه سِوَى القليل، استدعت سيفها، غمزت لَهُ...

- لِمَاذا لَا تُحَاوِل الآنَ؟

تحفز الجميع، ووضع الحرس أيديهم فَوْقَ أسلحتهم، كَخمستهم، كز شَاتَاي أسنانه لتهديدها الصريح لَهُ، وقَبْلَ أَن ينتفض مِنْ مجلسه، وقف الملك...

- كَال اصطحِب أَنْت والأميرة تُولَاي ضيوفنا إِلَى أجنحتهم ليرتاحوا مِنْ رحلة الانتقال، سَوْفَ نتحدث لاحقًا.

أشار بيده ففُتحت أبواب القاعة، وأُعلن انتهاء الحفل الصاخب، انحنى لَهُ الجميع إِلَّا سِيًّا لَمْ تتزحزح عينها عَنْ شَاتَاي، غادر الملك وتبعه

الجميع، هُمْ آخِر مَنْ غادر بصحبة كَال وتُولَاي، هربت مِيلَّا مِنْ أمها الغاضبة وتبعتهم مِنْ بعيد! ابتسمت دَلِين لسِيًّا تغمزها...

- يَبْدُو أَن لَدَيْك مُعجبين هُنَا!

ابتسمت دُونَ أَن تُعلق بشيء، ترمي مِيلَّا ابتسامة مُشجعة للاقتراب، إلَّا أَنَّهَا آثرت أَن تظل عَلَى بُعد مِنْهُمْ وتنظر نَحْو تُولَاي وكَال بحذر، ففهمت سِيًّا مَا ترنو إِلَيْه، فغمزتها بابتسامة مُتَوَاطِئة متفهمة.

ظلت مِيلَّا خلفهم وعينها المُنبهرة لَا تُفارق الصقرَين، اللَّذَين أثار تحليقهما داخل ردهات القصر دهشة الجميع، فَلَمْ يروا صقور تَليد تُحلق داخل المملكة بأَسْرها، مُنْذُ أعوام لَا تُعد ولَا تُحصى!

السَّادِس

«أَن يَخُونك الأغـرَاب شَـيْء يُمْكِنـك مَغْفرتـه، فهُمْ لا يَنْتَمون إِلَيْكَ، لَكِن أَن يَخُونك المُقربون! مَنْ وَهَبْتَهم قَلبك وأوْلَيْتَهم ظَهرك! فيَسْتَحِقُّون أَن تُلقي بِهم بقَعر الجَحِيم انْتقامًا لِأجله!»

رَحِيل

وقف آصَف ودَلين وسِيَّا مُتحلقين بوسط الجناح الملكي الَّذِي وقع اختيار سِيَّا عَلَيْه، أكْبَر جناح بالدور الَّذِي يحوي قاعات الضيافة الملكية، مُرفق بِهِ حمامان وثلاث شرفات، تُطل واحدة مِنْهُا عَلَى الحديقة الخلفية للقصر، والعديد مِنَ النوافذ المُتفرقة، بِهِ سريران ملكيان وعدة آرائك وثيرة، وكراسي ناعمة مُريحة مُبعثرة عَلَى مسافات، وطاولة مستديرة متوسطة الحجم، أرضية الجناح مُغطاة بالكامل بِزَرابِيَّ مَبْثوثَة فاخرة وثيرة، تغوص قدمك داخلها، ويتدلى بسقفها ثلاث ثريات مُتفاوتة الأحجام.

البقية كانوا مُستلقين فَوْقَ الأرائك، لبث ثلاثتهم عَلَى وقفتهم بُرهة مِنَ الزمان، يمسكون بَعْضُهُم بأيدي بعض ويغمضون أعينهم! لَحَظَات وانْفكَّ تواصلهم وتنفس آصَف بارتياح!

انتفضت رَحِيل واقفة وسط الجناح تَصْرُخ بغيظ...

- عرض عَلَيْنَا الملك سبع أجنحة ملكية، لِكُلٍّ مِنَا جناحه الخاص، وأنتِ يا حمقاء تُصرين عَلَى أَن نبقى جَمِيعًا بجناحٍ واحد؟

اتكأت سِيَّا إِلَى حافة الأريكة بابتسامة ماكرة...

- لَا تجحدي كرمي بكوني اخترت الجناح الأكبر بَيْنَهُا!

ازداد الغيظ بعين رَحِيل بَيْنَمَا انفلتت ضحكة مكتومة عَنْ دَلِين، اعتدلت سِيَّا واقفة، تعقد ساعديها، اكتسى وَجْهُهَا بجدية كَنبرتها...

- أنت لَا تفهمين أَن الأَمْر خطير! أنتِ تَحْدِيدًا لَا يُمْكِنك أَن تبتعدي عَنِّي!

أمالت رَأْسَهَا مندهشة، تبادل الآخَرون النظرات المستغربة، لتزداد جدية سِيًّا...

- ضوضاؤك أثناء النَّوْم سيمفونية عزف لَا يمكنني النَّوْم مِنْ دونها، هَلْ تَعِينَ خطورة أَن نجلس بهدوء دُونَ جلبتك يا مُزعجة؟!

غمزتها، فانفجر جميعهم ضحكًا، وزاد غيظ رَحِيل الَّتِي قذفتها بأول وسادة الْتقفَتها يَدَاهَا، لترن ضحكة سِيًّا المرحة بالقاعة، لَحْظَات وشاركتهم رَحِيل الضحك، وتتراشق مَعَ سِيًّا بالوسادات، بَيْنَمَا ظَلَّ رَيَّان وَاقفًا أمام النافذة مُعلقًا بالسماء وبصقرَي تَليد اللَّذَين يُحلقان خَارجًا، لَا يَبْدُو عَلَيْهِ أَنَّهُ سمع شَيْئًا مِنْ مشاحناتهم!

أسكتهم آصَف عَنِ اللهو، والَّذِي بَدَا غريبًا عَلَى سِيًّا وما امتلكها مِنْ حِدَّة بالفترة الماضية! لَكِن الجميع كَانَ سَعيدًا للبهجة المفاجئة الَّتِي سكنتها، اعتدل بمجلسه وأمرهم بالتحلق حَوْلَهُ، ففعلوا، بنبرته الرخيمة...

- لَنْ يتمكن أَحَد مِنْ قراءة أفكاركُمْ مَهْمَا فعل، بفضل الكؤوس الَّتِي تجرعتموها سابقًا، فمَهْمَا حاولوا إيهامكم أنهم يستطيعون، فهُم كاذبون.

تبادلوا نظرات الغبطة والرضا، ليُتبع بذات النبرة...

- اجتمعنا بجناح واحد كي نستطيع حماية أَنْفُسنَا، سحر ثلاثتنا مُجتمعين داخل القاعة يجعلها أَكْثَر حصانة مِنْ أَيِّ قَاعة مُحرمة

داخل السَّدِيم بأَسْره، حَتَّى قاعة رُوسيل بحد ذاتها، إن هدمنا العالم أجمع مِنْ هُنَا فلَنْ يَسْتَطِيع أَحَد اكتشاف الأَمْر.

- لِمَاذَا سُميت تِلْك القاعات بالمحرمة؟

التفَت جميعهم نَحْو رَحِيل الَّتِي بَدَا سؤالها شاذًّا، لترد دَلِين بنفاد صبر...

- قاعات العروش داخل الممالك يتَمُّ حمايتها بسحر خاص يرتبط بدماء الملوك، فَلَا يَسْتَطِيع أَحَد مَهْمَا بلغ سحره اختراقَ سحر القاعة، الملك وحده ونسله الخاص يستطيعون استخدام سحرهم داخل قاعاتهم المحرمة، فلَيْسَتْ قاعات عَرْش فَقَطْ، بَلْ حصون منيعة، قوى السحر قَاطِبَة بلا جَدْوَى داخلها، لذَلِك زَارَا استخدم الخيانة للاستيلاء على العرش ولَيْسَ السحر، لأن سحره لَن يُجدي نفعا فِيهَا.

- كَيْفَ لسيًّا اختراق قاعة داخل دَهَّام؟ أَم إن الملوك يُمكنهم اختراق بَعْضِهِمُ البعض؟

تساءل رَيَّان، فنفى آصَف...

- لَا أَحَد يمكنه اختراق قاعة لَيْسَتْ مَدْمُوغة بدماء أسلافه.

- فكيف فعلت؟

ابتسمت رَحِيل بسخرية...

- أَحْمَق، أتلك القاعدة الوحيدة الَّتِي كسرتها لتتساءل كَيْفَ فعلت؟

- دعونا نهتم بِمَا نَحْنُ مُقدمون عَلَيْهِ.

أنهى آصَف الجدال، فعاودوا انتباههم...

- لَا أَحَد يتحدث عَنْ وجود زُمُرُّدة، فَهَذَا قَدْ يدفع زَارَا لارتكاب أَيِّ حماقة تجاهها.

- ويجعله يتساءل كَيْفَ عرفنا!

أَكَّدَت سِيَّا، لتهتف رَحِيل بتلقائية...

- بالطبع هُوَ مَنْ جعل أَخْزَم يُساومك عَلَيْهَا!

- كَلَّا، زَارَا لَا يعلم أَن أَخْزَم يخونه.

هتفت دَلِين...

- تِلْك نقطة لصالحنا.

- لَكِن يجب أَن نستغلها بوقتها المناسب.

أكد دَلشَيِّر، لتعتدل رُونَا بنبرة حازمة...

- يجب أَن يُصدق الجميع، بَلْ ويؤمن أننا نحتاج الدَّعْم وأتينا بحثًا عَنْهُ.

- هَذَا مَا سنخبرهم بِهِ، ومِنَ الجهة الأُخْرَى لَا أريد أَن تفوتكم هفوة واحدة مَهْمَا بدت تَافِهة، فأشعر بعيون زَارَا بالمكان، حَتَّى نستطيع الحصول عَلَى مَا جئنا مِنْ أجله.

أكمل آصَف بذات النبرة المُحذرة، لتؤكد رَحِيل...

- الكتاب!

أومأ تَصْدِيقًا ليزداد مرحها وتغمزهُ...

- كَمْ تُعجبني أفكارك أَيُّهَا العجوز.

كتمت سِيَّا ضحكتها، فألقاها بنظرة كادت تحرقها، فحركت رَأْسُهَا بَعِيدًا تفتعل الانشغال بالحديث مَعَ رَيَّان.

- مَا الَّذِي تهذي بِهِ يا غبي؟

انتفض زَارًا غاضبًا بنبرته الساخطة، تراجع أَخْزَم خطوات، ازْدَرَدَ ريقه، يُحَاوِل تدارك حروفه المولية الفرار كأنفاسه، لَا يُصدق الأنباء الَّتِي وصلته، لَمْ يتوقع أَن تأخذ خطوة متهورة كتلك!

أطبق كفيه إحداهما عَلَى الأخرى يُحَاوِل تَمَالُك اضطرابه، وعيناه أَرْضًا...

- انتقلت إِلَى دَهَّام، ورحب بِهَا الملك، وأنزلها بجناح الضيوف الخاص بالملوك.

نزل عَنْ عرشه بخطوات تكاد تُحطم الأَرْض الرخامية أسفلها، اقْتَرَبَ مِنْ أَخْزَم الَّذِي هَوَى نبضه، حينما أطبق عَلَى عُنُقِه يرفعه عَنِ الأَرْض بقبضته الصلدة، راحت تزوغ عيناه، وشعر بالسقف والجدران تدور حَوْلَهُ، قَبْلَ أَن يُلقي بِهِ عَلَى امتداد يده وحنقه، فيندفع عَلَى الأَرْض الرخامية الملساء عدة أمتار، ليصطدم ظهره بأحد الأعمدة، فكتم صرخة ألم لَمْ يَجْرُؤ عَلَى إفلاتها.

يُغرق القاعة بخطواته بسخط مُدَوٍّ لَا يقوى عَلَى كبحه، وَطَّدَ بغتة، والْتفت نَحْو المتكور أرضًا، الَّذِي لبث يتكوم عَلَى نفسه، لَا يَسْتَطِيع الوقوف أَوْ حَتَّى التمدد مِنْ ألم ظهره، ليصرخ بِهِ...

- أَيُّهَا المغفل لَوْلَا تَقَاعُسك لكُنَّا سيطرنا عَلَى دَهَّام مُنْذُ أمد، لكنك لَا تَخْتَلف شَيْئًا عَنِ المعتوه سَطَام، جميعكم دُمًى خرقاء تتلاعب بكم مشعوذة ملعونة.

تَقَدَّمَ خطوة وانحنى نحوه بنظرة ثائرة كَنبرته...

- كَيْفَ اعتمدتُ عَلَى حمقى مِثْلِكُمْ؟! عَليَّ أَن أُنهي هَذَا العَبَث بنفسي.

أنهاها واختفى مِنَ القاعة، وأَخْزَم مَا زَالَ يتألم، والحنق هُوَ كُلُّ مَا يُوغر صَدْره، وطيفها أمامه يُشعل الجحيم بعقله، اللعينة تُفسد كُلَّ خططه.

تحامل عَلَى ألمه واستند إِلَى العمود وراءه حَتَّى اسْتَطَاعَ الوقوف، ترنح بمشيته المتألمة حَتَّى وصل الحجرة الدخيلة، دخلها وعَيْنُهُ تتقد نارًا، فتح الباب فرَمَته زُمُرُّدة بابتسامة لَمْ يخفَ بِهَا التشفي والشماتة مِنَ الحال الَّتِي بدا عَلَيْهَا، فصفع الباب بغيظٍ مُدَوٍّ.

تلاشت ابتسامتها المرحة عَلَى حِيْن غرة! وندَّت بدلًا عَنْهَا ابتسامة تشفٍّ، انتحت بنفسها إِلَى زاوية القاعة وسط نظرات التعجب، جَلَسَتْ بوضع اليوجا، رمت آصَف بنظرة مُتَوَاطِئة فهز كلاهما رَأْسَه تَآلُفًا!

أَلْقَت رُونَا نحوه نظرة مستغربة، ليُضيق بَيْنَ عينيه وبهمسٍ بَيْنَهُمَا...

- إن قواها تَتَطَوَّر سريعًا!!

فرك لحيتَه، وعَيْنُهُ المُعلقة بِهَا تفضح قلقه...

- أسرَع مِنَ المفروض!

- هِيَ مَنْ كَانَ يتحكم بالصقرَين داخل القاعة ولَيْسَ زُمُرُّدة؟

أمال رَأْسَه إقْرَارًا، ليزداد ارتيابها...

- وسحرك داخل القاعة وقراءتك عقل كَال والملك؟

تنهد تَأْييدًا والحيرة تلتهمه، إن قواها تفوق مَا يعرفه أَوْ يَسْتَطيع استيعابه، حَتَّى إنَّهَا تحكمت بسحره الخاص داخل القاعة، وخامره الشَّكُّ أَنَّهَا تَسْتَطِيع فعلها بِأَيِّ مكان، لتنتشله رُونَا مِنْ براثن توجُّسه المتزايد...

- كلانا يَعْرِف السبب الحقيقي وراء تزايُد قواها وتسارُعها بِهَذَا الوَقْت القصير! افعل شَيْئًا، أكاد أجن مِنْ صمتك اللعين!

وقف وأولاها ظهره يَتَّجِه نَحْو أقرب أريكة يُلقي بجسده المُنهك إِلَيْهَا...

- لِمَاذَا تفضلون تعلُّم الدرس بالطريقة الصعبة دَوْمًا! كُلَّمَا عاندت القَدَر أَكْثَر كَانَ أشد قسوة.

عم الصمت بَعْدَهَا، واتَّخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ مكانًا يستلقي بِهِ، وظلت عيون رُونَا تُطوقها.

فتحت عينيها لتجد نفسها تقف بأطراف غابة رُوكَان، ميزتها مُنْذُ النظرة الأولى، انتشت بغبطة كون مَا تُخطط لَهُ راح يُسفر عَنْ نتائج أسرع مِمَّا توقعت!

وقفا مُتقابلَين، يعلوه التجهم والكمد، والصمت يحوطهما بظلال الحذر، كُلٌّ مِنْهُمَا يرمق الآخَر بنظرات مُتضادة متنافرة.

عينها هادئة واثقة يملؤها بريق الشماتة، بَيْنَمَا عَيْنُهُ غاضبة حانقة، تتقد بسخط كارهٍ لَهَا، بَادَهَته بخطوة راسخة ثابتة، وتَقَدَّمَ مثلها ثائرة مُنزعجة...

- تعتقدين أَن انتقالك إِلَى دَهَّام قَدْ يُفيدك! لَا تلعبي لعبة لَا تعرفين خطورتها!

- رُبَّمَا!

عقدت ساعديها، بنظرة أشعلت غيظه أضعافًا، كاد يُجن أَخْزَم، قبض كفيه وقبض معهما حنقًا يُحَاوِل ابتلاعه حَتَّى لَا يُفلت حبل لعبته

مِنْ يَدَيْهِ، تراجع خطوة وأشار للجهة الأُخْرَى فظهرت أمها مُعلقة كَالمرة السابقة، ورقته الرابحة!

أَفْشت عَيْنُهُ ذهوله، لَمْ تلتفت نحوها كأنَّهَا لَا تكترث لوجودها، حَتَّى إِنَّهَا تنهدت بنفاد صبر وابتسامة ساخرة، تحرك يَدَيْهَا بضجر...

- ومَاذَا بَعْدُ؟

- تعرفين...

- اسمعني جَيِّدًا

بترت حروفَه بنبرة حازمة، أصابت هدفها مِنَ الكَلِمَة الأولى...

- الآنَ سَوْفَ نلعب بقوانيني.

- هَلْ تمزحين مَعِي؟

تجاهلت حنقه المتزايد الَّذِي سعت خلفه، واستطردت بذات الثقة...

- سَوْفَ تَأْتِي إِلَى المكان الَّذِي أحدده أَنَا والمَوْعد الَّذِي أقرره.

- يَبْدُو أنَّك نسيت أَن لدي أُمَّك! لذَلِك أَنْتِ مَنْ سيُنفذ مَا أريده.

زادت خطوة، تعقد ساعديها مُجَدَّدًا بابتسامة مستفزة لَهُ...

- وإلَّا مَاذَا؟

يَبِسَ، لَا يُصدق ردة فعلها، تبدل حالها للنقيض، بالمرة السابقة كاد قلبها يقف خَوفًا، لَوْ كَانَ أمَرَها أَن تركع لفعلت، مِنْ أَيْنَ أتت بكُلِّ هَذَا البرود والثقة؟! كَيْفَ لَا تهتز الآنَ أمامه ارتياعًا مِنْ غضبه عَلَيْهَا وعَلَى أمها! «**تَبًّا لتلْك الساقطة! سأقتلها بيدي.**» استشاط صَدْره غيظًا، ويُشِير نَحْو زُمُرُّدة...

- سَوْفَ أقتلها؟

- ومَاذَا تنتظر!

بُهت وتحجرت عينيه مِنْ هول صدمته، لتزداد ابتسامتها المُتشفية بِهِ...

- ألم تقل إنَّكَ سَوْفَ تقتلها؟ هيا افعلها!

تَكَبَّلَ، ينظر نَحْو زُمُرُّدة مشدوهًا، والَّتِي لَمْ تُبدِ اختلاجة واحدة! ضَاعَفَت سِيًّا نحوه بضع خطوات مُتأنية، وابتسامة تزداد ثقتها...

- كلانا يَعْرِف أنَّكَ لَنْ تفعل.

تغيرت نظرتها إلَى حِدَّة مُباغتة ونبرة وعيد سحقت أَفْكَارَه...

- وإن فعلتَ فَلَنْ ترى كتابك الأثير، والَّذِي بالمناسبة أَصْبَحَ مَعِي.

خَسَفَ قلبُه مِنَ الصدمة، قلبت كُلَّ موازينه دفعة واحدة، وصلت إِلَى الكتاب! أَصْبَحَ لَدَيْهَا وهِيَ مَنْ تُهدده! حاول تَمَالُك مَا تبقى مَا قوته المهدورة، لإحكام سيطرته...

- ومِن دُون الكِتَاب لَا قيمة لأمك! لَا تنسَي ذَلِك.

طَوَّحَت ابتسامة لَمْ يفهمها، أعطته ظهرها وراحت تتهادى داخل الغابة وتُشير لَهُ سلامًا، تَمَهَّلَت ثمَّ الْتفتت كمَنْ نسي شَيْئًا...

- احرص عَلَى أَن تسترد زُمُرُّدة عافيتها قدر المستطاع.

تركتهما خلف ظهرها وعادت تتَمَايَلُ داخل الغابة، تترنم بصفير مرح، بَيْنَمَا كاد أَخْزَم يفقد عقله قَبْلَ صوته الَّذِي لَمْ يجده، ولَمْ يجد مَعَهُ مَا يقوله، ظَلَّ ينظر نَحْو زُمُرُّدة بصدمة حفرت بوَجْهِه وِديان الذهول.

أغمضت زُمُرُّدة عينها بخيبة أمل هَوَت عَلَى قلبها، وحلقت فَوْقَ ملامحها بحسرة وتعاسة «**الأسوأ لَمْ يأتِ بَعْدُ!**»

وصلت أقدامها بَعِيدًا داخل أحراش الغابة، تَرَاخت خطواتها، أغمضت عينها وشفتاها تهمس بشيء لَمْ يصل أذنها، لَحْظَات وفتحت عينها بابتسامة عَلَى صوته...

- مولاتي.
- نُوَاه.

انحنى أمامها وثلاثة آخرون مِنْ خلفه، اعتدلوا فزادت بَسْمتها، أشار باتجاه داخل الغابة تَقَدَّمَها وراحت تتبعه والآخرون فِي عَقِبها!

ارتدَّت مِنْ سُباتها بنظرة انتصار صدحت بَيْنَ جنبات روحها، اعتدلت بنشاط غمرها عَلَى غَيْر العادة، المكان هادئ، لتجد رُونَا مُتربعة بذات المكان الَّذِي تركتها بِهِ، اعتدلت قلِيلًا تتساءل بقلق...

- هَلْ كُلُّ شَيْء بخير؟
- أَكْثَر مِنْ ممتاز.

أمالت رَأْسَهَا تستفهم لتُجيب سِيًّا قَبْلَ السُّؤَال «**أَخْزَم**»، رمت نظرات متفرقة بالقاعة، الجميع غط فِي نوم عميق، إلَّا رَيَّان لَمْ يَكُنْ موجودًا! نظرت نَحْو رُونَا الَّتي تعتدل عَلَى إحدى الأرائك لتنام، تساءلت عَنْهُ، فخبرتها أَنَّهُ خرج مُنْذُ فترة!

خرجت تبحث عَنْهُ، أراد الحرس مرافقتها للتأكد مِنْ سلامتها، رفضت، فأصروا، ابتسمت، يعتقدون أَنَّهَا سجينتهم «**وَلِمَ لا؟... دعونا نمرح قَلِيلًا**» همس شيطانها.

تساءلت عَنِ الشاب الَّذِي أتى مَعَهَا، أخبرها أَحَدهم أَنَّهُ ذهب إِلَى الحدائق الجانبية للقصر، تبعت الحارس الَّذِي اتَّخَذَ دور مُرشدها نَحْو الحديقة.

تَخَلَّفَت بآخِر الردهة أمام السلم الحلزوني مِنَ الطرف الآخَر، تَصَلَّبَت حدقتاها خارج النافذة! وقعت عَلَى رَيَّان وذراعا تُولَاي تطوِّقانه، وتُقبله! والَّذِي انتفض ودفعها للخلف حِيْن التقت عَيْنُهُ بعين سِيًّا!

صُفِّدَ الزمان بَيْنَهُمَا، هوى النبض بالقلوب الغائمة بالضياع لبئر التيه السحيق، لم تجرؤ أن تتجاوز صدمتها وخيبة كبلت خفقانها فوأدته بأرضه، الْتفتت تُولَاي نَحْو مَا ينظر إِلَيْه، لَمْ تجد شَيْئًا، عادت سِيًّا آفلة إِلَى القاعة، ينتفض داخلها شعور لَمْ تختبره سَابِقًا، لَكِنَّهُ يخنقها، يستنزفها، يُدمي قلبها، ويُغلغل روحها «**الخيانة**».

دفع باب القاعة، يُلملم أنفاسه الَّتِي لهثها ركضًا فِي مُحاولة اللحاق بِهَا، لمح باب إحدى الشرف مُواربًا، تَقَدَّمَ بخطًى مُتثاقلة قلقة، وجدها تقف هُنَاك، عينها تُحلق خلف صقرَيها اللَّذَينَ أطلقَتهما بالسماء، عوضًا عَنْ روحها المُحبوسة بقيود حُرقتها.

توليه ظهرها، يُحَاوِل إيجاد مَا يقوله...

- أَنْتَ تفهمين الأمور بشكل خاطئ...

- عشيقتك؟

خرج صوتها هادئًا، بَيْنَمَا بداخلها نار لَوْ مسه طرف لهيبها لأحرقه وأحرق مَعَهُ الأخضر واليابس، رَدَّ مسرعًا بنبرة قاطعة...

- كَلَّا، كُنَّا أصدقاء، تِلْك المرات المعدودة الَّتِي أَتَيْت بِهَا إِلَى هُنَا كُنَّا نتسكع معًا لَا أَكْثَر.

- لَا يهم.

- أرجوكِ اسمعيني...

الْتفتت نحوه بنظرة ألجمته كَنبرتها الثائرة الَّتِي تبدلت بلَحْظَة...

- اسمعني جَيِّدًا، لَا أكترث لترهاتك، أَنَا هُنَا لأجل شَيْء واحد.

اقْتَرَبَتْ خطوة بَيْنَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَن يَتَحَرَّك قيد أُنملة، ورَغْم كُلِّ مَا مروا بِهِ معًا، تِلْك أَوَّل مرة يُفزعه غضبها، لتسترسل بنظرة حادة ونبرة حازمة...

- ولَنْ أسمح لأحد، أَيِّ أَحَد، أَن يُفسده علَيَّ مَهْمَا كَانَتِ الأسباب، هَلْ هَذَا وَاضِح لَكَ؟

أماء بتلجلج وشرود، لتبتسم بسخرية لاذعة...

- الآنَ يُمْكِنك التسكع كَمَا تشاء.

خلَّفَته وراءها واتجهت نَحْو الأريكة المجاورة لآصَف، أَوْلته ظهرها وتظاهرت بالنوم، بَيْنَمَا داخلُها يَصْرُخ وجعًا.

أمَّا هُوَ فاستند إلَى جِدَار الشرفة، وقدمه تهوي أرضًا، يخبط مُؤَخَّرَة رَأْسِه بالجدار حَتَّى آلمته، ويَسب غباءه «**كَيْفَ لَمْ تُخبرها لَحْظَةَ عَلمت بقرار انتقالها، هَل اعتقدتَ يا أَحْمَق أَنَّهَا لَنْ تعرف وهِيَ الَّتي تعرف كُلَّ شَيْء؟! أَم اعتقدتَ أَن تأخير البلاء سيُخفف منْ وقوعه؟ تَبًّا لبلاهتك! الآنَ دُكت السماء والأَرْض فَوْقَ رأسك.**» ظَلَّ عقله يُؤنبه حَتَّى غطَّ بسبُات عميق بموضعه.

يلتهم القاعة بخطواته الثائرة، يضرب كلتا كفيه إحداهما بالأخرى، لَا يُصدق مَا حَدَثَ!! كَيْفَ لفتاة مثلها أَن تخترق حصنهم وتهزم قُوَّة سِحرهم وسِحر دماء عائلتهم بأكملها دُونَ رادع؟! يكاد عقل شَاتَاي يُغادره مِنَ الصدمة!

حاول سنمَّار تهدئته وجعله يجلس دُونَ فائدة مرجوة، الْتفت نَحْو كَال الَّذِي لَمْ يقلَّ عَنْهُ شَيْئًا فِي الغرق بذهوله والغوص بَعِيدًا فِي أمواج أَفْكَارِه.

باغت كليهما بضرب الطاولة بيده بغضبٍ مَا عاد يَسْتَطِيع دَرْأَه، ليلتفتا نحوه كأنهما عادا مِنْ غفوة، حاول تهدئة ثائرته بزفر أنفاسه، لَمْ يعقد هَذَا الاجتماع السري والطارئ كي يُشاهد سخطهم، بَلْ ليُعطياه حلولاً...

- نَحْنُ هُنَا لنفكر معًا!

جَلَسَ شَاتَاي وقَدْ علم أَن أخاه وصل إِلَى حافة الانفجار، وإن فعل فسينفجر بوجهه وحده، فآثر إظهار الهدوء، بادر كَال بالحديث...

- قدومها أَمْر متوقع.

- لَكِن تِلْك القوة لَدَيْهَا لَمْ تَكُنْ متوقعة!

احْتَدَّ شَاتَاي بسخطٍ خانه، ليسخر كَال...

- إذًا كَيْفَ يعتقد أميرنا أَنَّهَا قتلت سَطَام وأخضعت جيشًا زلزل عالمنا بأَسْره؟!

ابتلع شَاتَاي غَيْظه، خَاصَّة أَنَّهُ مُحق، الهجين الملعونة استخفَّ بِهَا وهَذَا خطأ لَنْ يتكرر! عدل مِنْ جلسته وعقد ساعديه فَوْقَ الطاولة، يستمع لأخيه...

- لَا شَيْء مِنْ هَذَا كَانَ متوقعًا، لَدَيْهَا رُونَا حارسة رُهَانَا وهِيَ لَيْسَتْ بالشخص السهل، أَنَا أعرفها جَيِّدًا، وأَيْضًا ذَاكَ الكاهن؟

- آصَف.

بدت نبرة كَال مُنْزَعَجة، ليتساءل الملك...

- هَلْ تعرفه؟

- لَيْسَ الكثير عَنْهُ، لكنني أؤكد أَنَّهُ لَيْسَ بالخصم الضعيف.

- ولديها دَلشيَّر.

امْتعَض شَاتَاي، ليحرك الملك رَأْسَه باستفهام، فأَتْبَعَ...

- أَحَد قواد سَطَام المقربين.

- كُنْت أعرف أنني رَأَيْت هَذَا الوجه سَابِقًا!

هتف الملك بحدة، ليُعاود كَال...

- كذَلِك لَدَيْهَا ابنة سَطَام، وذاك الفتى ابن قريبة مولاتي الملكة...

- رَيَّان.

أكد شَاتَاي بنظرة ذَاتَ مغزًى لأخيه الَّذِي تساءل...

- أَلَيْسَ ذَاتَ الفتى الَّذِي كَانَتْ تُولَاي...؟

- نَعَمْ يا مولاي هُوَ.

بتر كَال الحديث، فلَيْسَ الوَقْت المناسب لَهُ، زفر الملك، عقد كلا يَدَيْهِ فَوْقَ الطاولة...

- وتلْك الفتاة الأُخرى لَنْ تقل عَنْهُمْ خطورة، إِذْ لَدَيْهَا كتيبة تتبعها إِلَى الجحيم، ولَا ننسى جيش أجنحة المَوْت والَّذِي هُوَ جحيمٌ آخر.

نظر نَحْو كليهما نظرة يائسة...

- هَلْ لَدَيْنَا أَيُّ خيارات هُنَا؟
- مَعَ وجود عَهْد الدم بَيْنَنَا وبَيْنَ ملكات النُّور والَّذِي أتت تُطالب بِهِ، لَا أَعْتَقد.
- لَا تُفكر حَتَّى يا كَال!

احْتَدَّ شَاتَاي، ينتفض وَاقِفًا ضِدَّ رَدِّ الكاهن الحاسم، ليُنهي أخوه الحوار...

- لَنْ نتسرع بأَيِّ ردة فعل تجَاهَ القادم، لَكِن ليتصرف كلاكما معهم عَلَى أننا لَيْسَ لَدَيْنَا خيار آخَر.

رفع يده مُحذرًا بنبرة غَيْر قابلة للاعتراض...

- إياكَ أَن تتصرف أَيَّ تصرف أَحْمَق حَتَّى أقول كلمتي الأخيرة، حذارِ يا شَاتَاي أَن تختبر صبري تلْك المرة، لأَنَّهَا ستُكلفنا أرواح الكثيرين.

لَمْ يَسْتَطِعْ إلَّا أَن يُومئَ امْتَثَالًا لأخيه، غادر الملك وخلفه كَال، وانْفكَ السحر الَّذِي غلف بِهِ سِنِمَّار اجتماعهم السري الَّذِي حرص أَلَّا يعلم أَحَدٌ عَنْهُ شَيْئًا.

مَكَثَ شَاتَاي يضرب الطاولة بكفه حَتَّى أدماها، لَكِنَّهُ لَمْ يشعر بِهَا ولَا بالألم، تهتاج أَفْكَارُه لمجرد طيفها، توقف عَلَى صوتٍ خلفه! الْتفت بروية ويده عَلَى قبضة سيفه، ليجد طيفه يبتسم...

- طَالَ انتظاري حَتَّى ينتهي اجتماعكم السري.

تَصَلَّبَ مِنْ هول صدمته الَّتِي أخرسته، قَبْلَ أَن يتلعثم...

- زَارَا!!

مَعَ اقتراب فجر اليوم التالي انتفضت مِنْ نومها كعادة كُلِّ لياليها الماضية، يرجُّ صراخها المكان، جسدها يرتعش، العرق يُغرقها، كابوسها يزداد قسوة وتنكيلًا بروحها، تُحَاوِل اللحاق بأنفاسها الهاربة.

اعتدلت بالجلوس إِلَى الأريكة، لفت نظرها أَلَّا أَحَد مِنْهُمْ اسْتَيْقَظَ! الجميع غارقون في نوم عميق! مَا أثار ريبتها، وقَبْلَ أَن تتحرك جاءها صوت آصَف الهادئ، يجلس بأريكته مُجَاورًا لَهَا...

- لَا تقلقي لَمْ يسمع أَحَد شَيْئًا.

قطَّبَت حاجبيها بِعَدَم فهْم، تنهَّد العجوز يُشِيرُ بيده حولهما...

- إِنَّهُ حاجز الصمت.

وقَبْلَ أَن تتساءل، أجابها...

- تعويذة لَا يسمع أَحَد مَا يدور داخلها، وقَدْ ألقيتُها عَلَى أريكتينا، لذَلك طلبتُ إِلَيْكَ النَّوْم بالأريكة الملاصقة لي، فنحن لَا نريد لِمَنْ بقصر يُورَان أَن يسمعوا صرخاتك المدوية ويعلموا أَن هُنَاك مَا نُخفيه.

ابتسمَت لَهُ امْتنانًا، تذكرَت أَنَّهُ ألقاها يَوْم جمعها بأمها، لَمْ تتساءل حيْن أصر أَن يُلصق الأريكتين مُتجاورتين، بالبداية اعتقدت أَنَّهَا لِلرَحيل، لَمْ تَكُنْ تعرف أَنَّهَا المعنية، يَبْدُو أَن العجوز فَكَّر بكُلِّ شَيْء، حَتَّى كوابيسها! أردف، بَعْدَمَا طار النَّوْم مِنْ عين كليهما، ويُزيل آثار تعويذته...

- أريدك أَن تحافظي عَلَى انفعالاتك وغضبك داخل يُورَان قدر استطاعتك.

وافقته ومَا زَالَتْ تُحَاوِل السيطرة عَلَى تهدُّج أنفاسها، ليكمل...

- وابتعدي عَنْ أَيِّ مكان بِهِ أقبية هُنَا، يحتفظون داخلها بسلاسل الخضوع.

تنهَّد، ثبَّت عَيْنَهُ بعينها...

- نَحْنُ بِأكثر قصور السَّديم خطورة، حاولي أَن تظلي هادئة مُتماسكة وابتعدي عَنْ أَيِّ قبوٍ أَوْ كهف، ابقَي بوسط القصر أَوْ بالساحة الخلفية حَيْثُ عين كَامِي.

- تِلْكَ الَّتِي حدثتَني عَنْهَا سَابقًا؟

أَشَارَ إِيجَابًا، خيم الصمت قلِيلًا، انحنى بظهره للأمام وعينه تتأمل الزرابيَّ الوثير تَحْتَ قدمه، ظلت تنظر نحوه وسؤال يؤرقها، بَشَّ وجهه...

- هاتي مَا عندك!

ابتسمت فدَوْمًا يسبقها بخطوة، مسحت عَلَى رَأْسِهَا الحليق...

- لِمَاذَا لَمْ ترفض مثلهما؟

- تقصدين زُمُرُّدة ورُونَا!

زفرت حزنًا، فأسند ظهره للأريكة خلفه...

- لأنهما لَا تريان مَا أراه.

- ومَاذَا ترى؟

- أتعرفين كَيْفَ يكبر الظلام فِي العالم وينتشر؟ كَيْفَ يسيطر عَلَى كُلِّ شَيْء رَغْم أَن أضعف خيط واهن مِنْ ضوءٍ مُرتجف يُبدد عتمة دُهمة؟

لَمْ ينتظر إجابتها، ولَمْ تُحَاوِل، فتعرف أنها مَهْمَا امتلكت مِنْ إجابات تظل أمامه تَحْدِيدًا طفلة لا تعي شيئًا، ليسترسل...

- الظلام وحش يتغذى عَلَى خوفنا واستسلامنا، يقتات عَلَى الْيَأْس الَّذِي يتملكنا، عَلَى انطفاء الحلم والأمل بداخلنا، عَلَى قنوطنا، يمكنه ابتلاع شعوب، يتغذى عَلَى الجهل والفَقْر والمرض والخوف والخنوع والخضوع والتسليم التام للاستبداد باسم الرضا والإيمان، وهَذَا مَا يَخْلق الطغاة، لَا طاغي يحكم فِي النُّور، المستبدون يحكمون فِي الظلام فَقَطْ.

اقْتَرَبَ قلِيلًا، أخذ كفها بَيْنَ يَدَيْه...

- دعيني أخبرك سِرًّا، كُلَّ لَيْلَة تستيقظين بِهَا وتصرخين بملء صوتك وروحُك تنتفض جَزَعًا، أنام بَعْدَهَا وتقر عيني كأَنْ لَا شَيْء سيئ قَدْ يَحْدُثُ بالعالم.

ارتفع حاجباها ذهولًا، ابتسم ابتسامة أربكتها لصدقها...

- كُلَّمَا ازدادت صرخاتك وتَأَلُّم روحك، دلَّ ذلك أنَّكِ مَا زلت تصمدين، تقاومين وبشدة، ولَمْ يَسْتَطِع الظلام التملك منْك، تلْك الليلة الَّتِي ستكفين بِهَا عَنِ الصراخ هِيَ الليلة الَّتِي سأَعرف بِهَا أَنه سيلتهم كُلَّ شَيْء.

ربَّت عَلَى يدها وابتسامته تزداد إشراقًا وحنانًا...

- فِي الحياة مُفارقات غريبة لَا يمكننا فهْمها، لَكِن فِي لَحْظَة مَا نكون ممتنِّين لوجودها، فمثلًا الألم يساوي الشعور، لَا أَحَد يتأَلم إن لَمْ يَكُنْ يشعر، ولَا أَحَد يشعر إلَّا ولَدَيْه قلب، والقلب هُوَ خيط النُّور الَّذِي تُشرق به الروح، مَهْمَا بدت عتمتها مُحكَمة، رَغْم أَن الألم مُوجع لَكِن دونه لَنْ نعرف أننا مَا زلنا نمتلك نعمة الشعور.

أطبق عَلَى يدها برفق، وبنبرته الرخيمة...

– حِيْن نتوقف تَمَامًا عَنِ المعاناة والألم ولَا نعُود نشعر، يَعْنِي أَن الَّذي يسكن بَيْنَ الضلوع مات، كُلُّ شَيْء بداخلنا رحل، وحينها عَلَيْنَا أَن نهَلَع؛ لأن أَيًّا كَانَ مَا وُلِد مكانه، وما خلَّفه وراءه، هُوَ شَيْء مخيف.

عَيْنُهُ مُعلقة بضوء النَّهَار الَّذِي راح يتسرب مِنَ النوافذ والشرفات ويغمر القاعة بألوان مُبهجة...

– الظلام لَيْسَ شَيْئًا يمتلكنا رَغْمًا عنَّا، نَحْنُ مَنْ نتركه يفعل، لَيْسَ تعويذة سوداء أَوْ نبوءة مشؤومة، الظلام هُوَ الاسْتِسْلَام، يُمْكِنُ أَن يسكن أَيًّا منَا، ويحوِّله إلَى وحش كَاسر، وإن كَانَ عابدًا ناسكًا، نَحْنُ مَنْ نختار، ورَغْم كُلِّ الأعاصير الَّتِي ضربت نهرك الهادئ بفترة قصيرة، اختارت الصمود، لذَلك تستحقين أَن أُحارب لأجلك، لَوْ تعرفين كَمْ تُبهريني يا فتاة بصمودك ومقاومتك للانكسار! هُمْ يخافون سقوطك بَيْنَمَا أَنَا أراهن عَلَى رسوخك.

– لِمَاذَا لَا تتركني أُطلق تلْك التعويذة أَوَّلًا ضِدَّهُ وننهي كُلَّ هَذَا؟

– لَنْ تستطيعي تحمُّل كُلفتها، غَيْرَ أَنَّهُ لَنْ يُشكل فارقًا، النِّهَايَة واحدة ومحتومة.

أمالت رَأْسَهَا طلبًا لمزيدٍ مِنَ الفهم، فأَدْغَم...

– تعويذات السحر الأسود تَحْدِيدًا تعمل بكلَا الاتجاهين، لَا يهم مَنْ يُطلقها أَوَّلًا أَوْ يستخدمها ضِدَّ الآخَر، لأَنَّهَا ستستنزف كُلَّ مَنْ يقف بمرماها، غَيْرَ أَنَّهُ لَا ينتصر بِهَا إلَّا مَنْ كَانَتْ روحه مُظلمة، طاعنة في السواد!

رمته بنظرة تشي بِعَدَمِ الفهم، ليُعاود القبض عَلَى يدها، وتنهَّد...

- هَذَا أهم شَيْء أُخبرك بِهِ فِي حياتي، لنقُل إِنَّهُ الدرس الَّذِي إن تعلمته تكونين تعلمت كُل شَيْء، يجب أَن تعرفي أَن لِكُلِّ شَيْء ثمنه، وكُلَّمَا عَظُمَ مَا نطلبه غَلَا مَا ندفعه بالمقابل، انظري إِلَيَّ جَيِّدًا لتعرفي.

تذكرت مَا قاله عَنْ قربان الرَّوْشَم، زفرت بضيق، ليسترسل...

- ألم تتساءلي لِمَاذَا أبدو هرمًا؟ رَغْم أنني بالماضي كُنْت أُقَارب رُونَا وتِيَّام! وبالحقيقة أَنَا أصغر مِنهما بعدة أعوام.

فغرت عينها استغرابًا، تُجاهد لتخرج مِنْ صدمتها...

- اعتقدتُ أَنه حَدَثَ خطأ مَا أثناء العبور!

- بَلْ ثمن شَهْوَة تركتها تحكُم سيطرتها عليَّ وتستعبدني، كُلَّمَا سعينا خلف شَيْء لَا نمتلكه فإننا ندفع ثمنه مِنْ أشياء نمتلكها بالفعل، والأسوأ أننا لَا نختار مَا ندفعه، القَدَر وحده مَنْ يقوم بتلْك المقايضة، والَّتِي أقسم لَك أَنَّهَا مَهْمَا بدت عادلة لَهُ فهِيَ تكون مُجحفة لَك، لأَنَّهُ يسلبك شَيْئًا تكتشفين حينها أَنَّهُ كَانَ يَسْتَحِقُّ أَلَّا تُخاطري بِهِ، وأَنَا سعيت خلف معرفة ورؤية مَا لَيْسَ مِنْ حقي، وَكَانَت العاقبة تساوي شبابي.

دمعت عَيْنُهُ المتألمة...

- لَا تطمحي لشيء لَا يُمْكنك تحمُّل كلفته.

- مَا تكلفة تعويذة الاستحواذ يا آصَف؟

- أَن تقتلي بيدك أَكْثَر شَخْص تحبينه فِي هَذَا العالم! أتستطيعين الدفع؟

ارتعشت يدها، تدلى فكها السفلي رهبة، ارتاعت عينها هولًا، مَنْ يدفع ثمنًا كَهَذَا إِلَّا شَيْطَان؟! ويُلاحقها!

وقف وتهادى بخطوات مُترنحة حَتَّى وصل النافذة، شهق أنفاسه بحُبُور، يُدْخِل إِلَى صَدْره الهواء العليل ليغمر روحه المتألمة لعلها تُشفى يَوْمًا.

مَدَّ كفه خَارجًا يُلامس خيوط الشمس، الْتفت نحوها وأشار بابتسامة مُحفزة وإماءة أَن تَأْتِي، تقدمت بخطًى ثقيلة ضالة، مدت يدها تَحْتَ الخيوط الذهبية، ابتسم لَهَا، يدفع كتفها بكتفه برفق «**أضعف خيط واهن منْ ضوء مرتجف يبدد عتمة دُهْمَة**»، زادت بشاشته، يُشير نَحْو قلبها الَّذِي تنعكس أشعة الشمس فوقه «**فما بالك بشمس ساطعة! حتى وإن حجبتها بعض الغيوم تظل مشرقة جليَّة**».

غمرها ارتياح غريب لكلامه وثقته، مدت يدها أَكْثَر تُداعب الخيوط الدافئة تريدها تتغلغل داخلها أَكْثَر وأكثر «**لَا تتخلى عَنِّي يَوْمًا مَهْمَا حَدَثَ يا آصَف!**» همست دُونَ أَن تلتفت «**لَن أفعل**»، أجاب دُونَ أَن يُحول عَيْنَهُ عَنْ مرماها، تنهد داخله «**لَوْ تعلمين أنَّك فرصتي الَّتِي منحني إياها القَدَر لأُكفر عَنْ ذنوب الماضي الأليم!**»

تُغطي رَحيلُ وَجْهَهَا، تمسح دمعات هاربة تسربت عَلَى خَدِّهَا، فَلَمْ تشأ أَن يعرفوا أَنَّهَا استيقظت مُنْذُ برهة، وقَدْ آلمها ألمه، لَمْ تفهم عَنْ أَيِّ تعويذة تحدثا، فَلَمْ تستمع إلا لآخِر الحديث، ولَمْ تهتم أَن تفهم، فَقَطْ تألمت لأجله!

مُنْذُ لَيْلَة الرَّوْشَم وجلوسه بجانبها طوال فترة شفائها، والَّتِي كَانَ لآصَف الفضل الأكبر في مرورها سريعًا، والعجوز يستحوذ عَلَى اهتمامها.

لَمْ يَكُنْ لَهَا يَوْمًا عائلةٌ، فجميعهم ماتوا أَوْ قُتلوا وهِيَ صغيرة، ترعرعت مشردة كأغلب الهجين والطرائد عَلَى الأَرْض، حَتَّى وجدها تِيَّام وكَانَ صديقًا لوالدها، لَمْ تعرف قبلًا مَاذَا يَعْنِي الاهْتمَام أَوِ الحنان والاحتواء إِلَّا معهم، مُنْذُ اضطرت للمكوث مَعَ رُونَا وسِيًّا ودَلِين عامة وآصَف خَاصَّة! صاروا عائلتها، ورَغْم كُلِّ مَا تُحَاوِل أَن تُبديه مِنْ قُوَّة وعَدَم مُبالاة ومشاحنتها المستمرة مَعَ سِيًّا لتظهر أَنَّهَا لَا تُبالي ولَا تهتم، لَكِن داخلها يهفو لدفء وجودهم وترابطهم معًا بمشاعر العائلة الَّتِي حُرمت مِنْهَا صغيرة.

السَّابِع

«رُبَّمَا لَا نَسْتَطِيع أَن نَنتصر فِي كُلِّ المعارك التي نَخُوضُهَا، لَكِن عَلَى الأَقل لَا يَجِب أَن نَخسرَهَا جَمِيعًا!»

دَلِين

مَعَ رأْد الضحى الدافئ، وبالحديقة الخلفية للقصر، بالجزء المسقف مِنْهَا بألواح زجاجية بألوان متداخلة، تُضفي عَلَى المكان شكلًا خلابًا، تقف فَوْقَ حافة عين كَامِي، تمنت كَثيرًا لَوْ رأتها ووقفت بحضرتها، مُنْذُ قص عَلَيْهَا آصَف عَنِ العين الَّتي تتميز بانعدام قُوَى السحر حَوْلَهَا، لَهَا قوًى فريدة تُمَكِّن مَنْ بمحيطها أَن يحظى بالهدوء والسكون، ويَسْتَطيع التفكير ورؤية الْأَشْيَاء بوضوح، كَمَا يلقبونها بعين حفظ الأسرار! فلَا شَخْص يَسْتَطِيع قراءة أفكار شَخْص آخَر قُربها حَتَّى وإن تعانق مَعَهُ.

لَمْ تَكُنْ مأخوذة بالعينِ وصوتِ مياهها الجاري المريح للأعصاب الَّذي يندفع مِنَ النافورة الزجاجية الصغيرة الَّتي تتوسطها، قدر كونها هائمة بأفكارها، شاردة بخطوتها التالية، تمنت لَوْ تمنحها العين الصفاء الذهني.

طلبت إلَى الملك عَقْد اجتماع مَعَ ملوك الممالك الأُخْرَى، رَغْم علمها أنهم لَنْ يحضروا، لَكن يجب أَن يسير كُلُّ شَيْء وفق خُطَّة آصَف، ويجب أَن يُوقن الجميع أَنَّهَا تلهث خلف دعمهم لَهَا والمحاربة بصفها ضِدَّ زَارَا.

لَا تعلم لِمَاذَا يُصر آصَف عَلَى ذَلك! لَكنْ لَا مشكلة لَدَيْهَا بأن تفعل، مَا دام هَذَا لَا يُعيق خطتها! والَّتي تعمل جُلَّ جهدها عَلَى إرساء قواعدها بشكل سليم، أمها لَيْسَتْ راضية عَمَّا تؤول إلَيْه الأمور، وآصَف إن علم خُطتها الْحَقيقية فسيقتلها، عِنْدَ التفكير بردة فعل رُونَا زفرت بابتسامة

ساخرة «**ستقتلع رأسي!**»

ليستردها مِنْ دُجْنَتها نبرة مرحة أتت مِنْ ورائها...

– أرجو أنَّك تستمتعين بالمنظر؟

استدارت لتجد تُولَاي تقف خلفها بابتسامة عريضة، بادلَتها إياها بأخرى عابرة، زادت خطواتها الهادئة تلتف حَوْلَ العين المستديرة، صارت بمقابل سِيَّا، الَّتِي ظلت عَلَى صمتها، لتتردد تُولَاي لَحْظَة قَبْلَ أَن تُردف...

– يُمْكِنك قراءة العقول دُونَ لمس أصحابها! هَذَا حَقًّا مذهل وغَيْرُ مسبوق، ليتني أملك موهبة مثلها.

علقت سِيَّا عينها بمياه العين المندفعة للأعلى كأفكارها...

– احذري مِمَّا تتمنَّيْن! أيُّ نعمة يمكنها أَنْ تنقلب لنقمة بلَحْظَة.

رفعت حاجبها استغرابًا، قَبْلَ أَن تتساءل...

– أَنْت لَا تستطيعين قراءة أفكاري هُنَا، أَلَيْسَ كذَلِك؟

– مِنَ الجيد أَن كِلْتَيْنا لَا تَسْتَطِيع.

– كَمْ أعشق تِلْك العين!

ابتسمتا، ارتدَّت عين تُولَاي نَحْو المياه، خامَرها إحساس بالارتياح فلَا تَسْتَطِيع قراءة أفكارها هُنَا، تِلْك المعلومة أَكْثَر مَا أربكها! ورَغْم تشكُّكها فِي البداية لَكِن اختلاجات سِيَّا وردَّ فعلها عَلَى السُّؤَال يُؤكدان أَنَّهَا لَا تعرف، خَاصَّة أَنَّهَا تِلْك اللحظة تَحْديدًا كَانَتْ تُفكر بشيء سيئ لِلغَايَة! والأهم أَنَّهَا تثق فِي عين كَامي كَثيرًا.

تحركت تُولَاي خطوتين حَوْلَ العين...

- أخبرني أبي أنَّكِ تسعين خلف تَأْيِيد ملوك السَّدِيم؟

أَكَّدَت سِيًّا باهتزازة مِنْ رَأْسِهَا، وعينُها عَلَى انعكاس صورتها فِي المياه، وشَيْءٍ يركض بصدرها بضراوة! يُجاهد ليخرج! تُحَاوِل السيطرة عَلَيْهِ! رمقت سوارها بنظرة مستغربة لَكِنَّهَا ممتنة إِلَى أقصى مدًى! تلمح النابض بالأحمر يُومض حَوْلَ رقبة تُولَاي! «**أَلَا يوجد أَحَد لَا يُخفي شَيْئًا؟!**» سخر عقلها، أعادت عينها نَحْو المياه تُحافظ عَلَى ثباتها الظاهري!

لترتفع تُولَاي فَوْقَ حافة العين مِنَ الجهة المقابلة، تتحرك بهدوء فَوْقَ الحافة الرخامية وعينها ترقُب المياه المندفعة، وسِيًّا تُواكب خطواتها، تدوران بروية داخل حلقة العين، لترفع عينها نحوها مُجَدَّدًا...

- جميعهم خونة، كلاب زَارَا الأليفة، لَيْسَ مِنَ الذكاء أَن تجعليهم حلفاءك!

رفعت سِيًّا عينها، عقدت ساعديها بنظرة اهتمام...

- أَلَا تعتقدين أنهم أُجبروا عَلَى هَذَا الوضع؟

- الملوك لَا يُجبرون عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِذَا أرادوه، أَوْ كَانَ الثمن مُغريًا ليتقبلوه.

- رُبَّمَا الحكام، لَكِن الشعوب لَيْسَ بِيَدِهم حيلة.

- جميعهم مُشارِكون بالذنب، تَآمَروا عَلَى الخيانة.

استدعت تُولَاي قوسها، قطَّبَت سِيًّا حاجبيها ترقُّبًا، سحبت سهمًا وسحبت مَعَهُ نفَسًا، حبسته، حددت الهدف بأبعد نقطة فِي الحديقة وأطلقت سهمها وأنفاسها، فأصابته، رمتها سِيًّا بنظرة انبهار؛ فسمعت سابقًا عَنْ مهارتها فِي القوس لَكِنْ أَن تسمع شَيْءٌ وأن ترى شَيْءٌ مُختلف

كُليًّا! عَلقت تُولَاي عينها بهدفها التالي وألحقت...

- التواطؤ بالصمت أَحَد أشكَال الخيانة، مُشاركة ومُوافقة ضمنية عَلَى مَا حَدَثَ وما يَحْدُثُ، أَلَا توافقينني فِي ذَلِك؟

- أَلَا تجدينه عَنْ ضَعْف وقلة حيلة!

- أنتِ لَسْتِ ساذجة إِلَى تِلْك الدرجة المزرية، لو رفضوا لصرخوا لاعترضوا لتمردوا، لكنهم صمتوا، فتَحَالفوا عَلَى الخيانة، وزَارَا كَانَ يعلم ذَلِك.

سحبت سهمًا آخَر ورمته ورمتها مَعَهُ بابتسامة خبيثة...

- لَمْ يكُنْ فَقَطْ يعلم بَلْ كَانَ وَاثقًا تَمَامًا، وإِلَّا لمَا جازف لِلَحْظَة واحدة بغير ذَلِك!

ابتسمت سِيًّا ابتسامة مُؤيدة...

- أنتِ جيدة فِي الإقناع.

الْتفتت نحوها تُولَاي بنظرة غَامِضة...

- تعرفين أَنَّكِ تروقين لي كَثيرًا.

ابتسمت سِيًّا ببرود، وهَمَّتْ مُغادِرة، لتُناديها الأُخْرَى تُوقفها، سحبت سهمًا تصوبه نحوها تَمَامًا، فثبتت سِيًّا بمكانها، لتطلقه فيعبر مِنْ فَوْقَ رَأْسِهَا مُباشرة دُونَ أَن يرتجف لَهَا طرف...

- مِنَ الجيد أَنَّكِ لَسْتِ أختي، وإلا لاضطررتُ لقتلكِ، فالعرش لَا يتسع إلا لملكة واحدة.

- مِنَ الجيد أنني لَنْ أُضطَر أَيْضًا إِلَى فعلها.

صمتت كلتاهما لِلَحْظَة، سحبت تُولَاي آخَر وصوَّبت...

- أَنَا لَا أُخطئ هدفًا قَطُّ.

أطلقته ليعبر بجانب خَدِّهَا لَكن سِيًّا أمسكته مِنْ نصله قبل أن يعبر، مَا أذهل تُولَاي! ورغم الألم وقطرات الدم التي غمرت كفها إلَّا أن ابتسامتها البشَّة صدحت بوجهها، وتغمزها...

- وَلَا أَنَا!

أَلْقَتِ السهم تَحْتَ قدمها، غادرت وغادرتها ابتسامتها وهدوءُها، وسكنها سخط يغلي! فصدى أفكار تُولَاي المُتضارب فضح الكثير مِنْ مخططاتها ومخططات أبيها! فبتلك الدقائق الماضية قرأت الكثير واكتشفت الأكثر! وكُلُّه لَمْ يَكُنْ مُبشرًا عَلَى أَيِّ حال!

فالعين الحافظة للأسرار بالنهاية لَيْسَتْ كذَلِك، لَمْ تفلح فِي حجب أفكار أَحَد عَنْهَا! لَا تعلم أهي قدراتها الَّتِي تكتشفها كُلَّ يَوْم أَم السوار بيدها! رمته بنظرة امْتِنان، فَمَا زَالَ يُفَاجِئها بقواه الَّتِي لَا تُعد ولَا تُحصى!

خطواتها بالردهة تشي بغضبٍ عارم يجتاحهَا، لَمْ يُحَاوِل دَلشيَّر سؤالها عَمَّا حَدَثَ، فيرى تكوُّر قبضتها الحانقة الدامية وهِيَ تسبقه بخطوات تكاد تدك الأَرْض أسْفَل قدميها!

وصلت باب المكتبة المطلة عَلَى إحدى الحدائق الجانبية للقصر، تشبه كَثيرًا القاعة الَّتِي رأتها داخل معبد دَارَا لَيْلَة إِلكَاي، لَمْ تتأمل فِي تصميم المكتبة الهرمي المنفرد بهندسة خَاصَّة وزخارف تَخْتَلف عَنْ كامل القصر، وتتميز بوجود مناظر طبيعية للسماء والبحار والأنهار

والجداول والمساحات الخضراء الشاسعة، والحيوانات البرية النادرة،

فتبدو الجدران كَأَنَّهَا مروج طبيعية ثلاثية الأبعاد، بدت بعين دَلشيَّر حيةَ أَكْثَر مِنْ أَيِّ شَيْء يعرفه، حَتَّى مِنْهُ نفسه، سرقت لُبه، وجعلته يتسمر.

وصلت حَيْثُ أَرَادَتْ، مَجْلِس مِيلَّا، الَّتِي كَانَتْ تتوسط مجموعة مِنْ صديقاتها والَّتِي لَمْ تكف عَنِ الحديث حَوْلَ سِيَّا معهن، فبِتْنَ مبهورات بِهَا قَبْلَ رؤيتها، وما إن وقعت أعينهن عَلَيْهَا حتى انتفضن واقفات بنظرات شغف ورهبة وحب، ابتسمت لَهُن بمودة وهدأ كَثِيرٌ مِنْ حنقها وهِيَ تبادلهن التحية وبَعْض الكلمات قَبْلَ أَن تنتحي بمِيلَّا بَعِيدًا عَنِ الجميع...

- هَلْ يُمْكِنك أَن تسديني صَنيعًا؟

- أَيَّ شَيْء لِمولاتي.

ابتسمت وارتكزت إِلَى ركبتيها أمامها...

- أَنْت وحدكِ يُمْكِنكِ مناداتي سِيَّا فَقَطْ.

- حَقًّا!

- نعَمْ، فنحن صديقتان، أَلَيْسَ كذَلِك؟!

غمرت ملامح مِيلَّا فرحة غامرة، احتضنتها فجأة بحبٍّ، ليهتز شَيْء داخل سِيَّا شَيْء لَمْ تَكُنْ تعرف أَنَّهُ مَا زَالَ موجودًا «**قلبها**».

تركتها حَتَّى فكت مِيلَّا يدها عَنْها، لتهمس بصوت مُتَرَدِّد...

- للحق هما شَيْئَان أيمكنكِ مساعدتي بِهِمَا؟

- أَيُّ شَيْء هُوَ لَكِ.

همست داخل عقلها...

- أَيْنَ أجد كهف الخضوع الخاص بالملك؟

فتحت عينها باستفهام، لترميها سِيًّا بطلبها الثاني مَا جمَّد أوصالها...

- شَيْء يخص تُولَاي.

جَنَّ اللَّيْل، يكْتَنِفُ بَيْنَ ستائره أسرار قلوب أنهكها الكتمان! يجَلِسُ رَيَّان بالحديقة الخلفية للقصر، يتكئ إِلَى الأريكة الرخامية أمام كَامِي، نظرُه مُعلق بالنافورة الزجاجية، تتهادى منْهَا المياه الرائقة للأعلى بتناغُم كَأَنَّهَا تتراقص عَلَى أنغام موسيقى اللَّيْل، تتلألأ بجمالٍ فاتن بانعكاس تداخُل ألوان زجاج السقف مَعَ ضوء القمر عَلَيْهَا.

اندفاع أَفْكَارِه العاصف يكاد يخسف بِهِ وبكل أحلامه وأمانيه، كُلُّ مَا يَسْعَى إِلَيْه وجود «**سيًا**» بجواره، لَا يَعْرِف مَا الذي يجب عَلَيْه فعله لتفادي غضبها، فيعلم أَن تجاهُلها غضب، لَا يحتمله ولَا يَعْرِف كَيْفَ يُنهيه، لَا يحْتَمِل أَن تُقصيه بعيدًا.

طَأْطَأَ رَأْسَه وتنهد بحزن، ليجد يدًا تطوِّقه منَ الخَلْف! انتفض فزعًا ليجدها تُولَاي، تسمرت أوصاله، أدار رأسَه حَوْلَهُ بارتياب، تبسمت لاضطرابه والْتفاتته المرتابة كأَنَّ جُنُونًا مسه...

- هَلْ فقدتَ عقلكَ!!

- أَنْتَ تُفسدين كُلَّ شَيْء.

اندفع صوته بغيظ ومَا زَالَ يتلفت ليطمئن أَلَّا أَحَد يراه، فَلَا يريد أَن يَزيد الوضع سَوْءًا، لتتساءل بنظرة مندهشة...

- أُفسد مَاذَا؟

- توقفي عَنْ أفعالك، الأمور لَا تحتمل.

تلاعبت بخصلات شَعْرِهَا، حاولت دحر إِحْباطها! فاحتضانها لَهُ باء بمحاولة فاشلة لقراءة عقله، ولم يؤتِ غرضه ﰲ معرفة أَيِّ شَيْء يخص سِيًّا! حاولت اختراقهم جميعًا دُونَ أمل؛ مَا زاد سخطها واستياءها، اصطنعت أَن الأَمْر اشتياقًا لَهُ، عبست عيناها...

- لِمَاذَا لَمْ تخبرهم أننا عاشقَين؟

- كُنَّا، كَانَ بَيْنَنَا شَيْء جميل لَمْ يَكُنْ عشقًا ولَنْ يكون، صداقة أقصى مَا يمكننا أَن نطلقه عَلَى علاقتنا.

صَاحَ بغيظ، ابتسامة باردة تلبست وَجْهَهَا، تتخذ مجلسها أمام العين...

- إذًا لِمَاذَا الفزع! فَلَا شَيْء يَسْتَحقُّ الاهْتِمَام!

زفر بعَدَم ارتياح، لَحْظَات وغادر دُونَ كلمة أُخْرَى، يعلم تُولَاي جَيِّدًا؛ لَيْسَتْ مَنْ تتنازل عَنْ شَيْء اعتبرته ملكًا لَهَا، لذَلِك كَانَ يجب إنهاء تِلْك الفوضى، عملية واحدة مُؤلمة باترة خيرٌ مِنْ ألمٍ ونَزِيفٍ مُسْتَمِرٍّ!

لَمْ تعد تحبه، لَكن لهفة الحنين للقاء بَعْدَ فراق السنين أسكرَتها بنشوة ذكريات الماضي، لَمْ تكترث لِمَا تفوَّه بِه، فَلَيْسَتْ مَنْ تهتز لرَجُل، حَتَّى وإن أحبَّته، ومَعَ ذَلك سكنها غيظ جارف، فتؤلمها فكرة أَن يرفضها أَوْ يبتعد عَنْهَا، حَتَّى بالماضي هِيَ مَنْ تَرَكَتْه يبتعد، فلَم يُخلق بَعْدُ مَنْ يرفضها، خَاصَّة إن كَانَ لأجل امرأة أُخْرَى! هِيَ لَيْسَتْ غبية، ترى كَيْفَ ينظر للهجين وهَذَا يُثير شعورًا سيئًا بداخلها!

عَلَى الجهة الأُخْرَى مِنَ القصر، وداخل قاعة العرش المغلقة عَلَى أربعتهم فَقَطْ، خطط كَال للقاء منفردًا بِهَا بَعِيدًا عَنْ رُونَا وآصَف، فيعلم أَن بوجودهما لَنْ يسري اللقاء كَمَا يريده! وقَدْ حَدَثَ مَا أراده، وافقت عَلَى طلبه بإخضاعها لاختبار بسلاسل الخضوعِ أمامهم لتأكيد حُسن نواياها! ولشكٍّ يضمره فِي نفسه يجب التأكد مِنْ أَنَّهُ يُمْكِنُ السيطرة عَلَى قوتها الجامحة تَحسُّبًا!

اهتاج شَاتَاي وحاول قلب الطاولة، فَلَنْ يترك هَذَا الاتفاق يَحْدُثُ! واعتمد عَلَى رفضها لاقتراح كَال لَكِنَّهَا فاجأته ووافقت، لذَلِك قرر استفزازها بِأَنَّهُ رُبَّمَا بَعْدَ ذَلِك يَرْفُضُ الملك دعمها!

أحست ببوادر حنقها يهب بَيْنَ ضلوعها، استدارت نَحْو النافذة، تركض بنظراتها خلف خيوط القمر، لتُلهي عقلها تُحَاوِل كبح شيطانها، فآصَف كَانَ دقيقًا بشأن التحكم بغضبها داخل يُورَان!

جاهدت كي لَا يستعر سخطها مِمَّا قاله، سحبت نفَسًا وزفرته، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ زفْر ثورتها مَعَهُ، الْتفتت نحوه، ألقته مِنْ طرف فمها بابتسامة لَمْ تُخفِ مَا يعتمل داخلها، والَّذِي لَمْ تعُد تحتمل اعتقاله أَكْثَر!

بهدوء فَاتِر تقدمَت خطوتين نحوه، تبدلت معالم وَجْهِهَا لهدوء مُفاجِئ أربكه، فاعتقد أَنَّهُ نجح فِي إثارة بركانها، وجرِّها لفخ الثورة فِي وجه الملك، لتصوب عينها بعينه بنبرة ثابتة واثقة...

- بَعْض المعارك لَا يُمْكنك أَن تأخذ بِهَا منطقة آمنة، لَا يوجد بِهَا سِوَى جانبين إمَّا مَعَ أَوْ ضدَّ، أَمَّا خط الحياد فَهُوَ خط الوهم، مَنْ يضع قدمه فوقه يسقط، يُطبق يَدَيْهِ عَلَى سراب.

أَوْلَته جانبها بروية، لتُنعم النظر بعين سِنِمَّار...

- فِي مرحلة مَا سيكون عَلَيْكَ أَن تُحدد ولاءك، تختار أَيَّ طريقٍ تتخذ! ولأي صفٍ ستنضم! وحين يأتي هَذَا الوَقْت تأكد من كونك عَلَى الجانب الصحيح مِنَ الحرب والحياة بِرُمتها.

صمتت ورشقته بنظرة مُغايرة! متوعدة! ولَّت وَجْهَهَا شطر الباب، وتستطرد بنبرةٍ وعى ثلاثتُهم مغزاها جَيِّدًا...

- لأَنَّك لَو اخترت غَيْرَه فربما لَنْ تكون مُوجودًا لتُشاهد النِّهَايَة، وتعرف أَنَّكَ عَلَى الجانب الخطأ مِنَ اللعبة، اخترت الجانب الَّذِي سيُوصلك إِلَى الجحيم... يا مولاي.

بدت نبرتها بـ «مولاي» تهكمية ساخرة، لينتفض شَاتَاي...

- كَيْفَ تتجرئين عَلَى تهديد الملك!

ابتسامة الْتمعت بعينيها زادت اهتياجه وهَذَا كُلُّ مَا أرادته، الْتفتت نحوه بوجه مُختلف كليًّا ساكن هادئ التقاسيم...

- وهَلْ أجرؤ؟

تغمزه بِطَرْف عينها...

- لنقُل نصيحة مِنْ صديقة... سمو الأمير.

وصلت طوفان عواصفه عنان السماء لتحديها السافر للجميع، لَكِن سخطه مِنْ صمت أخيه أعتى! لَمْ تكترث لنظراته النارية، التقطت عينها خنجره المذهَّب بحسامه، نسخة مِنَ الخنجر بكوابيسها! تَمَعَّرَ وَجْهُهَا، قَذَفَته بنظرة مُسْتَعِرة، وغادرت.

تركتهم خلفها يتخبطون! خرج كَال عَنْ صمت تَلبَّسه إثر وَعِيدها الصريح، فَلَمْ يتوقع أَن تَجْرُؤ عَلَى فعلها، اقْتَرَبَ مِنَ العَرْش...

- إنَّهَا تشبه سِيسيليَا كَثيرًا، أخبرني والدي أَنَّهَا لَا تخشى شَيْئًا ولَا يتحكم بِهَا شَيْء.

- لنحمد رب السماوات فِي كون سلاسل الخضوع تَسْتَطيع كبح جماحها، وسَوْفَ نتأكد مِنْ ذَلِك، ولَنْ تَسْتَطِيع الرفض إِذَا أَرَادَتْ مساندتنا.

علق الملك بزفرة ارتياح مُتحفزة، ليبتسم كَال بقلق، ونبرة ملؤها الحيرة...

- أتمنى أَلَّا نضطر لِهَذَا الاختيار، فَلَنْ يتركونا نُخضعها لسلطتنا بسهولة!

- لَكِنَّهَا قبلت بالاتفاق!

- أَن تقبل شَيْءٌ وأن يتركونا نفعل شَيْءٌ آخَر يا مولاي، أَلَا ترون كَيْفَ يستميتون بالدفاع عَنْهَا؟!

- هَذَا لَنْ يوقفنا إن انْقَلَبَتْ ضدنا.

قاطعهما شَاتَاي، لينزل سِنِمَّار عَنْ عرشه، يعقد ساعديه خلف ظهره...

- كَال محق، هَذَا سيفتح عَلَيْنَا أبواب الجحيم، فما فعلَته حَتَّى الآنَ يؤكد أَنَّهَا النبوءة الملعونة، وهَذَا بحد ذاته مُقلق.

- فلِمَاذَا يضع مولاي يده بيدها؟

ثار شَاتَاي بصوت مُتأفف، يتقدم خطوات نَحْو أخيه...

- وهَلْ لَنَا مِنْ حل آخَر؟

تساءل كَال بنبرة هادئة، ليرمقه الآخَر بنظرة مُتحيرة أهو سؤال أَمْ إجابة، فتِلْك النبرة هُوَ يعرفها جَيِّدًا! ولَّى وَجْهَه شطر الكاهن الَّذِي زاد نحوهما خطوتين...

- أَعْتَقِدُ أَن هُنَاك حلًّا.

عُلقت أعينهما بِهِ، أَتْبَعَ بذات الهيئة والثقة...

- رُبَّمَا آن الأوان لأميرنا أَن يتزوج.

كشر شَاتَاي حاجبيه بذهول، بَيْنَمَا أشار لَهُ سِنِمَّار أَن يُكمل...

- تِلْك الفتاة ملكة، وَلَيْسَتْ أَيَّ ملكة، بَلِ الملكة الشرعية للسَّدِيم، ولنكُن أَكْثَر تَحْدِيدًا؛ آخِر مَنْ تبقى مِنْهم.

- أهذا سبب كافٍ لأتزوج بهجين؟

سخط شَاتَاي والشرار يتطاير بعينه، أوقفه صوت أخيه...

- تِلْك الهجين ملكة السَّدِيم سَوَاء أَعْجَبَنا ذَلِك أَم لَا!

الْتفت نحوه مُتَجَهِّمًا بنظرة مُسْتَنْكِرَة، تجاهلها وعاد إِلَى عرشه، أحاقهم صمت قلق، أَلْحَقَ الملك...

- وعاجلًا أَوْ آجلًا ستجلس إِلَى عَرْش النُّور وسيركع أمامها الجميع.

- هَذَا لَنْ يَحْدُثَ!

- بَلْ سيحدث، وحينها لَا بُدَّ أَن نكون عَلَى الجهة الصحيحة مِنَ الحرب.

- بكُلِّ الأحوال تظل امرأة ويُمْكِنك السيطرة عَلَيْهَا يا أميرنا، أَنْت ستكون الحاكم الفعلي.

تدخَّل كَال ليُهدئ مِنْ حِدَّة الحديث، ابتسم الملك بفتور...

- وإن لَمْ تَسْتَطِع السيطرة عَلَيْهَا، فقيود الخضوع ستتكفل بهَذَا.

- وحينها لَنْ يجرؤ أَحَد على فعل شَيْء، فأنت زوجها.

أكَّد كَال، لبث شَاتَاي لَحَظَات عَلَى جموده ونظرات عَدَم استيعابه، ثمَّ غادر القاعة دُونَ حرف.

سُخطه وتجهُّمه يَصْرُخان بملامحه قَبْلَ خطواته المتسارعة بحنقها تدب بجنبات القصر الساكن، بالتَّأكيد فَقَدَ كلاهما عقله! كَيْفَ يجرؤان عَلَى تخيُّل شَيْء كَهَذَا؟! كَيْفَ يُمْكِنُ أَن تصبح تِلْك الهجين الوضيعة زوجته؟!

يخافان تهديد مشعوذة ملعونة ورعاعها؟! زَارَا كَانَ مُحق بأن أخاه فَقَدَ عقله ويجب إزاحته قَبْلَ فوات الأوان!

لَيْسَ جبانًا مثلهما ويَعْرِف جَيِّدًا كَيْفَ سيصل إِلَى عَرْش السَّدِيم بأكمله! فمَهْمَا بلغت قوتها تظل حشرة! وإن تغلبت عَلَى زَارَا باجتماع الحمقى حَوْلَهَا فلَنْ تتغلب عَلَيْهِ، بَلْ سيقضي عَلَيْهَا دُونَ أَن يُغادر فِراشه، يَعْرِف كَيْفَ يمحوها.

بذات الليلة الحافلة عَلَى الجانب الآخَر، ومَعَ جَهْمَة اللَّيْل الغطيس، تجلس وحيدة داخل قاعة الحياة آخر ملاذ لروحها المحطمة، تتربع زُمُرُّدة أَرْضًا ترْكُنَ جسدها الهزيل إِلَى طاولة خلفها، وعينها مُعلقة بالنوافذ الملونة أمامها، غارقة بالسماء الدَّيْجُور، طغيان أفكارها يحوطها بلا رَحْمَة، إن عَلِمَت ابنتُها مَا فعلَتْه فهَلْ تغفر لَهَا؟!

روحها تُحلق خلف النجوم المتناثرة، حَتَّى اصطدمت بقمر إِلكَاي غَيْرِ المكتمل، رَغْم كُلِّ مَا يحمله مِنْ ذكريات مُوجعة، يظل مُواسيها ومُؤنس ألمها عَلَى مر سنوات غابرة، ليخرج صوتها الواهن خائر الأمل...

- أترين كَمْ هُوَ ساحر؟! رَغْم كُلِّ الدمار الَّذِي حمله مَعَهُ فإِنَّهُ يظل خَلَابًا بشكل مُخْتَلِف!

لَمْ يأتِها رَدٌّ! اسْتَقَرَّت بجلستها لحْظَة لَمْ تطُل، الْتفتت نحوها، وابتسامة يائسة ارتسمت بوَجْهِهَا الذابل، اهتزَّ رَأْسُهَا ضيقًا، وتهدلت كتفاها، عادت عينها نَحْو نافذتها، تعلقت بشعاع نور هارب يتسرب داخل القاعة لامَس كفها...

- جئتِ تبحثين عَنْهُ؟ مسكين أَخْزَم صدَّق أنَّك وجدته!

تنفست بألم يسكنها، شعورها بقلة الحيلة أَكْثَر ألمًا، لتُعاود بنبرة مكسورة...

- أنتِ لَنْ تتراجعي عَنْ عنادك أَلَيْسَ كَذَلِك!

لَمْ تُحرِّ سِيًّا المُتسمِّرة عَلَى بُعد خطوات رَدًّا، مَدَّ الصمت خيوطه بَيْنَهُمَا، فعاودت زُمُرُّدة الْتفاتها، وكُلُّ مَا وجدته بعين ابنتها التحدي والرفض، فزاد خوفها عَلَيها، تخشى مِنَ القادم! زفرت بخَيْبَة واسْتَقَامَت واقفة...

- تَبًّا لَكِ رُونَا، أخذتِ عَنْهَا أسْوَأَ مَا فِيهَا، عنادَها وتصميمَها، تمرُّدَها ورفْضَها للإخفاق مَهْمَا كَانَ الوضع كارثيًّا، لَا تتراجع وإن كَانَتْ تُوقن أَن الهزيمة آتية لَا محالة، لَا تستسلم وإن كَانَ حد السيف فَوْقَ عُنُقِهَا!

- الْيَأْس.

قاطعَتها بأنفاس ضائعة وخطوات مُتخاذلة، قطَّبت زُمُرُّدة حاجبيها عَجَبًا مِمَّا قالته، لتبحَّ نبرة سِيًّا أَكْثَر وتتبدل ملامحها للانكسار...

- أَحْيَانًا لَا يكون العناد رفضًا أَوْ تَمَرُّدًا، يكون استسلامًا وإعلانًا للهزيمة!

ارتعشت أوصالها، وخطواتها الواهنة تُحَاوِل قطع المسافة بَيْنَهُمَا، تشعر أنها تزداد مَعَ كُلِّ خطوة...

- رُبَّمَا عنادي مَا هُوَ إِلَّا إعلان لهزيمتي! استسلمتُ لقدري ليُحدد مصيري كَيْفَ يَشَاء!

تزداد خطواتها الخائرة تقدمًا وتشعر أنها تزداد ابتعادًا! دموعها تنسل...

- الْيَأْس يمكنه دفْعُنا إِلَى ارتكاب كُلِّ شَيْء وأَيِّ شَيْء، حَتَّى وإن كَانَتْ حماقات تضع حد السيف فَوْقَ أعناقنا.

بدت أَن أقدامها لَمْ تعُد تحملها ودموعها الصامتة تزداد...

- العناد والتمرد صرخة يأس تشق طريقها خارجنا، وتشق بنصل بارد الحياة داخلنا، تنتزع مَعَهَا أرواحنا المتهدمة، لَمْ يعد لدي مَا أخسره! هَذَا العناد انتفاضات خائرة لطائر مذبوح، يتشبث بآخِر أنفاس حياته المُنتزعة مِنْهُ عنوة!

ابتلعت غصة تُمرِّر حلقها، وتتراجع خطوتين خائرتين...

- لذَلك فإجابة سؤالك، لَا، لَنْ أتراجع، وأَنَا أعلم جَيِّدًا أَنَّهَا نهايتي، أستسلم وأُعلن أَمَامَك هزيمتي.

رسخت قدماها بالأرض، تحولت ملامحها المنكسرة لأخرى حانقة...

- لَكِن عَلَى طريقتي، مِنْ حقي أَن أختار الطريقة الَّتي سأموت بهَا، وأَنَا اخترت التمرد، مَهْمَا كَانَتِ النِّهَايَة فسَوْفَ أَموت وأَنَا أَقف عَلَى قدمي... يا أُمِّي.

سَالَ نبض زُمُرُّدة، تسمع كلمة أمِّي لأول مرة بكُلِّ حياتها البائسة، لأول مرة تشعر تِلْك الرعشة بداخلها، رعشة قلب انتفض ليحيا مُجَدَّدًا، لَكِن أَكْثَر مَا أثار رعشات قلبها النازف، الدموع المتساقطة عَلَى وجه ابنتها، الوجع والأنين الصارخ بصوتها المهزوم، لتتقدم ودموعها سَيْل...

- خذي والدك واهربي.

انهارت كُلُّ دفاعاتها وسقطت عَلَى ركبتيها...

- والدي ذبحه سَطَام أمام عيني لأَنَّهُ حاول الدفاع عَنِّي.

جَحَظَت عين زُمُرُّدة ذهولاً، كُلُّهَا غادر الحياة، لتزداد ارتعاشات سِيَّا المتتابعة، وتفقد السيطرة عَلَى نفسها...

- قتله ولَمْ أستطع فعل شَيْء، لَا أعرف مَاذَا أصدق وَلَا بمن أثق! الجميع يتآمرون ضدي، أتخبط وسط جحيم ثائر، ظلام يركض بداخلي لَا أستطيع الصمود أمامه، لَمْ يبقَ لِي سواكِ، فَلَا تتخلَّي عَنِّي.

انتفضت واقفة تَصْرُخ بثورة عارمة، استردت زُمُرُّدة مِنْ ذهول صدمتها...

- تَبًّا لَك، لَا تتخلَّي عَنِّي مرتين يا أُمِّي!

اسْتَوَت زُمُرُّدة بوقفتها، تبدلت هَيْئَتُهَا ونبرتها لثباتٍ ورسوخ، مسحت دموع عينيها...

- أَنَا لَا أَسْتَحِقُّ العرش، الأميرة المدللة الَّتي لَمْ تربح حربًا واحدة بحياتها، أَوْ صمدت بوجه أَيِّ عَاصِفَة، كُنْت أُفضل دَوْمًا الهروب، لَوْلَا رُونَا لكنت ميتة مُنْذُ أمد، حَتَّى مَا تبقَّى مني الآنَ باقٍ بفضل تِلْك القاعة ولَيْسَ لجأشٍ بي.

اشتدت نظرتها تَمَاسُكًا بدمعة مُتحجرة...

- أُفكر كثيرًا هَلْ أَسْتَحِقُّ أَن يرزقني رب السماوات بابنة مثابرة وشجاعة مثلكِ! وأَنَا الضعيفة المستسلمة! ورَغْم كُلِّ مَا تمرِّين بِهِ اخترتِ المواجهة، رُبَّمَا يكون آصَف مُحقًّا بِبِرهَانه عَلَى صمودكِ وأكون مُخطئة لخوفي مِنْ سقوطكِ.

مسدت عَلَى شعر ابنتها بحنان...

- لَكِن مَا عَلَى المِحَكِّ أَكْبَر مِنْ أَيِّ شَيْء...

أطبقت عَلَى عُنُقِهَا وقربتها مِنْهَا بَغتة وهمست بأذنها بنبرة تحولت للنقيض كَنظراتها...

- اهربي وَلَا تعودي وإِلَّا قتلتك بيدي! اركضي بَعِيدًا بكُلِّ مَا استطعتِ، كأَنَّ الجحيم يركض خلفكِ، لِأَنَّهُ كَذَلِك، ولَنْ يَمْنَعَه عَنْك شَيْء.

ابتلعت سيَّا ريقها بنظرة رَهْبَةٍ وروع، أفلتت مِنْ قبضة يدها لَكنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَن تُفلت مِنْ سطوة نظرتها المخيفة! تَقَهْقرت خطوات مُستغربة تحوُّل أمها المُفزع! رزأَ صمت مُرْهِق عَلَى المكان والليل والزمان، وضَجَّ جحيم صارخ بداخل كلتيهما!

آبَت مِنْ غفوتها عَلَى صوت زنزانتها يُفتح، لَمْ تُحرك اختلاجة، كتمت وجعها بقلبها، لَيْسَ هَذَا وقت الحزن، بَلْ وقت الصمود، سِيَّا محقة، إن كَانَ المَوْت هُوَ نهاية الطريق، فلتمُت عَلَى قدميها، كَأسلافها.

تَيَقَّظَت غصة وَصَب بحلقها، تتذكر صرختها «**لَا تتخلَّي عَنِّي مرتين**»، كَمْ كَانَتْ أنانية لتُلقي بِهَا وسط العالم البائس المُوحش وحدها، تُحَاوِل السيطرة عَلَى مَا تبقى مِنْ صمودها الواهن، استرَدَّهَا بصوته...

- أتعتقدين لأي مدًى سيكون إخضاعها صعبًا؟

لَمْ يرفَّ لَهَا طرف، ليتلاعب بأضواء الشموع بلا مبالاة...

- وجود كلتيكما معًا يجعل الأَمْر أسهل، لَنْ تحتمل إحداكما أَن تتعذب الأُخْرَى أمامها، فأنتما عائلة.

- وأنت خير مَنْ يَعْرِف مَا تعنيه العائلة!

تَهَكَّمَت، كز أسنانه، قلب عَيْنَهُ بالفراغ، تجاوز سخريتها...

- الانتظار سلاح ذو حدين، قَدْ يدفعك نَحْو الأمل لأنَّك توقنين النتيجة المرجوة، وقَدْ يدفعك نَحْو اليَأْس لاستحالة الوصول.

تنهد بشيء يوغر صَدْره، استشعرت نبرة يأس حقيقية يُحَاوِل إخفاءها...

- اليَأْس هُوَ الانتحار بأبشع صوَره وأقبحها، لِأَنَّهُ يدفعنا إِلَى حافة العالم بثبات وثقة لنُلقي بأنفسنا ببئرٍ سحيقة بسعادة مَنْ يستقبل عيدًا مجيدًا، دُونَ أَن يَهتز لَنَا طرف.

مال نحوها بهدوءٍ ظاهري، لَكِن نبرته هَتَكَت غليانه الداخلي...

- نتشبث بحلم ونبذل فِي سبيله كُلَّ شَيْء حَتَّى أرواحنا، ونظل ننتظر يَوْمًا بَعْدَ يَوْم أن يتحقق، لتَأْتي ريح عَاصفَة تهدد إمكانية الوصول بَعْدَ طول المسير والانتظار! إِنَّهُ شعورٌ قاتلٌ باليأس مَمْزُوجٌ بالجنون منَ الصدمة، لذَلك أَنَا يَائس يا زوجتي العزيزة، يَائسٌ حد ذهابي إِلَى دَهَّام بنفسي ومُحاولة الحصول عَلَى أَحَد الأَغبياء للوصول إِلَى ابنتك، فَلَنْ أدخر طريقًا مَهْمَا كَانَ إِلَّا وسأتخذه، حَتَّى أُحقق حلمي.

- مَا زَالَ يُمْكنك الهروب.

خرج صوتها قويًّا رَغْم مَا بَدَا عَلَيْهَا منْ وهن، تَيَقَّظَ عقله يُفكر، رُبَّمَا هِيَ محقة! لَكِن أَبْعَدَ مَا تكبده منْ مُعاناة لقاء شهواته المجنونة بالسلطة يأتي الآنَ ويهرب! بَعْدَ مَا دفعه ثمنًا لسحره الأسود يَذْهَب سُدًى بهروبه خَوفًا منْ طفلة ملعونة! تراجع خطوة...

- ليتني كَانَ لديَّ حلم بديل، لَكنَّهُ حلمي الوحيد وسَوْفَ أحصل عَلَيْه.

- دَعْنَا نعقد صفقة؟

طفق يتأملها، تعتدل بجسدها الخائر فَوْقَ حشيتها، بدت مُخْتَلفة عَنْ سنواتهما الماضية! كونها تعتدل هَذَا الشَّيْء الأول؛ فلَمْ تفعلها سَابقًا! دَوْمًا مُمددة، طاعنة بالوهن لَا تَسْتَطيع حمل نفسها عَلَى رفع طرف بِهَا!

الثاني، لمعة عينها! رَغْم أَنَّهَا عادت للحياة مُنْذُ ظهور ابنتها، لَكن مَا يراه لَيْسَ لمعة فرحة، بَلْ غضب وتَمَرُّد! شَيْء لَمْ يَعْرف كُنهه! لَكنَّهُ لَمْ يشعر بارتياح بوجوده!

الثالث، زُمُرُّدة ابنة رُهَانَا ابنة سِيسِيليَا تعرض عَلَى قاتل عائلتها صفقة!! تَبًّا! مَا الَّذِي يفوته؟!

ابتعد عدة خطوات، راقَبَها تتربع وسط الحشية، وبنبرتها الهادئة زادته...

- تريد الكِتَاب ووحدي سبيل الوصول، فلنُنحِّ سِيًّا جانبًا ونتركها بَعِيدًا، وحين أطمئن أَنَّكَ ستفعل، سآتيك بِهِ.

جالت عَيْنُهُ بكُلِّ إنشٍ فِيهَا، نبرتها، نظرتها، هدوئها، جِلستها، بدت لَهُ مُتَجَذِّرة! راسخة كرسوخ عَرْش النُّور! وهَذَا يُثير حنقه، جنونه، وشكوكه!! طاف عدة خطوات داخل الحجرة، سَكَنَ لَحْظَة والْتفت نحوها...

- إنْ أَنَا فعلت فهِيَ لَنْ تفعل، إنَّهَا عنيدة كأمها، لَنْ تتخلى عَنِ انتقامها ولَنْ تتركني أفعل!

- دع هَذَا لِي.

أحجم عَنِ الرد، دارت عَيْنُهُ فِي اللاشَيْء، خلَفها وراءه ورحل.

أغمضت عينها متوجسة، قلقة، تشعر باضطرابه، شَيْء يترنح بداخله، إنه حَقًّا يَائِس! تِلْك المفارقة دعتها للابتسام بسخرية، فكلاهما يتحدث عَنِ الْيَأْس كأنه مفترس يطارده، كلاهما يخشى الآخَر، يعتقد نفسه يركض بَعِيدًا عَنْهُ لَكِنَّهُ بالحقيقة يُهَرْوِل إِلَيْهِ!

لاَ تعرف أمِنْ قَبِيل الصدفة أن تراهما بذات اليوم ويتحدثا عَنِ الْيَأْسِ كأنه صياد متوحش يتمتع بعذاب فريسته وإنهاكها، يتلذذ بصراخها وآلامها قَبْلَ أَن يَنْقَضَّ عَلَيْهَا! أَمْ مِنْ تدابير القَدَر!

هِيَ خير مَنْ يعلم أَن النِّهَايَة باتت وشيكة لَكنَّهَا كذَلك تعلم أَنَّهَا لَنْ تكون مُرضية لأحد، هربت طوال حياتها لَكِن الآنَ لَمْ يعد هُنَاك سبيل سِوَى المواجهة، إجبارًا لَا اختيارًا!



«قِراءة البِدَايَات بِشكلٍ صَحِيح تَختصَر الكَثِير مِنْ تَوقُّع فَشل النِّهَايَات، لَكِنَّهُ لَا يُخفف شَيْئًا مِنْ أَلمها»

تِيَّام

فَاءت عَن غفوتها برُكنها القصي بِطَرَف القاعة، تُحَاوِل تهدئة أنفاسها وتجاوُز لحظاتها الماضية مَعَ أمها، زفرت بخيبة أمل فلَمْ يعُد هُنَاك سبيل أمامها سِوَى أَن تجد طريقها بمفردها! تبسمت بسخرية عِنْدَ هَذِهِ النقطة «**أَوَلَمْ تكن دَائمًا وحدها؟! تريدها أَن تهرب، لَا تريد أَن تفهم أن لا مجال للتراجع**»، فكرة واحدة تُومض فِي رَأْسهَا كبرق خاطف صَهَر كُلّ مَا حَوْلَهُ وتركها تتوهج وحدها بالمنتصف «**لِمَاذَا تُصر أمها عَلَى هروبها؟**» لِمَاذَا عارضت انتقالها بصرامة؟! الأَمْر لَا يتعلق بخوفها عَلَيْهَا فَقَطْ، هُنَاك شَيْء تُخفيه! شَيْء يتعلق بوجودها عَلَى السَّدِيم! والآنَ حَانَ وقت معرفته!

خرجت مَعَ دَلشيَّر مِنَ القاعة دُونَ كلمة، ولَمْ يُحَاوِل أحدٌ سؤالها عَمَّا دار بَيْنَهَا وبَيْنَ أمها، فوجْهُها كفيل بأن يُعلن حنقها، خَاصَّة آصَف خير مَنْ يعلم أَن زُمُرُّدة لَنْ تتخلى عَنِ الكِتَاب، لَنْ تخون قسمها لحمايته!

وصلت حَيْثُ وجهتها، قبو الخضوع الخاص بالملك، تحوطه حراسة كثيرة، تركت دَلشيَّر مُختبئًا بمكان قريب وانتقلت إِلَى الداخل، نَبَشَت المكان حَتَّى وجدت مَا جَاءَتْ مِنْ أجله!

لمحت سلاسل الخضوع مُعلقة فَوْقَ حائط مقابل لَهَا، انساقت نحوها، شَيْء خَفِيٌّ يُرغمها على الاقتراب، يجذبها نَحْو أَكْثَر شَيْء أمَرها آصَف بالابتعاد عَنْهُ! وعيون مختبئة بزاوية فِي الظلام تُراقبها!

عادت مِنْ حَيْثُ وجدت إجابة أسئلتها! رَغْم أَن الحصول عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ سهلًا، وقَدْ أرهقها وامتص الكثير مِنْ قواها، لَكِن مَا وصلت إِلَيْهِ يَسْتَحِقُّ!

اتَّخَذَت مكانًا قصيًّا عَنِ الأعين، أطلقت حاجز الصمت واحتجزت نفْسها داخله! طفقت تَصْرُخ وتصرخ حَتَّى خرَّت عَلَى ركبتيها مِنَ التعب، تَكوَّرت عَلَى نفسها كجنين ببطن أمه.

يقف دَلشيَّر بَعِيدًا لَا يسمع شَيْئًا، لَكِنَّهُ رأى! المرة الأولى الَّتي يرى غشاوتها البيضاء تسْتَأْثِرُها، لَمْ يرَ شيطانها يستحوذها سَابِقًا، حَتَّى لَيْلَة أنقذها لَمْ تَكُنْ بِهَذَا الجنوح، وحمدًا لله أَنَّهَا احتجزت نفْسها داخل حاجز الصمت، فَلَا يَعْرِف إن كَانَ اهتاج شيطانها دُونَ حاجز بَيْنَهُمَا، مَاذَا كَانَتْ لتفعل بِهِ! فبدت لَهُ خارج أَيِّ سيطرة!

لَكِن السُّؤَال الَّذي أرَّقه مَا الَّذي وجدَته بالقبو جعلها عَلَى تِلْك الحالة! وحش كاسر! اعْتَقَدَ سَابِقًا أَنْ لَا أَحَد يُضاهي سَطَام فِي نوبات سخطه، لَكِنَّهُ اكتشف اليوم أَن نوبات قائده الراحل لَا شَيْء بجوار مَا رآه مِنْهَا!

باليوم التالي أخضعوها لسلاسل الخضوع حَسَبَ الاتفاق، والَّذي حضره الملك وأخوه وزوجته وابنتاه، وكَال الَّذِي زفر بحُبُور حِيْن خرَّت أَرْضًا عِنْدَمَا قيدوا وثاقها بالسلاسل، وهدأت مخاوفه مِنْ ناحية قواها، كالكهنة الَّذِين تبادلوا نظرات الارْتِيَاح مَعَ قادة الجيش والحرس.

مشهد فطر قلوب رُونَا وآصَف، وعائلتها جَمِيعًا، وهُمْ ملتفُّون حَوْلَهَا فِي دائرة يحملون أسلحتهم داخل القاعة المحرمة، مُتحفزين لأي خطوة مِنْ أَحَد، فرُونَا تخشى أَن يكون فخًّا لقتلها، غادرت مِيلًا القاعة غاضبة!

حملها رَيَّان فاقدة الوعي إِلَى جناحهم والجميع يتبادلون نظرات الضِّيق والسخط والغيظ، خَاصَّة رَحِيل ودَلشيَّر.

* * *

يحَاوِل رَيَّان مُلاطفتها لعله يُزيل هَذَا التوتر، تعلم أَنْ لَا شَيْء بَيْنَهُمَا لَكنها ظلت تتجاهله لِأَنَّهَا تخشى عَلَيْهِ وتخشى القادم، وما حدث كان حُجة كافية لتتخذها ذريعة لإبقائه بعيدًا، تحبه والحب ضعف، الحب خوف، وهي فِي وضع أجبرها أن تحيد عن كليهما، لن تحتمل أن يمسه مكروه، لتتألم بجفائه وهو أمام ناظريها على أن تحترق بجحيم فقْده إن مسَّه سُوء، والأشنع أن تكون سببًا فيه!

وهَذَا الجفاء بينهما كَانَ يؤلمه كَمَا يعتصرها، لَكِن مَا كاد يقتله حَقًّا، قُربُ دَلشيَّر الزائد مِنْهَا، والَّذِي لَمْ يَكُنْ يُفَارق كتفها خَاصَّة حِيْن تُغادر القاعة.

تُولَاي تسعى للانفراد بِهِ لعلها تظفر بشيء عَنْ مُخططاتهم، لَكِنَّهُ تَهرَّب مِنْهَا، فَهُوَ لَا يريد أَن يَزيد الأمور سَوْءًا، مَا كَانَ يجمعه بِهَا اعتقده فِي الماضي حُبا، لَكِنَّهُ حينما قابل سيَّا عرف مَا يعنيه الحُبُّ حَقًّا، حين عرف الخوف مِنَ الفَقَد وهُوَ مَنْ لَمْ يحزن يَوْمًا عَلَى فَقْد أَحَد. عندمَا تخشى فراق أحد وتَتأَلم لِمُجرَّد التَّفكير فِي ابتعَاده عَنْك فاعْلَمْ أَنَّك غَارق بحبِّه، حَتَّى تُولَايٍ حِيْن أبدى الملك رفْضه لعلاقتهما، وألمح مرة واحدة لِهَذَا الشأن، رحل ولمْ يعُد، بَيْنَمَا الآنَ يهدم العالم بأَسْره إن ابتعدت سِيَّا عَنْهُ خطوة واحدة، وسيقتلع رَأْسَ هَذَا السمج الَّذِي يقف مَعَهَا بتِلْك اللحظة.

يقف دَلشيَّر مَعَهَا قرب النافذة يتحدثان بصوت منخفض ويَبْدُو عَلَيها الاهْتِمَام البالغ، اندفع نحوها بغيظ، فَلَمْ يعُد يَسْتَطِيع السيطرة عَلَى غيرته أَكْثَر...

– يجب أَن نتحدث؟

– لَيْسَ الآنَ.

الْتفت نَحْو دَلشيَّر بنظرة مشتعلة، ويُشِيرُ بيده أَن يتركهما، أومأت إيجابًا، اقْتَرَبَ مِنْهَا خطوة، أَبْحَر النظر بعينها، فاهتز نبضها لكنها حاولت إحكامه بين ضلوعها، وبنبرة عاشق آلمه الحنين والاشتياق...

– اشتقت إِلَيْكَ كثيرًا.

اعتصرت أنفاسَها شوقًا ونبضَها هربًا، تَمنت لَو صَرخت «**لا تُفلت يدي فإني أُحبُّك، وأحتَاج إِلَيْكَ الآنَ أَكْثَر مِن أي وقت مضى!**» نحَّت عينيها بعيدًا، حاولت التملص منه، ليُطبق على ذراعيها...

– أقسم لَكَ لَيْسَ بَيْنَنَا شَيْء، وما كَانَ بالماضي لَيْسَ سِوَى صداقة.

– أعرف، وأصدقك.

تهدجت بنبرة اهتزت حنينًا، فالْتفتت هاربة، وخلَّفته وراءها مذهولًا، وقفت بمُنتَصَف القاعة، تَحرَّك خلفها، إن كَانَتْ تصدقه فَلِمَاذا تتجاهله! حبها سيقوده يومًا نحو الجنون لكن ما فائدة العقل إن لم تكن معه؟!

فُتحت القاعة وظهرت تُولَاي، تَجَمَّدَ، دَخَلَتْ ومِنْ خلفها بَعْض وصيفاتها يحملن الملابس الَّتِي وضعْنها فَوْقَ الأَسِرَّة وانصرفْن، زادت ابتسامتها الباردة لسِيًّا وهي تنقل عينها بَيْنَهُمْ...

- قرر الملك إقامة حفل عيد مِيلًا مرة أُخْرَى، وسَوْفَ يستدعي الأمراء وملوك تَلِيد رُيُّوف ودَرَّيا لتتحدثي إِلَيْهِم كَمَا أردتِ.

اتكأت سِيًّا إِلَى الكرسي بابتسامة رضًا، أشارت الأُخْرَى نَحْو الثياب فَوْقَ الأسِرَّة...

- أمرتُ بتجهيز تِلْك الثياب لكم مِنْ أجل الحفل.

تقدمت نَحْو السرير، وأبدت نظرة باردة، تستطرد...

- وهَذَا شعر مستعار ليناسب ثوب أميرة وشكل أميرة، صدقيني شكلك يروق لي، لَكِن فِي مجتمع الأميرات والملوك لَنْ يرضى عَنْهُ مَنْ تبحثين عَنْ دعمهم.

أمالت رَأْسَهَا متفهمة، لتنتقل تُولَاي نَحْو السرير الآخر وتُشِيرَ للرجال...

- تِلْك بدل رسمية لحضور الحفل ستناسبكم، السوداء لَكَ يا رَيَّان لونك المفضل، وقياسك المناسب فَلَمْ أنسَه يَوْمًا.

غمزت لَهُ بِطَرْف عينها، أومأ دُونَ النظر نحوها، بَيْنَمَا تَعجَّب الجميع وازدادت ابتسامة سِيًّا وهِيَ تُثني عَلَى ذوقها باختيار الألوان والملابس، وكونها كلفت نفسها عناء الاهْتِمَام بالحفل والملابس.

غادرت تُولَاي القاعة، ظَلَّ جميعهم ينقلون النظرات المتعجبة نَحْو رَيَّان الَّذِي كاد يختنق وهُوَ يسبها بَيْنَ جنبات عقله «**الغبية تُفسد كُلَّ شَيْء**».

- لِمَاذَا كذبتِ؟

الْتفتت سِيًّا مُتفاجئةً نَحْو الصوت الَّذِي أتى مِنْ خلفها، ليستردها مِنْ جُب أفكارها السحيق، ويسترد عينها الغارقة داخل عين كَامِي، والَّذِي أَصْبَحَ مكانها المفضل، اعتدلت بوقفتها فَوْقَ حافة العين بِعَدَمِ فهمٍ للسؤال، لتتقدم مِيلَّا خطوتين وتصعد عَلَى حافة العين مقابلها...

- أعرف الْحَقِيقَة، فلِمَاذَا كذبتِ؟!

تَبسَّمَت مِنْ طرف ثغرها، فهِيَ تعلم أَنَّهَا تعرف، وتوقعت السُّؤَال عاجلًا أَوْ آجلًا! زادت خطوتين متأنيتين، رمتها بنظرة حانية مبتسمة...

- كوننا نُبقي بَعْض الحقائق مُختبئة لَا يَعْنِي أننا نكذب، لنقُل إنني احتفظتُ بِجزءٍ مِنَ الْحَقِيقَة لنفسي.

اضطربت نظرة مِيلَّا، فبادلتها أُخْرَى مُشجعة، فتعلم كُلَّ اختلاجة تدور بداخلها، توقفتا، والْتفتت سِيًّا نحوها، تُحرك يدها...

- لنقُل إن بَعْض الحقائق تكون مُخيفة بالقدر الَّذِي يدفع الْآخَرِين لاتخاذ قرارات خاطئة بشأنها، ولذلك فمِنَ الأفضل أن نُبقيها حَيْثُ هِيَ، مدفونة بَعِيدًا عَنِ الجميع.

- لَكِن رُبَّمَا ذَلِك الجزء مِنَ الْحَقِيقَة الْمُخبأة يُعطيكِ الأفضلية عَلَى الجميع؟

عقدت مِيلَّا ساعديها بنظرة مُحتدة، ابتسمت سِيًّا بِأَنَّهَا تتفهم، وتعقد ساعديها هِيَ الأُخْرَى وتتساءل باهتمام...

- هَلْ تعرفين مَا أَكْثَر شَيْء يثير خوف البشر وفزعهم؟

حركت كتفيها بِأَنَّهَا لَا تعلم، لتُشير لَهَا أَن تُحَاوِل التخمين، لترفع حاجبها...

- رُبَّمَا المَوْت؟

- المَوْت لَا يخيف، هُوَ الحَقِيقَة المؤكدة الَّتِي يعرفها البشر.

- مَا الَّذِي تعتقدين أَنَّهُ يخيفهم أَكْثَر مِنَ المَوْت!

- مَا لَا يستطيعون السيطرة عَلَيْه، أَيُّ شَيْء لَا يمكنهم إحكام خيوطه تَحْتَ أيديهم يُثير رعبهم، لَا يخافون إلَّا الأَشْيَاء الَّتِي لَا يستطيعون الهَيْمَنَة عَلَيْهَا!

أحكمت سيًّا كفيها بجيبها، تنظر نَحْو الماء لِلَحْظَة ثمَّ تعاود النظر نَحْو الواقفة ترقُبها باهتمام، أَضَافَت...

- حَتَّى أفكارهم حِيْن تخرج عَنِ السيطرة، ينعتون ذَلِك بالجنون، لَيْسُوا لأنهم فقدوا عقلهم، فالعقل لَيْسَ شَيْئًا يُمْكنك إضاعته، لَكِنَّهُ يُستنزف مِنَ القيود والأعباء، أَيُّ شَيْء يخرج عَنْ سيطرتنا نخشاه، نهابه حد الفزع، حد أَن ندفع بأنفسنا إِلَى الهاوية، لأننا لَمْ نستطع إحكام أيدينا عَلَيْه.

تراجعت خطوة ووثبت عَنِ الحافة، فرَدَت ذراعيها فِي الهواء بابتسامة ماكرة...

- دعيهم يتمتعوا بقوتهم ويمارسوا سلطتهم، بأنهم المتحكم وأن كُلَّ شَيْء يقبع تَحْتَ سيطرتهم، هَذَا يجعل الأمور أسهل يا صديقتي.

أنهتها بغمزة مِنْ عينها، والْتفتت راحلة لترميها مِيلًا بسؤال...

- أَلَا تخشين أَن أخبر أحدًا؟

أغمضت عينها وتنفست بعمق، ثمَّ وضعت كلتا يَدَيْهَا بجيبها مُجَدَّدًا، وسحبت نفَسًا عَمِيقًا دُونَ أن تلتفت...

- إن كُنْتِ تريدين كنتِ فعلتِ! وما كُنَّا نُجري هَذَا الحديث الشيق.

الْتفتت إِلَيْهَا ومَا زَالَتْ عَلَى نظرتها وابتسامتها...

- كلتانا تَعْرف أنَّكِ لَنْ تفعلي، لأنَّك تَعرفين جَيِّدًا أنني لَنْ أوذيكِ أَوْ أوذيَ أَيَّ أَحَد بريء يا مِيلَّا.

تبسمت مِيلَّا، واجتاحها شعور غريب بالارتياح.

بمساء اليوم التالي وصل الضيوف قَبْلَ موعد بدء الحفل، تطاير خبر تواجدها في كُلِّ الممالك، والجميع مُتلهف لرؤية آخر دماء النُّور، آخر الملكات، مَنْ هزت عَرْش الظلام، واستدعت جيشًا مِنَ الموتى، كُلٌّ مِنْهُمْ رسم بذهنه صورة خَاصَّة عَنْهَا.

دلف الملك إِلَى القاعة والملكة وخلفهما تُولَاي وأخوه وكاهنه، ثمَّ تبعهم قادة الجيش والحرس، بحثت الملكة عَنْ مِيلَّا صاحبة الحفل لَكِنَّهَا لَمْ تجدها!

جَلَسَ ملوك دَرَّيا رُيُّوف وتَليد بذات الطاولة الَّتِي يجلس إِلَيْهَا سِنِمَّار، تلْك زيارتهم الأولى إِلَى دَهَّام، ورَغْم قلقهم وترددهم في تَلْبِيَة الدعوة - لَيْسَ فَقَطْ لكونها مملكة السحر الأسود، لَكِن لكون الهجين مَنْ طلبَت الاجتماع بهم!- لكنهم أَيْضًا لَا ينكرون فرحتهم بِمَا فعلَته حَتَّى الآنَ، وتردُّدهم بقبول الدعوة كان خَوفًا مِنْ زَارَا وغضبه حِيْن يعلم، إِلَّا أَن أوامر زَارَا نفسه بتلبيتها كَانَتْ صارمة!!!

بدأت الفرقة الموسيقية بالعزف، وكادت تضج القاعة بالمدعوين الَّذِينَ تَفَرَّقُوا داخلها يلهون وقتهم بَيْنَ الرقص وتبادُل الأحاديث المتحمسة عَنْ شكلها ولبسها.

فُتح باب القاعة، أُعلن دخول الأميرة مِيلَّا صاحبة الحفل، وإن كَانَ بشكل صوري، والَّتِي فغر الجميع أفواههم لرؤيتها، انتفضت أمها واقفة، وكادت تُولَاي تُجن وذُهل الملك لمرآها!

خَطَت إِلَى القاعة ترتدي ملابس تكاد تكون نُسخة مُطابقة مِنْ ملابس سِيَّا الَّتِي حضرت بِهَا! بنطالًا أسود وقميصًا سماويًّا وسترة سوداء بغطاء للرأس، لَكِنْ مَا كاد يوقف قلب أمها أَنَّهَا كَانَتْ حليقة الرأس!

مَا جعل الصمت يُطوق القاعة الصاخبة، وزاده إطباقًا دخولُ بَعْض الأميرات الصغيرات مِنْ بنات الأمراء خلفها بنفس المظهر، واللاتي قابلْنها عدة مرات بردهات القصر والمكتبة، وفُتِنَّ بِهَا!

وقفت أمام طاولة والدها تنحني لَهُ، والَّذِي لَمْ ينطق حرفًا، وتبتسم لأمها الَّتِي ألجمتها الصدمة، رَغْم معرفتها كَم ابنتها مفتونة بمَنْ هزت عَرْش الظلام، حَتَّى قَبْلَ أَن تلتقيها، لَكِن لَمْ تعتقد أَن تصل إِلَى هَذَا الحد.

اندفعت تُولَاي تُعنفها، وهِيَ تُحَاوِل السيطرة عَلَى مظهرها الهادئ...

- مَا تِلْك الحماقة الَّتِي فعلتِها بنفسك؟

- يعجبني مظهري، أَنَا أرتدي كملكة السَّدِيم.

رَفعت تُولَاي حاجبها بغيظ، بَيْنَمَا ذُهل الملك، ورحل عقله بشيء لَمْ يفكر به مُسْبَقًا! أَلَها هَذَا التأثير الكاسح! حَتَّى إِن ابنته هُوَ تتشبه بِهَا؟! رمتها تُوَلَاي بنظرة شماتة واضحة...

- تلْك الَّتِي تتشبهِين بِهَا ستدخل مِنْ ذَاكَ الباب وهِيَ ترتدي ثوب أَميرة وتغطي رَأْسَهَا الحليق، ستلبس مَا اخترتُه لَهَا وما أردتُه أَنَا، وحدَك وهَؤُلاء الصغيرات ستظلَلْن أضحوكة الحفل.

اتَّخَذَت مجلسها بجوار والدها، دُونَ أَن تُلقي لأختها بالًا ولَا تهتم.

فُتح الباب مُجَدَّدًا وأُعلن وصول آخِر ملكات السَّدِيم، سليلة عَرْش النُّور، وحفيدة الملكة سِيسِيليَا صاحبة عَهْد الدم، ومُرافقيها.

توجهت كُلُّ العيون المتلهفة نَحْو باب القاعة الَّذِي فُتح عَلَى مصراعيه، لتدخل برَأْسٍ مرفوع وعيون ثابتة، آصَف عَنْ يمينها ووراءه رَحِيل، ورُونَا عَنْ يسارها وخلفها دَلِين، وفِي عقبهم رَيَّان ودَلشيَّر، تَقدَّمَت بخطًى راسخة لَا تلتفت لأحد.

تسمع الهمسات السارية بَيْنَهُمْ، وبعقولهم، صُدموا لكونها صغيرة السِّنِّ إلَى هَذَا الحد وَلَيْسَتْ قوية البنيان كَرسمها فِي مخيلتهم، حَتَّى مظهرها لَيْسَ ملكيًّا بهَذَا الرأس الحليق والملابس الَّتِي لَمْ يعرفوا كُنهها، ومَا يُمْكِنُ إطلاقه عَلَيْهَا بِالتَّحْدِيدِ «**متواضعة**» أَوْ «**حقيرة**» أَكْثَر قربًا لنظرتهم المُتعالية والمُفخمة للمظاهر والشكليات، لَكِن جميعهم اتفقوا عَلَى أَن بِهَا شَيْئًا أثار قلقهم وتوجُّسهم، ورُبَّمَا خوفهم!

وصلت مُنتَصَف القاعة، التقت عينها بعين مِيلًا، رفعت حاجبها ذهولًا كوْنَها تُحاكيها بكُلِّ شَيْء، وازدادت صدمتها حِيْن لفت انتباهها باقي الفتيات اللاتي قابلتهن مرات عابرة فِي ردهات القصر، لتهتف رَحِيل بصدمة...

- إنهن نُسَخ مصغرة منْك؟

- لَدَيْنَا مهوسون صغار هُنَا!

أكملت دَلِين بنبرة تحمل الدهشة والسعادة والإعجاب.

بادلتها ميلًّا ابتسامة واسعة، يكاد قلبها يقف فرحًا، لَا تُصدق أَنَّهَا ظهرت عَلَى طَبيعَتهَا دُونَ أَن تكترث لأحد، لَمْ تتجمل أَوْ تُحَاول أَن تستجدي رضاهم، زادت غبطتها وشعرت بنصر قوي عَلَى أختها خَاصَّة وعَلَى الجَمِيع عامة، وازدادت نظرتها لَهَا احترامًا وإجلالًا، أثبتت أَنَّهَا تستحق أَن تكون مَثَلها الأعلى، فترنو أَن تكون يَوْمًا مثلها، لَمْ يعد يُخامرها شَكٌّ واحد تجاهها.

بينما وجه تُولَاي يقفز منه الغيظ، وهِيَ تراها بذات الهيئة لَمْ تغيِّر ملابسها ولَمْ تضع الشعر المستعار، جميعهم لَمْ يفعلوا، بَلْ ظلوا كَمَا أتوا، حَتَّى رَيَّان، بَلْ ويتهرب مِنْهَا، لَكِن أَكْثَر مَا أثار حفيظتها وغيظها، أَن تراه لَا يُفارق ظلها.

وقف آصَف مَعَ كَال وانضم إِلَيْهما شَاتَاي، بَيْنَمَا رُونَا وقفت وسط الملوك الأربعة يتبادلون حديثًا خاصًّا، ورَيَّان جذبته بَعْضُ أيادي أقارب والدته فابتعد عَنْهَا مُرْغَمًا.

دَلشيَّر يقف بجوارها، تقدمت رَحِيل خطوتين ووضعت يدها عَلَى كتف سِيًّا، وانحنت عَلَى أذنها بنبرة جادة...

- أَلَا يجب أَن نطلب إِلَيْهِم إحضار مَنْ يطفئون الحرائق هُنَا؟

- لِمَاذَا؟

تساءلت دَلِين بتعجب...

- أَلَا ترين وجه تُولَاي؟ إِنَّهَا حتمًا ستشتعل الآنَ.

كتموا ضحكاتهم، لتعقد رَحِيل يَدَيْهَا...

- أُقسم لَوْ كَانَ أَيٌّ مِنْكُمْ ارتَدى ملابس المهرجين الَّتِي أتت بِهَا البومة لكنتُ اقتلعت رَأْسَه.

زادت ضحكاتهم المكتومة، لتضع دَلِين يدها عَلَى الكتف الأخرى لسِيًّا بنبرة قلقة...

- تِلْك الفتاة تُولَاي، لَا تروق لِي.

هتفت رَحِيل...

- أتفق مَعَكِ تَمَامًا بِهَذَا.

- لَكِنَّهَا تروق لِي.

همست سِيًّا بنبرة لَمْ تفهماها، لكنهما تبادلتا نظرات التعجب، اعتقدتا أَنَّهَا أَكْثَر مَنْ يكرهها بَعْدَمَا عرفوا بعلاقتها السابقة برَيَّان، لتسترسل دَلِين...

- انتبهي مِنْهَا، أَنَا لَا أثق بِهَا.

- لَا تستبِقي الأَحْدَاث.

- رُبَّمَا تروق لَكِ، لَكِن هَذَا لَا يجعلها تأخذ ثقتك!

اغتاظت رَحِيل، لتلتفت سِيًّا نحوهم وباتوا بدائرة رباعية...

- دعيني أخبرك سِرًّا يا صديقتي، أَنَا لَا أثق بأحد، أَيِّ أَحَد.

- ولَا حَتَّى نَحْنُ؟!!

هتفت رَحِيل بصدمة، لتضع سِيًّا كلتا يَدَيْهَا عَلَى كتف كلتيهما...

- أَنْتُمْ لَسْتم كأي أَحَد يا حمقاء، كُلٌّ مِنَا قدم للآخر أَكْثَر مِنْ ثقته، ماضيه، حاضره، مستقبله، دماؤه، وحياته... نَحْنُ عائلة.

ثبتت عينها بعين دَلشيَّر «**جميعنا عائلة**»، تبسم امْتِنانًا وغلبه شعور بالارتياح، إنَّهَا حَقًّا تُفاجئه، رَغْم ماضيه تعتبره عائلتها! أطبقت دَلِين عَلَى كتفه تؤكد لَهُ مَا وصله مِنْ حديثها، وكَذَلك رَحِيل، رحل القلق واحتلت السكينة قلوبهم، فغمزت رَحِيل دَلشيَّر بنبرة مُشَاكَسَة...

- تَبًّا لهؤلاء النسوة! كَيْفَ سنُفرق الأمهات مِنْ بناتهن؟! فجميعهن يبدون بذات العمر، أَلَا ترى أَن جميعهن جميلات يا دَلشيَّر؟ كَيْفَ يفعلْن ذَلك؟

ابتسم دُونَ أَن يعلم بماذا يجيب، عَيْنُهُ تعلقت بدَلِين فابتسمت وتولت عَنْهُ الرد...

- إنَّهُ السحر يا مزعجة يحافظ عَلَى الشباب، بَعْدَ أَن يُتمم الشخص واحدًا وعشرين عامًا لنقُل إن مظهره يتقدم ببطء كسلحفاة، بَيْنَمَا سنواته تظل عَلَى معدلها المعتاد.
- هَذَا يَعْنِي أَن جَمِيع مَنْ بالقاعة كبار بالسن؟
- الأغلبية نَعَمْ.

تساءلت سِيًّا فأجابت دَلِين، لتعقد رَحِيل ذراعيها وتتلبسها نظرة المحقق...

- لَكِن البعض يَبْدُو هرمًا؟
- إما أنهم يتخطون المئات، وإما أنهم يستخدمون سحرهم بكثرة.

أجاب دَلشيَّر، لترفع سِيًّا ورَحِيل حواجبهما استغرابًا، وتتساءل سِيًّا بَعْدَ تَمَالُك ذهولها...

- مئات؟!!

هزت دَلِين رَأْسَهَا، وقَدْ راقتها صدمتهما، وازدادت مشاغبتها، تغمزهما...

- كلتاكما هجين ووُلدتُما بالأرض، بالنسبة لأعمار الموجودين داخل تِلْك القاعة أنصحكما بالجلوس إِلَى جانب مِيلًا وأصدقائها الصغار.

عقدت رَحِيل ساعديها واحمرت وجنتاها غيظًا، وعينها تنذر بعاصفة قادمة، لتنفجر سِيًّا ودَلشيًّر ضحكًا، بَيْنَمَا تُحَاوِل دَلِين أن تبتعد عَنْ مرمى النيران، وتلحقها رَحِيل الَّتِي ستقتلع عُنُقَهَا.

اقْتَرَبَتْ تُولَاي والملكة منْها، وبيدهما كأسان لَهُمَا، فالجميع بيده كؤوس إلَّا هُما، أَمْسَكَت سِيًّا عَن الضحك بَغتةً! وصلتا إِلَيْهَا، وقَبْلَ أن تَفُوهَا بشَيْء أوقفَتهما بإشارة منْ يدها، تبادلتا نظرات الاستغراب، بَيْنَمَا ازداد قلق دَلشيًّر، أغمضت عينها للَحْظَة طَالَتْ، حاولت تُولَاي قول شَيْء، وتمد الكأس نحوها، أوقفتها يد دَلشيًّر منْ جديد، كَانَتْ دَلِين ورَحِيل عادتا، وتَملَّكهما الذهول الَّذِي حط عَلَى الجَمِيع.

أطبقت سِيًّا يدها فَوْقَ كتف دَلشيًّر، ومَا زَالَتْ مغمضة العيون وهمست بشيء داخل عقله، ليسحب سيفه، توقفت الموسيقى وأطبق الصمت بقوة، سَكَنَ الجميع عَنِ الحركة، تحفز الحراس، الْتفت العيون حَوْلَهَما، بلَحْظَة كَانَ رَيَّان بجوارها ورُونَا خلف ظهرها، أيديهما تُطبق عَلَى سيوفهما، كَدَلِين ورَحِيل، ظَلَّ آصَف بجوار كَال وشَاتَاي!

عم سكون صارخ قَبْلَ أَن تفتح عينها فجأة ويختفي كلاهما مِنْ وسط القاعة!

ثار فزع الجميع، فهُم داخل القاعة المحرمة واستخدمت سحرها! وكذَلك حارسها! انتفض الملوك واقفين يتلفتون حولهم، الجميع يتساءل أَيْنَ اختفيا وكَيْفَ!

وقف سِنِمَّار أمام طاولته يُحَاوِل استشعار وجودها داخل حصنه دُونَ أمل...

- لَوْ كُنْت مكانك مَا ارتشفت قطرة واحدة مِنْ هَذِهِ الكأس.

تَجَمَّدَ سِنِمَّار وصوتها يأتيه مِنْ جانبه ويدها تُمسك الكأس الَّتِي يُمسكها! اهتزت يده المُطْبِقة فَوْقَ كأسه، نظرت نَحْو الملوك الثلاثة...

- وأنتم أَيْضًا.

ارتعشت أيديهم، وتركوا الكؤوس فَوْقَ الطاولة، سحبت سِيًّا كأس سنِمَّار، أغمضت عينها وفتحتها فظهر دَلشيَّر أمامها ويده تُطْبق عَلَى أَحَد الحرس يضع خنجرًا فَوْقَ عُنُقِه!

تراجع الجميع خطوات، اقْتَرَبَتْ سِيًّا ووضعت الكأس أمام الحارس المذعور...

- الملك يُهديك كأسه!

لبث مُقَيَّدًا فِي مكانه، رشقته بنظرة غاضبة كنبرتها، فهز رَأْسَه رفضًا، وقَدِ ازدادت مقاومته ليد دَلشيَّر، يُحَاوِل الهرب، تَقَدَّمَ شَاتَاي يَصْرُخ بالحرس أَن يقبضوا عَلَيْه، أَرَادَت الحديث مَعَهُ لَكنه نهرها بنبرة ساخطة بأن تِلْك أمور المملكة الداخلية ولَا شَأْن لَهَا، قَذَفَت خنجره الموثوق بجانبه بنظرة خاطفة وقَذَفَته بابتسامة باهتة، انحنت إِطَاعَةً لأوامره!

أخذه الحرس، واختفت هِيَ منَ القاعة دُونَ كلمة، مَا أثار حفيظة الجميع، فَلَمْ تُقم لأحد وزنًا وهُمُ الأمراء والملوك وهِيَ مُجَرَّد هجين وضيعة!

وصل الحرس بالسجين إلَى أسْفَل السلم المؤدي إلَى السجن بقبو القصر، صَلَد الحرس المسكون به، حِيْن ظهرت أمامهم منَ العَدَم، لَمْ يَجْرُؤ أَحَدُهُمْ عَلَى طرفة عين، أرعبهم ظهورها عَلَى حيْن غرة، ورَغْم أنهم مملكة السحر الأسود لَكِن هَذَا تَحْدِيدًا أَكْثَر مَا أثار فزعهم، أَنَّهَا تستخدم سحرها داخل قصر يُورَان المحصن ضِدَّ سحرهم هُمْ أنفسهم، واستخدمته مِرَارًا داخل القاعة المحرمة عَلَى مرأى مِنْهُمْ جَمِيعًا!

أطبقت يدها عَلَى عُنق المقيد وأغمضت عينها وسبحت داخل ذكرياته، ولَمْ يُحَاول أَحَدُهُمْ منْعها أَو التلفظ بكلمة، هُنيهة وتركت الحارس بَعْدَمَا رأت مَا أرادته، غمزت الحرس بطَرْف عينها، تُشير لَهُم بعَدَم التفوُّه بشيء، واختفت، لَحْظَات ووصل شَاتَاي خلفهم، لَمْ يخبره أَحَد بحرف عَمَّا حَدَث، دخل إلَى الزنزانة وأمر الجميع بالخروج!

يقفون مُتحلقين داخل القاعة الَّتِي تَمَّ إخلاؤها منَ الجميع، لَمْ يبقَ سوَى الملوك، ومعهم كَال وآصَف ورُونَا، الاستياء والضِّيق يَعُمَّان الوجوه، تأكد كَال والكهنة الآخَرون كون الشراب مسمومًا!

مُحَاوَلة اغتيال جماعية لَهُم، هِيَ الأكبر مُنْذُ اغتيال ملكات النُّور، لَكِنَّهَا أهاجت عواصف الذعر بداخلهم، الآنَ علموا لِمَاذَا أصر زَارَا عَلَى حضورهم!

ظهرت فجأة بجوار كرسي العرش، وبجانبها دَلشيَّر، سكنتهم نظرات القلق والغيظ والدهشة.

عقدت ساعديها بنظرة تشي بشماتة أَوْ رُبَّمَا نظرة تخبرهم كون هَذَا مصيرهم المحتوم، لَكن هَذَا لَمْ يمنع نظرات الضِّيق والاستياء الَّتي صوبوها نحوها، ورَغْم أَنَّهَا أنقذت حياتهم مُنْذُ دقائق معدودة لَكن لَا أَحَد منْهُمْ تَرَدَّدَ فِي إظهار امتعاضه منَ اختفائها وظهورها بتلْك الطريقة الَّتي تخبرهم أنهم لَا شَيْء، وظهور حارسهَا فِي اجتماع سري!

آصَف لَيْسَ راضيًا تَمَامًا عَمَّا تفعل، رُبَّمَا أمرها بإظهار قوتها لَكن لَيْسَ إلَى هَذَا الحد، رُونَا تُحَاوِل تدارُك حنقها منْ تصرفاتها الطائشة.

لَحْظَات وفُتح الباب ودخل شَاتَاي، جَلَسَ دُونَ كلمة إلَى كرسيه، خَصَّته سيًّا بنظرة باردة وابتسامة باهتة لَمْ يكترث لَهَا، ولَا لوجود دَلشيَّر الَّذي لَوْ كَانَ بأَيِّ وقت آخَر لرماه، لَيْسَ خارج القاعة فَقَطْ بَلْ خارج الحياة بأكملها، لَكنَّهُ الآنَ لَدَيْه كارثة أحق باهتياجه المحموم الَّذي يُحَاوِل السيطرة عَلَيْه!

وقفت أمام عَرْش سنمَّار يدها تُداعب نقوش اللهب البديعة الَّتي تُزينه، والقوسين المتعاكسين اللَّذين يُمثلان ظهره، ومرت بأناملها فَوْقَ السهمين الضخمين المصوَّبين للأَمام اللَّذين يُمثلان ساعديه، الْتفتت نحوهم وجلست إلَيْه بهدوء باغت الجميع، استغربوا فعلها إلَّا سنمَّار الَّذي قرأ الرسالة جَيِّدًا.

تنقُل عينها بَيْنَهُمْ، ترى بداخلهمْ أَكْثَر ممَّا يَرَوْنَ، تتنقل بَيْنَ عقولهم، وعى سنمَّار هَذَا وعلمَت أَنَّهُ يَعْرف، فرَمَته بابتسامة مُتَوَاطئة، لَمْ يجد نفسه إلَّا يُبادلها مثلها، «**تلْك الفتاة بهَا شَيْء مُخْتَلف يجعلها بتلْك**

القوة ﻓﻲ هَذه السِّنِّ الصغيرة!» أسرَّها داخل نفسه، وقرر أَن يَعْرِف كَيْفَ!

حركت رَأْسَهَا بابتسامة حيْن لمحت سلاسل الخضوع مُعلقة بكُلِّ جدران القاعة! سِنِمَّار يُحَاوِل أَخْذ احتياطاته ضِدَّهَا، رمت نظرة مُشفقة نَحْو ملك رُيُّوف...

- لَا تقلق لَسْتُ هُنَا لقتلكُمْ، لَوْ كُنْت أريد، لكنتم جَمِيعًا موتى، ودُونَ أَن أُلوِّث يدي.

أشارت نَحْو دَلشيِّر...

- هُوَ فَقَطْ يُبالغ ﻓﻲ حمايتي لَا أَكْثَر.

فغر فمه ذهولًا، علمت بِمَا يفكر فِيه بكونها ستقتلهم جَمِيعًا ولذلك جَاءَتْ بدَلشيِّر مَعَهَا، وهُمْ داخل قاعة سِنِمَّار مسلوبو القوى ليُنْهي أمرهم بلحظات، نقلت عينها بَيْنَهُمْ بهدوء...

- عَلَى الرحب كوني أنقذت حياتكم جَمِيعًا.

- كدنا نُقتل بسببك، وذاك الَّذِي يقف خلف كتفك أَلَيْسَ رَجُل سَطام؟!! بدلًا مِنْ أَن تعدمي جيشه لِمَا فعله بِنَا، اتخذتهم جنودًا لَكِ وقائدهم لحراستك، كَانَ الأولى لِتُعلني ولاءك لَنَا وللسَّدِيم أَن تَعدمي جيش الخونة بأكمله وذاك الخائن عَلَى رأسهم!

جَاءَ صوت ملك تَلِيد مُحتدًّا ساخطًا، لتؤكد همهماتُ الآخَرين ونظراتُهم كلامَه، لبث سِنمَّار عَلَى صمته، اتَّخَذَ مجلسه قرِيبًا مِنْ كَال وشَاتَاي الَّذِي بَدَا ﻓﻲ فلك آخَر!

نظرت نَحْو آصَف ورُونَا ثمَّ دَلشيِّر، الَّذِي لَمْ يتفوَّه، رَغْم نظرات الغضب الَّتِي تنتفض بعينه، وقَبْلَ أَن تردَّ رُونَا، أسندت ظهرها إِلَى ظهر كرسي العرش بارتياح، وجَاءَ صوتها هادئًا رخيمًا...

- أَنْت مُحق تَمَامًا، يجب عَلَيْنَا اقتلاع جَمِيع الجذور العفنة لِمَا فعلوه بِنَا وبكم وبالسَّدِيم.

رفعت طرف عينها نَحْو دَلشيَّر، فجثا عَلَى ركبتيه أمامها وأعطاها خنجره، وقفت بثقة وضعت الخنجر عَلَى رقبته، تحفزت عيون الجميع فَقَد ازدادت اللعبة تَشويقًا الآنَ، اعتدل شَاتَاي بمجلسه، جَذَبَه تسارُع الأَحْدَاث الَّذِي اتَّخَذَ منحًى جديدًا، وبُهتت رُونَا!

- لَكِن لنبدأ مِنَ المكان الصحيح.

همست خلف أُذُن ملك تَلِيد والخنجر فَوْقَ عُنُقِه، ضربت موضع ركبته فركع أرضًا، اغتلت نبرتها...

- إن كُنَّا سنقضي عَلَى العفن فعَلَيْنَا اقتلاع جذوره، لنبدأ مِنْ حَيْثُ بدأت الخيانة الحَقيقية، لَيْلَة إلكَاي تَلِيد أَوَّل مَنْ خان العهد، أوَّل مَنْ ركع، لذَلِك أَنْت مُحق تَمَامًا، عَلَيْنَا أن نقتطع الخونة الحقيقيين.

ذابت الحروف بفمه المرتاع، خَبَت الأنفاس بصدره المفزوع، زاغت عَيْنُهُ خَوفًا، بَيْنَمَا تراجع الآخَرون بموقفهم خطوات مُترنحة متوجسة، لوهلة رأت نظرة رضًا بعين رُونَا الَّتِي كَانَتْ تحتقن نَقَمًا مُنْذُ دَخَلَتْ، عقدت ساعديها بنظرة ارتياح ملأت وَجْهَهَا، ولأول مرة تشعر بنشوة سعادة حَقيقية مُنْذُ عادت إِلَى السَّدِيم.

رفعت عينها نَحْو الاثنين الآخَرِين...

- إن كُنَّا سنُحاسب المحكومين المأمورين عَلَى خنوعهم، فعَلَيْنَا أوَّلًا أن نُحاسب الحكام الآمرين عَلَى خيانتهم، كَانَ يَعْرِف أنَّهُ لَنْ يحتاج إلَّا مذبحة واحدة كي يركع لَهُ الخونة.

تلجلج ملك دَرَّيا...

- لسنا خونة، نَحْنُ ضعفاء أمام زَارَا وظلامه.
- أَنْتُمْ جبناء مَنْ تركوه يحولها إِلَى ظلام، كُلٌّ مِنْكُمْ يخشى عَلَى نفسه وَلَا يهتم أَن يسقط غَيْرُه، معتقدًا أَنَّهُ بأَمان مَا دام أنها لَيْسَتْ مملكته وعرشه، لَا يَعْرِف أَن الذئب المسعور لَا يشبع وَلَا يهتم بِمَا يأكل، وإِنَّمَا كُلُّ مَا يشتهي هُوَ الدماء.

أطلقت رُونَا العنان لغضبها المكبوت مِنْ خيانتهم، لتبتسم سِيًّا بسخرية حانقة، تركت عُنُقَه وأصبحت بمُنْتَصَف القاعة بلَحْظَة، أَخذ يتحسس عُنُقَه، يسترد أنفاسه بفزع، لتهتف بسخرية شامتة...

- وبالنهاية ركع القطيع بأكمله.
- أَنْتَ تُهيننا جَمِيعًا، دَهَّام لَمْ تركع لأحد.

انتفض شَاتَاي ساخطًا، زادت نظرتها الساخرة كَنبرتها، تدور بعينها بَيْنَهُمْ...

- ومَاذَا فعلتم أَنْتُمْ بأنفسكم! أَوَلَيْسَ جُبنكم أَكْبَر إهانة لكم! كُلٌّ مِنْكُمْ يُفتش عَنْ مصالحه، لَمْ تفهموا بَعْدُ أنكم بناءٌ واحدٌ، إن هُدم جزء مِنْهُ هَار البناء بأكمله، وخَوَى عَلَى عروشه، فإِن سَقَطَ أَحَدُكُمْ سَقَطَ الجميع، وزَارَا يَعْرِف أنكم أجبن مِنَ أَن تواجهوا، وأضعف مِنْ أَن تتحدوا، فجعل مِنْكُمْ حيواناته الأليفة، ودُمى تسليته الرخيصة.

ثبتت عينها بعين شَاتَاي...

- الخوف والاختباء داخل الكهوف ركوع أَيْضًا يا أميري العزيز.
- أَنْتِ مَا زلتِ تحتاجين إلينا.

هتف كَال بنبرة حازمة مُحذرة مِنْ تماديها فِي إهانتهم، فرغم أَن مَا تقوله حَقِيقَة، وهُوَ نفسه هتف بِهَا لسنوات، لَكِنَّهُ لَا يروق لَهُ تمرُّدها، لتصفعه بنبرة باردة...

- أَنَا لَا أحتاج إِلَى جبناء خونة.

- تحتاجين مساندتنا فِي حربك.

- هَلْ سيخوضون الحرب مَعِي ضِدَّ زَارَا؟

صمت كَال وبدت لَهُ العيون مترددة، ودُونَ أَن ينتظر إجابة مِنْ أَحَد...

- بِالتَّأْكِيدِ سيفعلون.

- بأنفسهم أَمْ سيدفعون بجنودهم وهُمْ متحصنون داخل قاعاتهم المحرمة؟

لَمْ يفهم كَال مَا الَّذِي ترمي إِلَيْهِ، لترميه بنظرة مُشفقة عَلَى تلعثُمه، ليرد دَلشيَّر بنبرة ساخطة هدرت بحدة بَيْنَ جدران القاعة...

- الشعب والجنود وحدهم مَنْ يدفعون ثمن كُلِّ الصراعات.

- شعوبهم مَنْ سيخوضون الحرب إِلَى جانبي، إذًا فهُم مَنْ أحتاج، ولَيْسَ مجموعة حُكام خونة سيغدرون بي عِنْدَ أَوَّل منعطف كَمَا غدروا بعائلتي.

اقْتَرَبَتْ مِنْ آصَف وضعت يدها عَلَى كتفه...

- صدقني إِن ألقى لَهُم زَارَا بعظمة أَكْبَر فسيقتلونني بأيديهم ويتمسحون بأقدامه.

تنهد بحزن لمَّا قالت، عادت إِلَى كرسي العرش بلَحْظَة، وقفت أمامه ودارت بعينها بَيْنَ العيون الخائفة، المترددة، التائهة، تنفست بعمق، بنبرة هادئة...

- جئت لأطلب حقي فِي عَهْد الدم، ولاءكم وطاعتكم العمياء لعرش النُّور، فهل أَنْتُمْ مَعِي؟

احتدت عينها بنظرة متحفزة، ونبرتها بسخط ثائر رج القاعة، استدعت سيفها تُطبق عَلَيْهِ بحنق...

- أَمْ ضدي؟!



«مَنْ يَرْكَع لا يَرَ مِنْ أَيْنَ تَأْتيه الضَّربة»

سِيسِيليَا

تتهادى بخطوات مُتباطئة داخل الردهة الهادئة، تسمع صوت بطنها الجائع، بدت لَهَا الردهة خالية مِنَ الحرس وساكنة عَلَى غَيْر العادة! لَمْ تكترث، فبالطبع جميعهم ملتفون حَوْلَ ملكهم وأميرهم بَعْدَ مُحَاوَلة اغتيالهم.

فَتَرَت أوصالها حِيْن رأت نفسها تقف مُقابلها! تبعثر نبض رَحِيل وهِيَ ترى نسخة منْهَا تقف عَلَى بُعد خطوات! أغمضت عينها مِنَ الذهول وفتحتها، فَلَمْ تجد شَيْئًا، حركت رَأْسَهَا نفيًا بأن جوعها جعلها تتوهم!

وقَبْلَ أَن تُحرك قدمها شعرت بشيء خلفها، أطبقت يدها عَلَى سيفها، تتنفس بسخط، فهِيَ أَكْثَر مَنْ يَكْرَه المفاجآت خَاصَّة السيئة! الْتفتت عَلَى مهل لتجد نسختها مُجَدَّدًا، تبتسم وتغمز بِطَرْف عينها وتُشِيرُ نَحْو قاعة جانبية عبرت إِلَيْهَا.

ترددت لِلَحْظَة لَكنَّهَا سحبت سيفها، أحكمت قبضتها عَلَيْه ودَخَلَتْ، تقدمت بهدوء، ترفع سيفها بوضع الهجوم حَتَّى أصبحت بالْمُنْتَصَف، القاعة شبه مظلمة إلَّا منْ ضوء خافت يتسرب مِنَ الردهة، ليصفع الباب فجأة فانتفضت، زاد توجُّسها، أَحَدُهُمْ يلعب لعبة سخيفة، وسَوْفَ تُحطم رَأْسَه، إن لَمْ تقتلعها.

أحاطها ظلام وسكون أشعلا هواجسها، تشعر بشيء سيئ سَوْفَ يَحْدُثُ! دارت عينها بالمكان، لَحْظَات وغُلقت النوافذ والشرفات بقوة

وَتَتَابُع أرعبها، وجفف الدماء بَيْنَ أوردتها، ومِنْ زاوية القاعة أنارت شمعة خافتة، قطَّبت حاجبيها ونادت «**مَنْ هُنَا؟**» عبر صوتها القاعة وعاد دُونَ مُجيب، تراجعت خطوة وعقلها يأمرها بالمغادرة فورًا، وقَبْلَ أَن تنصاع لَهُ ظهر أمامها! يتقدم بخطوات رتيبة، تُحَاوِل ابتلاع ريقها وعينُها مضطربة بفزع صارخ تحبسه، مُعلقة بِهَذَا الظل الخارج مِنَ الظلام بعباءته السوداء الَّتي تُغطي رَأْسَه فَلَا يظهر مِنْهُ شَيْء وبيده كتاب، تراجعت خطوة ليرفع رَأْسَه نحوها وترى عينيه كُرَتَي نار مُلتهبة، اختفى بلَحْظَة وبالثانية كَانَ خلف ظهرها يُطبق عَلَى عُنُقِهَا!!!

***

يذرع القاعة جِيئَةً وذَهَابًا لَا يُصدق أَنَّهُ يجلس هُنَا بجانب دَلين، ودَلشيَّر يقف بجانبها أينما تكون، يكاد يُصيبه الجنون، جَلَسَتْ دَلين إِلَى ساعد الأريكة تنظر لَهُ وقَدْ بلغ مِنْهُ الغضب مبلغه، حَرَكَتُه الزائدة والمضطربة أثارت حفيظتها...

- هلا توقفتَ عَمَّا تفعله!

الْتفت نحوها كأنه اكتشف وجودها توًّا، انزلقت إِلَى مقعد الأريكة...

- يكفينا مَا حَدَثَ بالحفل!

- أَيْنَ رَحِيل؟

تساءل كأنه لَمْ يسمع مَا قالته، أرخت جسدها ورَأْسَهَا داخل حشية الأريكة المريحة، تنهدت بغيظ...

- الحمقاء وسط كُلِّ تِلْك الفوضى تشعر بالجوع، ذهبت تبحث عَنْ شَيْء تأكله.

وقَبْلَ أَن يزيد أَحَدُهُمْ شَيْئًا آخَر فُتح الباب ودخلوا، بدت سِيًّا عَلَى غَيْر سجيتها، آصف فِي عالم آخر، رُونَا تعتليها نظرة رضًا لَمْ يروها مُنْذُ انتقلوا! ارتمت للأريكة، فتساءلت دَلِين باهتمام...

- مَنْ حاول قتل الملوك؟

- بالطبع زَارَا!

جَاءَتْ إجابتها قاطعة، لترتمي سِيًّا إِلَى السرير...

- كَلَّا.

فغروا أعينهم وانتبه آصَف الَّذِي بَدَا غارقًا تَمَامًا بأفكاره، اعتدلت بجلستها فَوْقَ السرير، ليتساءلوا باهتمام، فأجابت...

- شَاتَاي، انظروا كَيْفَ تصرف بَعْدَ مَا حَدَثَ، غَيْر أَن كأسه لَمْ تَكُنْ مسمومة!

أصابهم الذهول، حك آصَف لحيته وشعره كعادته كُلَّمَا يُفكر بتمعُّن، رفع طرف عَيْنِهُ نحوها بنظرة تعرفها، لتتنهد بسخط...

- الحارس كَانَ لسانه مقطوعًا.

- كَالذِينَ هاجموك عَلَى الأَرْض؟

تساءلت رُونَا بِحيرة، زفرت إيجابًا...

- ولَمْ أستطع الحصول مِنْهُ إلا عَلَى ذكرى مِنْ نفس القبو.

- أراد أَن يورطنا نَحْنُ بقتله؟

- تقصدين أَنَّهُ تآمُر وليد اللَّحْظَة؟

عقَّب رَيَّان عَلَى مَا قالته دَلِين، لتتدخل رُونَا بالحديث...

- بِالتَّأْكِيدِ يُخطط لِهَذَا مُنْذُ فترة، لَكِن وصولنا كَانَ توقيتًا مناسبًا

لَهُ.

- خَاصَّة أَنَّهُ غَيْر رَاضٍ عَنِ اتفاقنا مَعَ الملك.

خرج آصَف عَنْ صمته، لتعتدل سِيًّا، وتهز رَأْسَهَا بسخط جارف، لَيْسَتْ مُتَأَكِّدَة مِمَّا رأته فِي القبو ومَا يربطه بِمَا قرأته بعقل الحارس!

قفز عقل آصَف لشيء يركض بنفس الاتجاه، لَكِنَّهُ أَسْوَأ مِمَّا اعْتَقَدَ، يَبْدُو أَن زُمُرُّدة كَانَتْ محقة «**تعويذة الاستحواذ لَيْسَتْ لَدَى زَارَا! تَبًّا شَاتَاي مَا الَّذِي تُخطط لَهُ؟!**»

لتسألها دَلِين باهتمام...

- كَيْفَ استطعت أَن تُرسلي دَلشيَّر خارجًا ثمَّ تُعيديه إِلَى القاعة مُجَدَّدًا ولستما معًا؟

رفعت عينها نَحْو العيون المتسمرة حَوْلَهَا، أَن ينتقل شخصين مُتلامسين معًا شَيْء عادي، لَكِن أَن ينقل شخص شَخْصًا آخَر دُونَ أَن يلمسه لمكان لَيْسَ به ويُعيده وَلَيْسَ مَعَهُ، فهَذَا أثار ذهول الجميع! حركت كتفيها بِحيرة أَنَّهَا لَا تعرف! لَمْ تفعل شَيْئًا، هِيَ فَقَطْ فكرت فِي حدوث ذَلك، فحدث!

اسْتَرَدَّ آصَف مِنْ غياهب مخاوفه المتزايدة خوفٌ أَكْثَر أَلمًا، تساؤل أطلقته سِيًّا...

- أَيْنَ رَحيل؟ لَمْ أرَها مُنْذُ كُنَّا بالحفل.

بحثوا عَنْهَا طوال اللَّيْل حَتَّى وجدوها مُستلقية بأريكة داخل القاعة الجانبية، تغطُّ بنوم عميق! حيْن استيقظت لَمْ تَكُنْ تتذكر شَيْئًا، سِوَى أَنَّهَا ذهبت لتبحث عَنْ طعام، ثمَّ غلبها الإرهاق والتعب فنامت بتلك القاعة!!

بالصباح الباكر ومَعَ خيوط الفجر الأولى تَبدَّدت عتمة لَيْلَة عَاصِفَة، الْتقت سِيًّا بتُولَاي بالردهة، لتبتسم الثانية بمودة...

- اعتقدت أَنَّك مَا زلتِ نائمة، فليلة أمس كَانَتْ طويلة ومرهِقة للجميع، خَاصَّة لَكِ.

لَمْ تُعلق بشيء، لتستدرك تُولَاي سريعًا...

- كَيْفَ حال صديقتك؟ أهي بخير؟

عقدت سِيًّا يَدَيْهَا أمام صَدْرهَا وغلَّف وَجْهَهَا نظرةٌ باردة...

- إننا داخل أَكْثَر قصور السَّدِيم أمانًا وتحصينًا، بِالتَّأْكِيدِ هِيَ بخير!

لَمْ تُعلق تُولَاي، لَكِنَّهَا أسرَّتْها داخل سويداء قلبها ساخطة، وأضافت بابتسامة مُصطنعة...

- لَمْ أشكرك علَى إنقاذ حياة والدي.

- لَا شَيْء يَسْتَحقُّ الشكر.

- لَمْ يكُنْ زَارَا، أَلَيْسَ كذَلك؟

- إِذَا كُنْت تعلمين أَنَّهُ لَيْسَ زَارَا فبالتأكيد تعلمين مَنْ!

زفرت تُولَاي بأسًى، تهز رَأْسَهَا بخيبة، لتتساءل الأُخْرَى باهتمام...

- لِمَاذَا لَمْ تحاولي مَنْعَهُ؟

- أرى أشياء كثيرة، البعض مِنْهَا يتحقق والكثير مِنْهَا لَا.

الْتفتت للجهة الأُخْرَى...

- يقول لي معلمي كَال إنني فَقَطْ أشعر بالسوء تِجَاهَ الجميع، وشكوكي المفرطَة تُسبِّب لِي دَوْمًا تِلْك الأوهام بحدوث السيئ.

- لَدَيْنَا مُعلمان مُختلفان تَمَامًا.

تبسمتا، أَمْسَكَت يد سِيًّا بغتة...

- أشكركِ مُجَدَّدًا لإنقاذه.

أطالت السلام لَكنَّهَا لَمْ تصل لِمَا أَرَادَتْ، تبسمت ورحلت، سخرت سيًّا «**حمقاء! تعتقد أَنَّهَا تَسْتَطيع اختراقي**»، وقَبْلَ أَن تُكمل طريقها، سَمعَت صوت أفكار شَاتَاي الغاضب مِنْ قاعة مجاورة «**سأُنهي تلْك الفوضى بِأَيِّ ثمن**»، لبثت تستمع لَهُ طويلًا، حَتَّى هَمَّ لمغادرة القاعة، فاختفت، وظهرت بالجناح الخاص بِهَا، انتبهوا لظهورها المفاجئ، وقفت أمام آصَف مُباشرة، جالس بجوار رَحِيل، وضعت يدها فَوْقَ كتفه...

- يجب أَن نتحدث... الآنَ.

لَحْظَة واختفى كلاهما مِنَ القاعة، وسط دهشة الجميع!

انبسطت شَمس الضحى، وارتَفع نهاره حَتَّى توسط سماءه، طفقت سِيًّا تتجول داخل الحدائق الجانبية، كَأَنَّهَا تُفتش عَنْ شَيْء مُحَدَّد! انتحت داخل أَحَد الكهوف الجانبية، تأكدت أَلَّا عين ترقبها تِلْك المرة، أَلْقَتْ حاجز الصمت، جرحت يدها بخنجرها الصغير ونثرت فَوْقَ كفها النابض بالأزرق مختلطًا بالأحمر، لَحْظَات وعمت رياح قوية داخل الدائرة الصامتة، وبَعْدَهَا اختفت الرياح وهِيَ مِنَ المكان، لتفتح عينها داخل المخزن المهدم!

خامرها إحساس غريب بالهدوء والسكينة وغلبها حنين خاص نَحْو المكان رَغْم كُلِّ مَا مرت بِهِ مِنْ أَوْقَات صعبة بَيْنَ جدرانه، لَكِنَّهُ يحمل

الكثير مِنْ ذكريات حلوة جمعتها بهم، يحمل الكثير مِنْ روحها المبعثرة فِي كُلِّ مكان.

تهادت خطواتها خارجه إِلَى أَن وصلت حَيْثُ مُعسكر جيشها، وقفت أمام الجنود المتراصِّين فِي مجموعات، والمُتخذين وضعية عَسْكَرِيَّة مُتحفزة، والَّتِي مَا إن ظهرت أمامهم حَتَّى قبضوا عَلَى سيوفهم وانحنوا أمامها بحركة عَسْكَرِيَّة متزامنة.

انتفض تيَّام مُستقيمًا، حِيْن انتبه لانحنائهم المفاجئ، اندفع نحوها واحتضنها دُونَ سابق إنذار، فطوقته، فاشتاقت إِلَيْهِ أَيْضًا، بَعْدَ برهة انفكَّا، فتساءل...

- أَيْنَ الباقية؟

- سنذهب إِلَيْهِم.

ابتسم بفرح غامر، لتُردف بغبطة وابتسامة رضًا وعينها تدور بَيْنَهُمْ...

- تقوم بعمل جَيِّد هُنَا يا صديقي.

زادت ابتسامته، طلبت إِلَيْه تجهيز الجميع للعبور، لَمْ يَأْخُذ الكثير مِنَ الوَقْت لجمعهم، فكَانَ عَلَى أُهبة الاستعداد للَحْظَة فَتْح بوابات العبور إِلَى دَهَّام كَالخطة المتفق عَلَيْهَا، تساءل بِحيرة وعَيْنُهُ تُحصِي جنوده الكثيرين عَلَى امتداد العين أمامهما...

- نَحْنُ جاهزون، لَكِن أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ السهل عَلَى معبد دَهَّام فتْح البوابة قرِيبًا، لنوفر الوَقْت والمجهود.

الْتفتت تدور عينها بالجنود مِنْ خلفه، وارتياح وشى به تنفُّسها العميق بهدوء، أَمْسَكَت خنجرها، فتحت جرحًا صغيرًا بيدها الأُخْرَى وأطبقت

فَوْقَ رذاذها الأزرق المختلط بالأحمر، تِلْك اللَّحْظَة فَقَط انتبه للجرح بيدها الأُخْرَى وبقايا النابض فوقه، ففغر عَيْنَهُ استغرابًا، لَمْ تعبر عَنْ طريق بوابة بَلْ عَنْ طريق دمائها! فتعجب...

- أَلَنْ نعبر عَنْ طريق بوابات دَهَّام كَالخطة؟!

غمزت بطَرْف عينها وابتسامة ماكرة دُونَ أَن ترد بشيء، بدأت التمتمة لَحْظَات وفُتحت البوابة، بُهِتَ تيِّام، وعَيْنُهُ ترى غابة رُوكَان تظهر عَلَى الجهة الأُخْرَى مِنَ المعبر!

مالت نحوه تضغط كتفه بيدها...

- تغيير بالخطط.
- أَلَنْ يَعْرِف زَارَا بوجودنا؟
- اتَّخَذْتُ احتياطاتي لِهَذَا.

زادت دهشته، بدأت أطياف الرَّوْشَم تظهر عَلَى المعبر مِنَ الجهة الأُخْرَى، تَرَدَّدَ الجنود الَّذِينَ لَا تجمعهم بهم ذكريات جيدة!

هيَ أَوَّل مَنْ عبر فانحنى أمامها الرَّوْشَم، ثبتت عينها بعين تيَّام الَّذي لَمْ يَكُنْ يَعْرف مَا الَّذي يَحْدُثُ، لَكِنْ لَدَيْه إحساس بأَنَّهَا تعرف مَا الَّذي تفعله، والأَهم أَنَّهُ يثق بِهَا، فرغم تهوُّرها الدائم فإِنَّهَا تُثبت لَهُ دَوْمًا أَنَّهَا تستحق أَن يتبعها، فألقى نظرة نَحْو جنوده ثمَّ عبر فتبعه كامل الجيش دُونَ حرف.

وقفت عَلَى البوابة، رمت المعسكر الخالي وأطلال المخزن البادية عَلَى مسافة قريبة والأَرْض بأكملها بنظرة حنين واشتياق لعمر قضته بَيْنَ ربوعها، ثمَّ أغلقت البوابة واختفى كُلُّ شَيْء وعم السكون!

بالمساء تقف أمام عين كَامِي هادئةً تُحَاوِل لملمة الخيوط بيدها، تعلم أَن شَاتَاي هُوَ الفاعل، حاول قتل الملوك وإلصاق التهمة بِها، خَاصَّة بَعْدَمَا وجدوا الحارس المقطوع اللسان مقتولاً فِي زنزانته بنفس الليلة.

تنهدت بزفرة شَقَاء مِنْ كُلِّ تِلْك الألغاز الناقصة، فكَيْفَ لَنَا أَن نحل أُحْجِيَّات مَبْتُورة! نُلاعب القَدَر لعبته الَّتِي ابتكرها ويَحْفَظ كُلَّ خباياها داخل متاهته وعَلَيْنَا أَن نربح! فَلَا مجال للهزيمة وأنت مُكَبَّل بَيْنَ المطرقة والسندياں!

تنفست، شردت لحظات وفجأة راحت تقفز فرحًا وتصرخ «**وجدته**»، اندفعت تركض بَيْنَ جنبات القصر كالممسوسة، ودَلشيَّر خلفها لَا يفهم شَيْئًا! وصلت جناحهم، أغلقت الباب بإحكام، جَلَسَتْ بجوار آصَف تسترد أنفاسها وتهتف بفرحة تلتمع بَيْنَ عينيها...

- أعرف كَيْفَ أجده.

تبادل جميعهم النظرات المتسائلة لتسترسل بذات النبرة الغامرة بالفرح...

- الكتاب، أتذْكُر آخِر لقاء بَيْنَكَ وبَيْنَ رُهَانَا حِيْن أقرَّت بنَفْيِك؟

- نَعَمْ.

- أعدني إِلَى ذَلِك اليوم.

- مَاذَا؟

تساءلت دَلِين بدهشة كَكُلِّ العيون المحيطة بهم، ليزداد حماسها...

- هَذَا آخر يَوْم تحدثَت فِيهِ رُهَانَا عَنِ الكِتَاب مَعَ أَحَد، قُتلت بَعْدَهَا بعدة أَيَّام أَلَيْسَ كذَلِك؟

هز رَأْسَه بِحيرة، ثمَّ إيجابًا، ليزداد حماسها...

- أَيُّ أَحَد مكانها ويعلم أَن هُنَاك شخصًا يَسْعَى خلف الكتاب سيتفقده، ليتأكد أن لا أَحَد وصل إِلَيْهِ، عَلَى أَسْوَأ تقدير سيفكر بمكانه!

- سِيَّا مُحقة تَمَامًا، غَيْرَ أَن هَذَا آخِر أمل لَدَيْنَا لإيجاده.

هتف رَيَّان، وأَكَّدَت همهمات الجميع، لتُعاود بذات الحماس...

- أَنْت فعلتها سَابِقًا حِيْن أعدْتَني ليوم إِلكَاي كُنْت أري وأسمع كُلَّ شَيْء حَتَّى أفكاركم، أعدني إِلَى ذَلِك اليوم بينكما وسأجده.

سَيَّجَهم صمت مَتِين قَبْلَ أَن يقول بنبرة مترددة...

- الأَمْر سيكون شاقًّا عَلَيْكَ، إن روحك انتقلت كَثيرًا فِي فترة قليلة، الأَمْر لَيْسَ بِتِلْك السهولة.

- يجب أَن نجده.

حاول إثناءها هباءً، لَا يعلم أكان يخاف عَلَيْهَا فعْلًا مِنْ كَثْرَة استخدام سحرها فِي فترة قصيرة، وتَكْرَار انتقالها، أَمْ يهاب مُجَرَّد فكرة أَن تجد الكِتَاب! هُوَ أَكْثَر مَنْ أراده لَكِنَّهُ كذَلِك أَكْثَر مَنْ يخشاه!

ممددة فَوْقَ الأريكة، طفقت عينها تزوغ حَتَّى غطت فِي سبات عميق، فتحتها عَلَى الجهة الأُخْرَى وجدت نفسها داخل القاعة المحرمة ورُهَانَا تُلقي آخِر نظرة نَحْو آصَف الَّذِي يسحبه الحرس خارجًا لَا تكاد تحمله قدمه.

أمرت بإخلاء القاعة وإغلاقها مِنَ الخارج، تحفزت كُلُّ ذرة بجسدها فربما تِلْك اللَّحْظَة الَّتِي تسعى خلفها، نزلت عَنْ عرشها بضع درجات، كَانَتْ غاضبة إِلَى الحد الَّذِي كادت أَن تُهشم مَعَهُ أناملها، تذرع القاعة ذَهَابًا وإِيَابًا، تصنمت رُهَانَا بوقفتها وَسِيًّا وراءها علَى بُعد خطوات! وحل سكون صارخ بالمكان!

الْتفتت نحوها رُهَانَا بغتة، فارتعشت سِيًّا، هَلْ تعرف بوجودها! إن كان آصَف عرف سابقًا فلا بد وَأَنَّهَا تعرف! تقدمت رُهَانَا عِدة خطوات حَتَّى تخطتها وأَصْبَحَت ظهورهما متقابلة، لَمْ تَجْرُؤ سِيًّا أَن تزفر أنفاس الارْتِيَاح، بدأت رُهَانَا بالتمتمة، الْتفتت سِيًّا نحوها بروية، وقَبْلَ أَن تعي شعرت بِيَد تُطبق عَلَى رقبتها، وأُخْرَى تدفع رَأْسَهَا للأسفل!

- مَا الَّذِي يَحْدُثُ يا آصَف؟

تَصْرُخ رُونَا، ترى جسدها ينتفض أمامهم، والمياه تندفع مِنْ فمها! تُبلل وَجْهَهَا وتنضح بَيْنَ ملابسها، كأَنَّ أَحَدَهُمْ أغرقها بدلو ماء! تدفع بيديها وقدميها الهواء كَأَنَّهَا تصارعه!

- أتبدو كشخص يغرق أَمْ أنني أتوهم؟!

تساءل دَلشيَّر بريبة والمياه تخرج مِنْ فمها بغزارة، وانتفاضتها ودفْعها يزداد، ضَجَّ رَيَّان...

- أَعِدها الآنَ يا آصَف.

- مَا الَّذِي تعتقد أنني أحاول فِعله! لَكِن شَيْئًا يحُول بيني وبَيْنَهَا!

دوَّى آصَف بوجهه وجسده شحب كالأموات، شَيْء يسحبها بعيدًا يشعر أَنَّهُ يفقدها لَكنَّهُ لَا يَسْتَطِيع فعل شَيْء، دَلِين انكفأت عَلَيْهَا تهز جسدها، وتهتف بفزع...

- إننا نفقدها.

فزعوا وهُمْ يروا قوتها وحركة جسدها تخبو، والمياه لَا تَزَال تندفع منْهَا تكاد تخنقها، اندفع دَلشيَّر يقلبها عَلَى جانبها الأيمن، ساعده رَيَّان يُميل رَأْسَهَا للأسفل أَكْثَر، اندفعت المياه بغزارة مِنْ فمها، بدأت تقل حَتَّى توقفت تَمَامًا، لَحْظَات بدت سنوات وعيونهم تترقب جسدها الساكن، الشاحب كَالأموات!

مُلقاة عَلَى ظهرها فتحت عينيها الواهنة، تتقيأ مياهًا طاعنة الملوحة وجسدها ينتفض بضعف، وكُلُّ مَا بِهَا يُحَاوِل أَن يستفيق، لَا تُبصر سِوَى ضباب، يخترقه ضوء واهن تُحَاوِل عينها الزائغة التقاط ماهيته! تُعافر للتشبث بوعيها، تراءى لَهَا الضوء قادمًا مِنْ بعيد، يزداد قُربًا وتزداد مَعَهُ الصورة تشوُّشًا حَتَّى غابت تَمَامًا عَنِ الوعي!

اسْتَعَادت وعيها ثانيةً، عادت الصورة مُجَدَّدًا داخل رَأْسِهَا تتشكل للمكان مِنْ حَوْلِهَا، لَا ترى شيئًا سِوَى ظلال وضباب كثيف! حركت رَأْسَهَا لجهة اليمين، عينها لَا تَسْتَطِيع إمساك صورة واضحة، جاهدت جسدها المُحطم، تعتدل عَلَى جانبها لتتحامل عَلَيْهِ أَكْثَر وتجثو عَلَى ركبتيها،

تُمسك بطنها الَّذِي احتشد بالمياه المالحة لتتقيأ المزيد مِنْهَا، صَدْرهَا يؤلمها مِنْ إحساس الاختناق الموجع، فَمَا زَالَتْ تشعر به!

بدأت تتضح الرؤية قَلِيلًا فِي الأَرْض الَّتِي تُركز نظرها فوقها تلْك اللحظة، مَا استرعى انتباهها الَّذِي تَحفَّز فجأة، فبالحقيقة لَيْسَ تحتها أرض، أَيُّ أرض؟! تجلس فِي فراغ، استحضرت مُكرَهةً كُلَّ قوتها وتركيزها، تضغط بيدها الأَرْض الَّتِي تحملها، صلبة قوية باردة لَكنَّهَا لَا شَيْء! هَذَا لَيْسَ زجاجًا! وتِلْك لَيْسَتْ أرضًا مِنْ أَيِّ شَيْء تعرفه! بَلْ هُوَ فراغ، فراغ حرفِي!

رفعت رَأْسَهَا لتجد نفسها داخل فراغ لَيْسَ لَهُ أرض ولا سماء أَوِ اتِّجَاهَات، لا شَيْء مُطْلَقًا، وقَبْلَ أَن تلف رَأْسَهَا للجهة الأُخْرَى أوقفها نصل بارد حاد يحتكُّ بعنقها! تَصَلَّبَت، نصل سيف حف جِلْدَهَا، تشعر بالألم وبالدماء الَّتِي ندَّت عَنْهُ «**لَيْسَ مُجَدَّدًا**» هتف داخلها بغيظ، استرَدَّهَا صوت هادئ رخيم ثابت...

- مَنْ تكونين؟ وكَيْفَ وصلتِ إِلَى هُنَا؟

حركت رقبتها بهدوء تام نَحْو الصوت، لتجد عينَي رُهَانَا مُثبتتين نحوها، فاستعادت آخر لَحْظَات لَهُمَا قَبْلَ أَن تفقد الوعي، يدٌ تُطبق عَلَى رقبتها وأُخْرَى تدفع رَأْسَهَا للأسفل، تُدفع عنوة داخل ماء! لَا تَسْتَطيع بلوغ أعلاه، تَدفع بيديها وقدميها وتحاول دفع جسدها خارجًا، بَيْنَمَا الأيدي الَّتِي تُطبق عَلَيْهَا تدفعها للأسفل بإحكام! تختنق وتشعر الهواء ينقطع عَنْ رَأْسهَا، كَفَّت عَن المقاومة وزاغت عينها، لتشعر بنفسها تَسْقُط للأسفل! حَتَّى ارتطمت بالأرض، واختفى الماء مِنْ حَوْلِهَا، ثمَّ فقدت الوعي!

أنعمت النظر بعين رُهَانَا، ابتلعت ريقها تتلعثم...

- سِيَّا ابنة زُمُرُّدة ابنة رُهَانَا ابنة سيسيلِيَا، آخر دماء النُّور.

اهتز النصل تَحْتَ ذقنها، قَبْلَ أَن تسحبه رُهَانَا بهدوء، وأَوْلَتها ظهرها، اعتدلت سِيَّا قلِيلًا تسترد أنفاسها الهاربة، لَا تعي أَيْنَ هِيَ! تشعر أَنَّهَا تُحلق فِي اللاشَيْء! ليستردها مِنْ دهشتها وقلقها صوتُ رُهَانَا...

- يَبْدُو أَنَّك ورثتِ الكثير عَنْ أُمِّك؟

- رُبَّمَا ورثتُ الأكثر عَنْ جدتي.

تنهدت دُونَ أَن تفُوه بحرف، اسْتَوت سِيَّا عَلَى قدميها لتُباغتها الأُخْرَى بالسؤال...

- لِمَاذَا أَتَيْت إِلَى هُنَا؟

- تعرفين لِمَاذَا.

- الكِتَاب؟

لَمْ تُجب بشيء، أسهَبَت رُهَانَا النظر بِهَا، أغمضت عينها واستشعرت حضوره بقوة! لَا تخطئه، مَا شعرت بِهِ فِي القاعة كَانَ صحيحًا، لذَلك جلبتها إِلَى هُنَا لتتأكد! تنهدت بشَجَن داخلها «**أحسنتِ يا صغيرتي كنتِ دَوْمًا الأذكى**»، تساءلت سِيَّا بِحيرة...

- كَيْفَ لَكِ أَن تُخاطبيني؟

- أصحاب الدماء المميزة يمكنهم الشعور بِأَيِّ طيف فِي المكان، فما بالك بدماء النُّور؟!

ترددت سِيَّا قَبْلَ أَن تُضيف...

- لكنكِ ميتة الآنَ، إذًا كَيْفَ؟

خلَّفتها وراء ظهرها، تنهدت بحزن...

- لأننا خارج الزمان والمكان، لسنا اللَّذينِ تعرفينهما.

- فكيف وصلتُ أَنَا إلَى هُنَا؟

- وحدك يُمْكِنك الوصول إلَى أَيٍّ مكان!

لَمْ تعلق سِيًّا رَغْم أَنَّهَا لَمْ تفهم مَا تعنيه، تنهدت، نظرت حَوْلَهَا وتجاوزت عَنْ فهْم أيٍّ مِنْ هَذَا، تقدمت خطوة وشَيْء واحد كَانَتْ تتوق لسؤالها عَنْهُ لَو التقتها يَوْمًا، وها قَدْ جاءتها الفرصة ولَنْ تفوِّتَها...

- لِمَاذَا لَمْ تستمعي إلَيْهَا؟

- اعتقدت أَن الكِتَاب يجعلها ترى صدى الماضي، يريد إطلاعها على تاريخه.

زفرت بألم، حَاصَرَهما صمت حذر، وقفت سِيًّا عَلَى بُعدِ خطوة مِنْهَا...

- أَيْنَ الكِتَاب؟

ندَّت عَنْ طرف ثغرها ابتسامة لَمْ تفهمها سِيًّا، تُحَاوِل السيطرة عَلَى سخطها...

- زَارَا لَدَيْه أمِّي، سيقتلها إن لَمْ أجده!

- سيقتلها بكُلِّ الأحوال.

لَمْ تَسْتَطِع ابتلاع غُصَّتها، فنضحت ملامحها الطافحة بالوجع، لتتقدم سِيًّا خَطوة فباتتا مُتقابلتين...

- إذَا كُنَّا بالماضي فلِمَاذَا لَا تمنعين كُلَّ هَذَا، وتقتلين زَارَا؟

تبسمت بسخرية حانقة...

- إن لَمْ يَحْدُثْ مَا حَدَثَ، مَا كنتِ لتكوني هُنَا الآنَ وما كُنْت أَنَا لأعرف أَن مَا رأته زُمُرُّدة هُوَ المستقبل.

- لَا أفهم!!

- مَا حَدَثَ قَدْ حَدَثَ، وبكل مرة سنعود للماضي سنرتكب نفس الأخطاء ونقع بنفس الاختيارات، لأننا نعود ونَحْنُ كَمَا نَحْنُ، بنفس أفكارنا وانتمائنا وانحيازنا الأعمى، لَا أَحَد يعود للماضي ويحمل خبرة أعوامه الَّتِي قضاها نادمًا ساخطًا، مشبعًا بخبرة تجاربه، الجميع يعود ولَدَيْه نفس القَدْر مِنْ حماقته، الزمن لَيْسَ سخيًّا معنا إِلَى هذَا الحد، لَنْ يُعيدنا إِلَى الماضي ويُهدينا خبرات المستقبل، إِذَا عُدنا ألف مرة فسوف نرتكب ذَاتَ الأَخطاء ألف مرة دُونَ أَنْ يَتَغَيَّر شَيْء قيد أنملة.

- حاولي!

- سأتبع الطريق ذاته ولَنْ يَتَغَيَّر شَيْء، هَلْ فهمت؟ نَحْنُ لَا نغير الماضي يمكننا فَقَطْ مراقبته، التعلم مِنْهُ، رُبَّمَا يحالفنا الحظ أَكْثَر ونعرف بَعْض أسراره، لَكِن أَن نغيره، فهَذَا مُسْتَحِيل، مَا حَدَثَ قَدْ حَدَثَ وقُضِي الأَمْر.

خَبَا صراخ كلتيهما وعمَّ السكون الحذر، زاد اسْتياء سِيًّا، وعينها الغاضبة تتلفت حَوْلَهَا الَّتِي توقفت بشيء مَا، فغرتها ذهولًا! الكِتَاب الَّذِي يبحث عَنْهُ الجميع مُعلق هُنَاك فَوْقَ طاولة زجاجية بِطَرْفٍ قصيٍّ خلف كتف رُهَانَا، تعلقت عينها وأنفاسها بِهِ.

انتبهت رُهَانَا وألقت نظرة حَيْثُ تنظر، فجذبت عينها بالسيف نحوها، ابتلعت سِيًّا ريقها بصعوبة لَكِنَّهَا لَمْ تتحرك، فأدْغَمت رُهَانَا...

- أَنْت تشبهينها إِلَى حد مخيف!

حركت رَأْسَهَا بِعَدَمِ فهْم، لترفع طرف عينها نحوها...

- سيسيليَا جدتك، أَنَا أعرف تِلْك النظرة، لَا شَيْء سيوقفك أَلَيْسَ كذَلِك!

- لَنْ أتخلى عَنْ أمِّي.

لَمْ تقل شَيْئًا، فحاولت سِيًّا اتِّخَاذ سبيل آخَر...

- مَاذَا لَو اسْتَطَاعَ زَارَا الحصول عَلَى دمائي وقتلني؟ أَلَنْ يَسْتَطِيع وقتها الحصول على الكتَاب؟

- مُسْتَحِيل أَن يصل إِلَيْه أَيُّ أَحَد، خَاصَّة إن قتلك!

أمالت رَأْسَهَا بِعَدَم فهْم، ثمَّ تساءلت بإصرار...

- لَدَيْه أمِّي، وهِيَ الحامية؟

ضحكت رُهَانَا حَتَّى دمعت عينها، ليزداد غيظ سِيًّا...

- ألم تسمعيني؟ لَدَيْه أمِّي، وهِيَ المفتاح!!

اهتاجت بوجهها بحنق لَمْ تعُد تَسْتَطِيع كبحه، اقْتَرَبَتْ رُهَانَا خطوة حَتَّى مَا عادتا يفصلهما شَيْء...

- أنتِ حَقًّا لَمْ تفهمي بَعْدُ يا صغيرة؟

كشرت عينيها استغرابًا، أطبقت رُهَانَا يَدَيْهَا حَوْلَ رقبتها، وهمست بشيء في أذنها فغرت لَهُ سِيًّا عينيها وكادت تقف أنفاسها! شعرت بإعصار جامح ضربها بلَحْظَة! صور كثيرة وذكريات أَكْثَر عبرت رَأْسَهَا! وألف سؤال لَمْ يَكُنْ لَهَا إجابة تجسدت كُلُّهَا أمامها! لتهمس بذهول أخرسَ عقلها «**مُسْتَحِيل!**»

تركتها رُهَانَا خلفها، وقفت أمام الكِتَاب مُبَاشرةً تحجب عينها عَنْهُ...

- توقفي عَنْ مقاومته، هَذَا يَزِيد الوضع سوءًا!... حَانَ وقت الرحيل.

وقَبْلَ أَن تعود مِنْ صدمتها أَوْ حَتَّى تعي، شعرت بيد تُطبق عَلَى رقبتها، وأُخْرَى تدفع رَأْسَهَا للأسفل وتَسْقُط مُجَدَّدًا داخل الماء، لَمْ تقاوم، لَمْ يَكُنْ بِهَا بأس لأي شَيْء، خارت قواها ورَقَدَت كُلُّ ذرة بِهَا دُونَ حراك، تفقد الوعي وصوت رُهَانَا يختلط بصوت زُمُرُّدة، كلتاهما تَصْرُخ داخل رَأْسِهَا «**اهربي يا سِيَّا، اهربي**»، وآخِر مَا وعته كرسي العرش والكِتَاب فوقه يلتمع بضوء خاطف ويتلاشى مَعَ مَا تبقى مِنْ طيف رُهَانَا المغادر، ثمَّ أُغشي عَلَيْهَا!!

بَعْدَ يومين مُتتاليين مِنَ النَّوْم المُتواصل، استردت وعيها، مُنهكة إِلَى حد مؤلم، تشعر بجسدها مُحطمًا، حاولت النهوض، لَكنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ، حاولت مُجَدَّدًا لتجد يد آصَف تُعيدها إِلَى استلقائها، وعَيْنُهُ تُخبرها أن تَهَدَأَ حَتَّى لَا يزداد الألم، ليتساءل بتوجُّس...

- مَا الَّذِي حَدَثَ؟

ضيَّقَت حاجبيها بتساؤل لَمْ يُغادرها ليُجيبها...

- فقدتُ الاتصال بك تَمَامًا بَعْدَ لَحْظَات مِنْ دخولك رُوسيل، وهَذَا شَيْء لَمْ يَحْدُثْ سَابِقًا! لَمْ أفقد يَوْمًا أثرك! حاولتُ إيجادك بالداخل لكني لَمْ أستطع كَأَنَّكِ... اختفيتِ... خارج كُلِّ العوالم!!!

تذكرَت المكان الَّذِي كَانَتْ بِهِ، ليستعيدها صوت دَلِين المُتلهف...

- هَلْ وجدتِ الكِتَاب؟

غابت لِلَحْظَة بآخِر مَا دار بَيْنَها وبَيْنَ رُهَانَا، وبَيْنَ الكتاب الَّذِي رأته بأم عينها، تداركت نفسها، ساعدتها دَلِين للاعتدال، خَطَت خطوتين

وتركتهم خلفها، أغمضت عينها، حاولت إيجاد طريقها وسط الحطام الَّذي خلَّفَته رُهَانَا بروحها الَّتِي لَمْ يعد بِهَا موضع لكسرٍ جديد بَعْدَمَا أَلْقَتْهَا فَوْقَ صَخْرَةِ الْحَقِيقَةِ المؤلمة!

تنفست بعمق، اغتصبت ابتسامة هادئة والْتفتت نَحْو العيون المترقبة، فالتقت عينها بعين رَحِيل، ابتسمت، تهز رَأْسَهَا إيجابًا، لتهتف العيون قَبْلَ النبرات بحماسة مندهشة...

- حَقًّا وجدتِه؟!

تبادل الجميع نظرات التوجس والاضطراب، لتُجيب...

- أسْفَل كرسي العرش.

- لَكِن المكان الَّذِي اندثرت آثارك بِهِ لَمْ يَكُنْ بالسَّدِيم مِنَ الأَسَاس؟

تساءل آصَف باستغراب، لتُكمل دَلِين بذات الحيرة...

- تتبعنا أثرك، لكنك اختفيتِ عَنْ كُلِّ العوالم الَّتِي نعرفها؟

- سِحر رُهَانَا قوي، أقوى مِمَّا اعتقدتُ، حاولَت خداعي لَكِن السوار كشف لي الخُدعة.

عاودَتها همسات رُهَانَا ترن بأذنها، فشردت، ليستردها صوت رَيَّان...

- رائع إذًا عَلَيْنَا الدخول لرُوسِيل كي نحصل عَلَى الكِتَاب؟ هَلْ للأمور أَن تزداد سَوْءًا؟!

عم الصمت الخارجي عَلَى الجميع، بَيْنَمَا العقول تضج بفوضى عارمة، نفت رُونَا نفيًا قَاطعًا مُجَرَّد التفكير بالأمر، فَلَنْ تقبل أَن يَحْدُثَ ذَلك قَبْلَ أَن تضمن انتقال جيش دَهَّام معهم واستدعاءهم جيش النُّور مِنَ الأَرْض، مَا أكده رَيَّان، فلا أحد يعرف إلا آصَف أنها بالفعل استدعته!!

جذب انتباهها همساتٌ جانبية قلقة تنتقل بَيْنَهُمْ، فتساءلت بِحيرة...

- مَاذَا يَحْدُثُ؟

تناقلوا النظرات المترددة للحظات قَبْلَ أَن تتخذ رَحِيلُ دور المُجيب...

- قُتل الملك سِنِمَّار لَيْلَة فقدتِ وعيكِ.

انتفضت مذعورة...

- مَاذَا؟! كَيْفَ حَدَثَ هَذَا؟

- وجدوا خنجر شَاتَاي مَغْرُوسًا بقلبه وهُوَ جالس فَوْقَ كرسي العرش.

أجابت رُونَا بضيق، لتهتف دَلِين بارتياح...

- حمدًا للّه أنَّكِ كُنْت بغيبوبة حينها، وكَال كَانَ هُنَا بذات التوقيت ليطمئن عَلَيْكِ، أخبرناهم أنَّكِ صريعة الحمى، حَتَّى لَا يَشُكَّ أحد بنومك الَّذِي لَمْ نكن نعرف متى سينتهي.

- سيُحاكمون شَاتَاي غدًا صباحًا فِي حفل تنصيب تُولَاي ملكة لِدَهَّام.

أَكَّدَت رُونَا بنظرة شماتة واضحة، لتُعلق سِيًّا عينها بعين آصَف الَّذِي لبث صَامتًا طوال الحديث، ضَجَّ صوتها داخله ليُؤكد بإيماءة مِنْ رَأْسِه!

قُرب الفجر بَيْنَمَا الجميع يغط بنوم عميق، استيقظت رَحِيل عَلَى صوت دَلِين الخفيض، اعتدلت بعينها الناعسة...

- مَاذَا هُنَاك؟

أشارت لَهَا أَن تُخفض صوتها...

- سنذهب إِلَى رُوسِيل الآنَ، سنجلب الكِتَاب.

انتفضت واقفة، أشارت لَهَا أَن تبقى هادئة، فَإِنَ استيقظت رُونَا أَوْ آصَف لَنْ يدعوهن يرحلْن، سِيًّا تقف قُرب الباب تتفقد الردهة، حِيْن ذهبت لإيقاظ دَلشيًّر أَمْسَكَت رَحِيل بِهَا منعتها أَن تفعل...

- لَيْسَ عَلَيْنَا إحداث كُلِّ تِلْك الجلبة، يكفي ثلاثتنا.

بَعْدَ ترددها لبرهة هزت سِيًّا رَأْسَهَا تَأْيِيدًا، بِطَرْف القاعة وسط الظلام والجميع نيام، أَمْسَكَت بيد كلتيهما، أغمضت عينها، أَلْقَتِ التعويذة وانتقلت إِلَى الجهة الأُخْرَى.

***

فتحن أعينهن داخل قاعة روسيل، المكان غارق بالظلام الدامس، أشعلت دَلِين مشعلًا صغيرًا، تناقلن النظرات المُترقبة، تقدمت سِيًّا بخطوات واثقة حَتَّى وصلت كرسي العرش ودَلِين بجانبها الأيمن ورَحِيل خلف كتفها الأيسر، صعدت درجاته حَتَّى أصبحت أمامه مباشرة، أغمضت عينها وفتحت ذراعيها عَلَى امتدادهما، بدأت بالتمتمة لَحْظَات وظهر الكتاب يتوهج فَوْقَ كرسي العرش!

الْتمعت عين رَحِيل ذهولًا، وكتمت دَلِين أنفاسها المُتسارعة، مدت سِيًّا يدها نَحْو الكتاب، وبمجرد أَن أطبقت أناملها فوقه وجدت خِنجرًا فَوْقَ عُنُقِهَا!

تجمدت، ابتعدت دَلِين خطوة وسحبت سيفها تنظر نَحْو رَحِيل المسكة بالخنجر بذهول...

- مَا الَّذِي تفعلينه؟

لَمْ تُعِرْها رَحِيل بالًا، أطبقت أَكْثَر فَوْقَ الخنجر...

– أعطيني الكتاب الآنَ.

ابتلعت سِيًّا ريقها، أماءت برَأْسِهَا أَنَّهَا ستفعل، تراجعت خطوة للأسفل بظهرها، تحركت دَلِين الَّتِي أطبقت عَلَى سيفها وغيظها، نزلوا عَنْ سلم العرش والكتابُ بيد سِيًّا الَّتِي تنظر نَحْو دَلِين تخبرها أَن تَهَدَأَ ولَا تتحركَ مَهْمَا حَدَثَ!

الْتفتت سِيًّا عَلَى مهل نَحْو رَحِيل الَّتِي بدت مُتحفزة وعينها تتبع كُلَّ اختلاجة منْهُمَا، مدت لَهَا يدها بالكتاب فمدت رَحِيل يدها تُمسكه بنشوة تلألأت بعينيها الَّتِي راحت تتوهج فِي الظلام!

أطبقت يدها عَلَى طرفه الآخَر، كلتاهما تُمسك مِنْ ناحية، ليضج صوت صارخ وسط القاعة الساكنة «**الآنَ**».

الْتفتت رَحِيل نَحْو الصوت لتجد آصَف واقفًا بزاوية القاعة الَّتِي أُضيئت فجأة مِنْ كُلِّ الجوانب، ليتبدد كرسي العرش وتلاشت جدران القاعة وأرضها وسقفها، ووجدت نفسها تقف بأحد أطراف غابة رُوكَان!

لتعاود النظر أمامها، فوجدت سِيًّا اختفت واختفى مَعَهَا الكتاب، وقفزت دَلِين للخلف، فازداد توهج النيران بعينها، وراحت تتلفت يمينًا ويسارًا، لتجد دائرة تتوهج حَوْلَهَا بلون أزرق تحيط بِهَا، وقعت عَلَى ركبتيها تَصْرُخ وتصرخ، ووقع زَارَا عَلَى ركبتيه داخل قصر رُوسِيل!

نضَح الألم عَلَى وَجْهِهَا، ليحتقن وجه زَارَا بالغضب، علمت سِيًّا مُنْذُ أفاقت رَحِيل تلْك الليلة وفتحت عينها أَن زَارَا حاول اختراقها، وحينما فشل ألقى عَلَيْهَا تعويذة ليتحكم بِهَا، يراقبهن ليصل إِلَى الكِتَاب، لَكِنَّهَا

تَرَكَتْه لتجعله يَعْرف مَا تريده أَن يعرفه! فَكَانَتْ رَحيل هِي مَنْ أرسل رجاله إِلَى الأَرْض لاختطافها، لَيْلَة هُوجمت سِيَّا، وهَذَا مَا أفسد اختطافها!

توهجت عيناها ككُرَتَي نار، أمْسَك بخنجر رَحيل، يوجهه نَحْو قلبها، والَّتِي لَا تتوقف عَنِ الصراخ مِنَ الألم، عادت سِيَّا وظهرت مُجَدَّدًا داخل الدائرة!

– أَنْت تريدني أَنَا وَلَيْسَ هِي.

انتفضت رَحِيل واقفة وعينها تزداد توهجًا، وصوت زَارَا يهدر بَدَلًا مِنْهَا...

– الليلة إحداكما ستموت، إن قتلتك فسيكون هَذَا كافيًا لي، وليحترقِ الكتاب بالجحيم، وإن قتلتِني فسيكون أَكْثَر مِنْ جَيِّد لأَنَّك بالحقيقة ستكونين قتلت صديقتك، وأراه الاختيار الأروع!

عُلقت عين سِيَّا بعينِ صديقتها تُفتش عَنها، لَكن لم يكُن هُنَاك سوى الظلام، ولم تُمهلها رَحيل المزيد، هاجمتها بضراوة، تفادت سِيَّا ضرباتها قدر استطاعتها، لَكِنَّهَا بنقطةٍ مَا لَمْ تَسْتَطِع السيطرة عَلَى شيطانها أَكْثَر، فضربت هي الأُخرى بقوة، تلاقت السيوف حَتَّى أدمت كلتيهما، ودَلِين تترقب بقلق كَعيون تيَّام الَّذِي لَا يُصدق مَا يراه، يكاد ينفرط نبضه، فكلتاهما ابنتاه، ولَنْ يحْتَمِل خسارة أيٍّ مِنْهُمَا، وآصَف عَيْنُهُ مُعلقة بالسماء تترقب أولى خيوط الفجر!

سقطت كلتاهما أرضًا مِنَ الإنهاك والألم والتعب، انتفضت رَحيل بَعْدَ لَحْظَة كأَنَّ شَيْئًا لم يحدث، هزت سيَّا رَأْسَهَا بغيظ، لَا تريد أَن تؤذيها، نظرت نَحْو آصَف الَّذِي الْتمعت عَيْنُهُ بالدموع، يهز رَأْسَه ويُحرك شفتيه «**افعليها الآنَ**».

مَعَ أوَّل ضوء ألْقاهُ الفجر عَلَى روكان، وضعت رَحِيل السيف عَلَى عُنق سِيَّا وابتسمت بخبث وازدادت عينها وهجًا، وصوته يرن بالأرجاء...

- فلتذهبي إلَى الجحيم أيتها اللعينة.

أطلقت سِيَّا غشاوتها وطوَّحَت سيف رَحِيل بَعِيدًا، سحبتها إِلَيْهَا حَتَّى ارتطمت بِهَا، أطبقت كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الأُخْرَى تعتصرها! لَحْظَة ووقعتا أرضًا مُتعانقتين، عم السكون! تَدَاعَى قلب آصَف روعًا، تحجر تِيَّام، ونزلت دَلين عَلَى ركبتيها وعينُها تكاد تغادرها فزعًا وهِيَ ترى كلتيهما ساكنتين، لَا تُصدران اختلاجة واحدة، والدماء تسيل مِنْ بَيْنِهِمَا!

بَعْدَ أَن اعتلت الشمس عرشها، وأرسلت خيوطها تصدح بنورها بكُلِّ مكان، عادت إلَى يُورَان ملابسها مُخضبة بالدماء، جسدها يرتجف مِنَ الغضب، الشرر ينضح بَيْنَ عينيها، دَلين عَنْ يمينها يكاد صَدْرهَا ينفجر حزنًا، وآصَف عَنْ يسارها دموعه تبلل وجنتيه، دفعت باب القاعة المحرمة بكلتا يَدَيْهَا بحنق كادت تنخلع مَعَهُ الأبواب.

انتفضت رُونَا ودَلشيَّر، ومِنْ خلفهما رَيَّان الَّذي فغر فمه ذهولًا للهيئة المزرية الَّتِي بدت عَلَيْهِمْ، وعَلَيْهَا تَحْدِيدًا والدماء تُلطخ ملابسها والجروح تنزف بمناطق متفرقة بجسدها، أكثرها وَجْهُهَا.

انتفض كَال والملكة ومِيلًا، ومعهم كُلُّ مَنْ بالقاعة إلَّا تُولَاي الَّتِي كَانَتْ تجلس إلَى عَرْش والدها ترتدي تاجه وعَلَيْهَا عباءته، بَعْدَمَا تَمَّ تنصيبها ملكة لدَهَّام عَلَى يد مَجْلِس الكهنة الأعلى وعَلَى رأسهم كَال.

تصنمت بهَا عين شَاتَاي الَّذي يُطَوِّقُهُ الحرس بسلاسل الخضوع، بَعْدَمَا أثبت مَجْلِس الكهنة أَنَّهُ مَنْ قتل أخاه.

لتهتف تُولَاي بهدوء...

- أَنْت ضيفتي يا سِيًّا، لَكِن لَيْسَ لَكِ الحَقُّ باقتحام مَجْلِس الملكة بتِلْك الطريقة!

تقدمت بهدوء فَاتِر بَيْنَ نظرات التساؤل الَّتِي صَدَحَت بالقاعة عَنْ هَيْئَتِهَا المزرية، لتقف مُقابل شَاتَاي وعينها مثبتة بعينه...

- أعرف أَنَّكَ مَنْ أرسلت رجالك إِلَى الأَرْض لاختطافِي، مَنْ حاول قتل الملك لَيْلَة الحفل، أَنَّكَ تريد كِتاب القَدَر وعَرْش النُّور.

تسمرت عين شَاتَاي، كادت تُغَادره أنفاسه، فغر الجميع أفواههم مشدوهين، جميعهم إلَّا تُولَاي ومِيلًا! تقدمت مِنْهُ خطوة أُخْرَى فتحفَّز الحرس وسحبوا أسلحتهم، فأوقفتهم تُولَاي وهِيَ تعتدل بجلستها، تسند ظهرها إِلَى الكرسي بارتياح، ترى عيون سِيًّا تلتهب غضبًا، مِنَ الجيد أَن تقتل شَاتَاي وترفع عَنْ كاهلها دماء عمها أمام الجميع، أشارت للجميع أَن يتراجعوا ويتركوهما بالمُنْتَصَف وحدهما.

حنقُ سِيًّا يتوهج بملامحها قَبْلَ نبرتها...

- أعرف اتفاقك مَعَ زَارَا لقتلي أَوْ هَذَا مَا أوهمتَه به، حَتَّى يتسنى لَكَ تدبير خططك الخاصة، تعويذة الاستحواذ، والَّتِي يتطلب إلقاؤها قربانًا مِنَ الدم، دم الأقرب إِلَيْكَ وحبه يتملك قلبك!

ارتمت الملكة للكرسي خلفها، دموعها تُبلل وجنتيها، لَمْ تعُد تَسْتَطِيع تصنُّع القوة، ربتت مِيلًا عَلَى كتفها، تحتضنها، تُهدئ مِنْ حزنها، حرك كَال رَأْسَه مبهوتًا، لَا يُصدق مَا تسمعه أذنه.

زفرت سِيًّا أنفاسها بسخط يتأجج بصدرها...

- كُلُّ هَذَا وأكثر كَانَ يمكنني التغاضي عَنْهُ، يمكنني تخطيه، وحَتَّى المسامحة بِهِ، إلَّا شَيْئًا واحدًا، خطأً واحدًا لَنْ أغفره لأحد.

الْتفتت نَحْو تُولَاي وتسمرت عينها بِهَا...

- رَحِيل!!

استعر الغضب بوجه سِيًّا يركض نَحْو تُولَاي...

- أعلم أنَّكِ الأفعى الْحَقِيقية، أعلم كُلَّ مَا تُخططين لَهُ، رتبتِ كُلَّ شَيْء ليبدو عمك الأهوج المتعطش للحكم هُوَ مَنْ فعلها، اعتقدتَ أنَّكِ الأذكى، وللحق كدتِ أَن تنجحي، لَكِن شَيْئًا واحدًا لَمْ تحسبي لَهُ حسابًا بخطتك...

غُلقت أبواب القاعة فجأة، استدعت سيفها واعتل عينَها حنقٌ مُتطايرٌ كَصوتها الصاخب وسط القاعة...

- إنني لَسْت سِنِمَّار ولست شَاتَاي.

بُهت الجميع، تسمرت العيون المشدوهة بتُولَاي، الَّتي ضغطت ساعدَي الكرسي بغيظ كاد يُفجر مُقلتيها، كزت مِيلًّا أسنانها بخيبة أهلكت روحها، فَكَانَتْ تشك لَكِن قلبها لَمْ يقبل التصديق، تحتضن أمها، الَّتِي هتفت بذهول ونبرة مُتقطعة لَا تكاد تُغادرها...

- قتلتِ... والدك...

قطع صوتَها صوتٌ مُدَوٍّ رجَّ القاعة! حِيْن نزلت سِيًّا عَلَى ركبتيها وقبضة يدها تدك الأَرْض دكًّا فاهتزت مَعَهَا الجدران، واندفع كُلُّ شَيْء للخلف بقوة، اصطدموا بالجدران وسقطوا متألمين، صوبت عينها نَحْو تُولَاي الَّتِي

تُطبق يَدَيْهَا عَلَى ساعدَي كرسي العرش، تُتم بتعويذات مُتلاحقة تُحَاوِل تفادي الهجمة المُباغتة.

لَحْظَة سكون اغتصبت فوضى الأصوات المتألمة مِنْ شِدَّة الارتطام، لتصرخ تُولَاي...

- أيتها الغبية! كَانَ يجب عليَّ قتلك مُنْذُ اللَّحْظَة الأولى.

انتفضت واقفة أَلْقَتْ بعباءة والدها جانبًا واستدعت سيفها، وانتقلت إِلَى الجهة المقابلة مِنَ القاعة، لتقفا متقابلتين...

- أتعتقدين أنني بحماقتهم لأترك هجينًا حقيرة تحكم عالمي؟! عَرْش السَّدِيم حقي وحدي، وسيكون لي، أنتِ لَا تستحقين شَيْئًا!

- تعالَي وخذيهِ.

صَرَخَت سِيًّا بحِقْدٍ اشتعل بوجهها، صَرَخَ آصَف الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعِ الحركة مِنْ قُوَّة اصطدامه بالجدار...

- كَلَّا... لَا تفعلي يا سِيًّا.

لَمْ تكترث لَهُ، أَوْ بالأحرى لَمْ تسمعه، فَلَا تسمع سِوَى صوت انتقامها، هز رَأْسَه حزنًا، فَهُوَ خير مَنْ يعلم أَنَّهَا لَنْ تصمد أمام تعويذة الاستحواذ.

نزلت تُولَاي عَلَى رُكبتها اليُمنى، وفردت ذراعيها عَلَى امتدادهما ثمَّ سحبتهما بسخط، وسحبت معهما سلاسل الخضوع المُعلقة فَوْقَ جدران القاعة، لتلتفَّ حَوْلَ سِيًّا، فنزلت عَلَى ركبتيها، انْتَصَبَت تُولَاي بنظرة غِل شامتة ساخرة، تُوجِّه سيفها نَحْو عُنُق سِيًّا، انحبست الأنفاس، رمتها سِيًّا بنظرة مستهزئة قطَّبت لَهَا تُولَاي حاجبيها استغرابًا! لتجدها انتفضت

واقفة، تُزيح السلاسل عَنْ كتفها وتُلقيها تَحْتَ قدمها كَأَنَّهَا وشاح بالٍ!
كادت عيون تُولَاي تُغادرها ذهولًا!

شُدِهَ آصَف وتصنم الجميع، وهُمْ يرونها ترفع كفها للأعلى فارتفعت السلاسل حَتَّى التصقت بقبضة يدها، أطبقت عَلَيْهَا بِغِلٍّ، وسَكَنَ وَجْهَهَا ابتسامةٌ شيطانية فزِع لَهَا الجميع، إلَّا مِيلَّا الَّتِي تعرف أَن سلاسل الخضوع لَا تُؤثر بِهَا، لَقَدْ شاهدتها بالقبو، صَرَخَت سِيًّا بوجهها...

- إن كَانَ الظلام بداخلك...

ثبتت قدميها أرضًا، أَلْقَت السلاسل نَحْو تُولَاي فالْتفَّت حَوْلَ خصرها، تكاد تعتصرها، والْتمعت غشاوة عينها وراح يتأجج شيطانها...

- فأنا الجحيم بحد ذاته.

سحبتها سِيًّا للمنتصف تعتصرها أَكْثَر حَتَّى دوَّت صرختها وسط القاعة...

- تعرفين أَنَّهُ لَا يُمْكِنك قتلي؟

سحبتها نحوها حَتَّى الْتصقت بِهَا، أطبقت عَلَى عُنُقِهَا، وهمست سِيًّا بغضب صارخ...

- لَا أَحَد يقتل مَيْتًا يا غبية.

دفعتها سِيًّا للأعلى بكُرْه فاصطدمت بسقف القاعة بقوة، ثمَّ أَلْقَتْهَا أَرْضًا فدَكَّت الأرضَ حَوْلَهَا، وتكسرت تحتها، أغمضت تُولَاي عينها بوجع، تحاملت عَلَى نفسها، لحْظَة واختفت مِنْ داخل السلاسل، وظهرت بِطَرْف القاعة مِنَ الجهة الأُخْرَى راكعة عَلَى ركبتيها تتحامل عَلَى ألمها، اندفعت واقفة، سحبت قوسها وصوبت نَحْو سِيًّا عشرات الأسهم الَّتِي سقطت

جميعها أمام حاجز الحماية، صَرَخَت تُولَاي بسخط، ثمَّ أطلقت غشاوة عينها السوداء، دفعت سلاسل الخضوع بآخِر زاوية بَعِيدًا عَنْهَا...

- يَبْدُو أنني استهنتُ بك يا لعينة. لنُنه تِلْك اللعبة السخيفة.

فأشارت لَهَا سِيًّا أَن تَأْتي، اندفعت كلتاهما نَحْو الأُخْرَى، تدفع كُلٌّ مِنْهُمَا رغبتها المُستعرة، تُولَاي لَا ترى إلَّا خطتها الَّتِي كَانَتْ ستنجو بِهَا مِنْ آثامها، خَاصَّة قتْل والدها، أفسدتها عَلَيْهَا هجين حقيرة، ترى كرسي العرش، قُوَّة النُّور وكتاب القَدَر، كُلّ شَيْء تريده، لَا يقف بَيْنَهَا وبَيْنَه سِوَى تِلْك الراكضة نحوها، تستحوذ عَلَى روحها ويصير العالم بَيْنَ قبضتها!

بَيْنَمَا سِيًّا تراها أَسْوَأ كوابيسها، تآمرت مَعَ زَارَا ضِدَّهَا، خططت للاستحواذ عَلَى مَا تبقَّى مِنْ روحها، مَنْ سلمت صديقتها لزَارَا، حمل آخَر تحمله فَوْقَ عاتقها، إثم لَمْ ترتكبه، مَا عادت تتحمل دفع المزيد لقاء ذنوب لَمْ تقترفها.

غامت عين كلتيهما، وتُردد تعويذة الاستحواذ، اندفعتا فِي الهواء وارتطم سيفهما بدوي صَاخِب، هبت عَاصِفَة هائجة حولهما، أثارت دوامة كالطُّوفَان غلَّفَتهما داخلها، والعيون الملتاعة ترقبهما فِي جزع واضطراب وترقُّب، ازدادت الدوامة قُوَّة كأَنَّ إعصارًا يجتاح المكان، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَد التحرك، فكلٌّ يتشبث بأقرب شَيْء راسخ.

حاولت دَلِين العبور للداخل، لَكِن آصَف أطبق عَلَى يدها باستماتة يمنعها، فسحرها لَنْ يعمل بكُلِّ الأحوال كَسحره، فستكون ميتة لَا محالة، غَيْر أَنَّهُ يَعْرِف أَن تِلْك معركة لَنْ يخوضها غيرها.

صقرَا تَليد يضربان زجاج القاعة مِنَ الخارج يحاولان الولوج دُونَ أمل، فظلا يُحلقان فَوْقَ القبة الزجاجية ثائرين بحنق كَثورة زُمُرُّدة المُقيدة لَا تَسْتَطِيع فعل شَيْء وهِيَ ترى ابنتها تَذْهَب لحتفها.

شَاتَاي يُحَاوِل تجاوُز صدمته، لَا يصدق أَن تُولَاي هِيَ مَنْ قتلت أخاه، رَغْم عِلمه بتهورها لَكِنْ مَا توقع أَن يصل جنونها لقتل أبيها، أَن توافق عَلَى مَا رفضه، حِيْن أراد مِنْهُ زَارًا قتْله كاد يقتل زَارًا، هُوَ بالفعل يريد العرش لَكِن لَيْسَ عَلَى دماء أخيه الوحيد!

حاول الوصول لِمِيلَّا الَّتِي تُحَاوِل التشبث بأحد أبواب الشرفة وتُمسك يد أمها المسكة بأقرب عمود لَهَا، فهِيَ أضعف مِنْ أَن تستخدم أَيَّ سحر يُجابه عَاصِفَة كلتيهما، تكاد يدها تنزلق وتترك مقبض الشرفة فتسحبها الدوامة، عافر عمها حَتَّى وصل إِلَيْهَا وأطبق عَلَى يدها يسحبها إِلَيْهِ، يُخبئها داخل حضنه.

كَال يكاد يُجن لِأَنَّهُ مسجون داخل القاعة مسلوب الإرادة والقوة، عاجز عَنْ فعل شَيْء لإنهاء تلْك العاصفة الَّتِي يعلم أَنَّهَا ستأخذ الجميع بدوامتها، الأسوأ أَنَّهُ الآنَ يَعْرِف أَن تُولَاي تخطت كُلَّ الحدود، وأن المعركة محسومة لأجلها، فمَن يمتلك قلبًا أَكْثَر ظلامًا مِنْ روح قدمت أباها قربانًا لتحصل عَلَى السلطة والقوة! يسب نفسه وغباءه فكيف لَمْ يرَ كُلَّ هَذَا الظلام بِهَا؟! يعلم أَنَّهَا مُتَمَرِّدة جامحة لَا يُمْكِنُ التنبؤ بأفعالها، لَكِن أَن تصل إِلَى هَذَا الحد، فهَذَا أَكْبَر مِنَ استيعابه!

رُونَا تضرب الأَرْض بسخط، لَا تَسْتَطِيع فعل شَيْء، كَرَيَّان ودَلشيَّر، فجميعهم بالكاد يَسْتَطِيعون التمسك بأنفاسهم وأجسادهم.

صوت احتدام السيفين تهتز لَهُ جدران القصر، لَمْ تتوقف إِحْدَاهُمَا عَنْ ترديد تعويذاتها، وتوجيه الضربات الموجعة للأخرى، وحدهما خارج حُدُود الزمان والمكان والكون بأكمله، كُلٌّ مِنْهُمَا لَا ترى ولَا تسمع سِوَى رغبتها الجامحة فِي الانتقام وامتلاك الأُخْرَى، ومَعَهَا امتلاك كُلِّ شَيْء، غُلقت بَيْنَهُمَا السبل!

بَعْدَ دقائق كثيرة مرت كدهر هَرَم لَا يقوى على الحركة، هدأت العاصفة، تلاشت الدوامة رويدًا رويداً، سقطت سِيًّا أَرْضًا بمُنْتَصَف القاعة، بَيْنَمَا ظلت تُولَاي واقفة عَلَى قدميها، مُنحنية قليلًا تستند إِلَى سيفها، كلتاهما مضرجة بدمائها، تملؤهما الجروح الغائرة! لَمْ يَتَحَرَّك أَحَد، الكُل بحالة ذهول، فكلتاهما تبدو كأَنَّهَا حاربت ألف شَيْطَان وخرجت مهزومة!

حاول الجميع التماسك والوقوف، نظر كِلَا الكاهنين أحدهما للآخر وخرج صوتهما متزامنًا قويًّا رخيمًا، وهما يحاولان الوقوف مُجَدَّدًا...

– صاحب القلب الأكثر ظُلمة مَنْ سيظل عَلَى قدميه!

تِلْك هِيَ القاعدة الوحيدة لتعويذة الاستحواذ، تعويذة الظلام الأعظم كَمَا يلقبونها، لَا يهم مَنْ يُطلقها أَوَّلًا، الأهم مَنْ يُقدِّم قُربانًا أثمن، وروحه أَكْثَر ظُلمة، وحده مَنْ ينتصر.

العيون مُعلقة بتُولَاي الَّتِي بدأت تعتدل بوقفتها، تشهق بقوة وأنفاسُها يُلاحق بَعْضُهَا بَعْضًا، وتضحك ضحكات صاخبة مدوية، وعينها تنظر نَحْو كفيها، تشعر بقُوَّة غريبة تتدفق داخلهما.

تركض دَلِين بفزع نَحْو سِيًّا الَّتِي لَا تتحرك، اختطفتها إِلَى حضنها ودموعها تهطل، سُلْسِلَتْ رُونَا مِنَ الفزع، هَارَتْ أنفاس دَلشِيَّر، خَرَّ آصَف

أرضًا فيعلم أَنَّهَا لَم تَكُنْ لتصمد، انْهارَ رَيَّان جَاثيًا أمامها، أمْسَك بكفها ونبضُه يتهاوى، جَثَمَ صقرا تَلِيد فَوْقَ سقف القاعة الزجاجي، رَقَدَت زُمُرُّدة، كُلُّهَا غادَر الحياة، سقطت ابنتها وسقط مَعَهَا قلبها وروحها! والحياة بأكملها! وضاع كُلُّ شَيْء!!

العَاشِر

«دَعْنَا لا نُغَامر مَعَ الحَياة، فَالمَوْت يَسْتَحِقُّ أَن نَترُك لَهُ المُغَامرة الكُبرى!»

سِيًّا

نظرت تُولَاي نَحْو كَال المُتسمِّر، يتنفس ببطء يكاد قلبه يتوقف، أيقن الآنَ أَن الجميع هالكون، تبسمت لَهُ...

- سألتَني سَابِقًا هَلِ القوة والسلطة تستحقان الدماء الَّتِي تُراق مِنْ أجلهما؟

زادت ابتسامتها، وعينها عُلقت بكفيها...

- إنَّهما تستحقان كُلَّ قطرة أُريقت لأجلهما، اللعنة عَلَى تِلْك النشوة! إنَّهَا تستحق أَيَّ شَيْء.

هزت رَأْسَهَا بابتسامة حزينة، تنقل عينها بَيْنَ أمها مِيلَّا وشَاتَاي، ثمَّ ركعت عَلَى ركبتيها، تستند إِلَى سيفها.

اعتدل رَيَّان وتملك وَجْهَه الذهول! تسأله دَلِين بعينها عَنِ انتفاضته المفاجئة، لينظر نَحْو يد سِيًّا المستقرة بكفه، ليرى أناملها تنتفض انتفاضات خائرة!

صَرَخَت صرخة يغمرها الفرح «**سِيًّا**»، نظرت نَحْو آصَف بنظرة مشدوهة، ثمَّ عاودت النظر إِلَى يدها، مَا شعرت بِهِ حقيقي أَنَّهَا تُحرك أناملها! ازدادت حركتهما وازدادت مَعَهَا عينا دَلِين جحوظًا، هرولت رُونَا نحوها تُمسك بكفها، تشعر بحركتها الواهنة، كَآصَف الَّذِي انكَفَأ عليها يُنادي باسمها.

أَخَذَت انتفاضاتها فِي ازدياد، انحبست الأنفاس والدموع، شهقت سِيَّا أنفاسها فجأة، تفتح عينها بَغتة وتنتفض بجذعها العلوي للأعلى دَفعة واحدة، ارْتَبَكَ الجميع، وعيونهم تعلقت بتُولَاي الَّتِي سقطت عَلَى الأَرْض بذات اللحظة، تنتفض انتفاضات خائرة، ركضت مِيلَّا نحوها وأُمَّها الَّتِي احتضنتها ودموعها تنهمر، أَرَادَتْ تُولَاي التفوُّه بشيء لَمْ يُغادرها، أغلقت عينها، رَقَدَ جسدها، وخبت أنفاسها للأبد.

تعتع كَال وعَيْنُهُ معلقة بكلتيهما «**يَبْدُو أَن للظلام حسابات جديدة**».

لبثت سِيَّا للَحْظَة تشهق أنفاسها تُحَاوِل استردادها، ثمَّ انتفضت واقفة، تَفَحَّصَت بعينها الممددة أَرْضًا، أَلْقَتْ نظرة طويلة نَحْو آصَف دُونَ أَن تنبس ببنت شفة، وغادرت.

تبادَل جميعهم النظرات المتباينة بَيْنَ القلق والتردد والخوف والدهشة الَّتِي قطعتها دَلِين بكونها أوَّل مَنْ تبعها خَارجًا، ثمَّ رَيَّان ودَلشيَّر، ظَلَّ آصَف ورُونَا يتبادلان النظرات غير المُصدِّقة، ثمَّ رحلا! وغادرا الصقرَين.

ظَلَّ شَاتَاي وكَال عَلَى وقفتهما حَوْلَ جثة تُولَاي، الَّتِي تحتضنها أمها وتبكي بحرقة، ودموع مِيلَّا الصامتة تنهمر، تُمسك بكف أختها، فخسرت الكثير بأيام قليلة؛ أباها وأختها.

حرك شَاتَاي رَأْسَه بغير رضًا وعَيْنُهُ مُعلقة بجثتها...

- لَمْ نكن لنحتمل ظلامك المحدود، والآنَ أيقظتِ لَنَا شَيْطَانًا.

يكاد عقل آصَف يغادره، انْهَلَّت خطواته جِيْئَةً وذَهَابًا، كَيْفَ حَدَثَ هَذَا؟! أيعقل مَا حَدَثَ.! أيُعقل أَن قيود الخضوع لَمْ تقوَ عَلَيْهَا؟! كَيْفَ وقَدْ أخضعَتها أمام الجميع سَابقًا؟! كَيْفَ ظلت عَلَى قدميها أمام تعويذة بقوة وظلام تعويذة الاستحواذ؟! توقف عقله عَنْ فهْم أيٍّ مِمَّا يَحْدُثُ! تِلْك المرة قَدَرُه سَحَقَه بالضربة القاضية.

دَوْمًا تكسر كُلَّ القواعد، تُحطم كُلَّ مَا يعرفه، بِهَا شَيْء لَمْ يرَ لَهُ مثيلًا ولَمْ يسمع عَنْهُ! وَلَا حَتَّى بملكات النُّور الأُوَلِ اللاتي أنهَيْن حروب الظلام، لَمْ يفعلْن مَا فعلَته! لَمْ يحطمن كُلَّ قواعد عالم السحر والقوة الَّتِي يعرفها! تجمد عقله فجأة وهمس شيطانه «**أيُعقل أن يكون...؟!**» هز رأسه نفيًا برفضٍ قاطع قبل أن يتفوَّه عقله حتى بمجرد الفكرة، مستحيل!

بَيْنَمَا تجلس هيَ إِلَى طرف السرير، لَا تتحدث إِلَى أَحَد، يسقط كُلُّهَا بالفراغ وعقلها لَا يُمسك إلَّا بكلمات رُهَانَا الأخيرة لَهَا ومَا همست به فِي أذنها، تشعر بشيء واحد يضرب داخلها، شعور بالألم يسيطر عَلَيْهَا، يُطبق عَلَى ضلوعها.

الجميع يجلسون بأماكن مُتفرقة لَا يستطيعون أَن يبعدوا أنظارهم عَنْهَا، أصواتهم لَا تَجْرُؤ أَن تُغادر حناجرهم، وفيضان أسئلة صارخة يضرب بعقولهم، تنتهي جميعها بـ «كيف حَدَثَ هَذَا؟!» ويتردد بَيْنَ جنبات عقلهم مشهدها وهِيَ تتلاعب بسلاسل الخضوع كَأَنَّهَا لَا شَيْء! وكلمات الكهنة «**صاحب القلب المظلم مَنْ سيظل عَلَى قدميه!**» تَبًّا، كَيْفَ فعلت كُل هَذَا؟!

قلَّبَت عينها بَيْنَ العيون حَتَّى وصلت دَلشيَّر، يرميها بابتسامة حانية! ابتسامة بدت دخيلة عَلَى اللوحة الَّتِي ترتسم بجدارة عَلَى الوجوه بَيْنَ

الترقب والخوف والدهشة والاكْفهْرار، بدت ابتسامته الحانية بصدق مواسية مِنَ القلب، دخيلة بشكل هَزْلِيٍّ!

انتصبت واقفة، تَبَحَّرت النظر بِهِ، لَحْظَة واختفى كلاهما مِنَ القاعة!

وجد نفسه يقف داخل أَحَد كهوف دَهَّام، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَيَّ كهف بَلْ كهف الملك الَّذِي دخلته سَابقًا ورأت بِهِ الخنجر والمخطوطة، والَّذِي كَانَتْ تستخدمه تُولَاي دُونَ علمه ليخفي آثارها بقوة سحره!

أطبقت يدها عَلَى المخطوطة، أغمضت عينها تُردد تعويذة صامتة، لَحْظَة وتحولت المخطوطة بَيْنَ يَدَيْهَا إِلَى رماد نثرَته فِي الهواء.

سحبت خنجرها، وضعت مقبضه بيد دَلشيَّر ووجَّهَت نصله نَحْو قلبها...

- بَعْدَ أَن أستعيد أُمِّي، لَا تتركني أُصبح زَارَا آخَر أَوْ تُولَاي جديدة.

اهتز الخنجر بيده، فأطبقت يدها عَلَى ذقنه وثبتت عَيْنَهُ بعينها...

- حِيْن تجدني خرجت عَنِ الطريق، افعلها دُونَ تَرَدُّدَ، لَا أثق بغيرك لفعلها.

تبسمت بمسحة حزن تَمْلأ عينها...

- لَا تخذلني يا صديقي.

أومأ انْصِياعًا، يبتلع غصة قلبه، يكتم دموعه الَّتِي تكاد تخذله، فَهُوَ أَكْثَر مَنْ يشعر بألمها الآنَ، فقبْلها شعر بكونه المنبوذ مِن نفسهِ، ومِنَ الحياة حينما انضم لجيش الظلام، وحينما هزمت جيشه وقتلت قائده

وصَارَ أسيرها، لَكِنَّهَا لَمْ تشعره بِذَلِك لِلَحْظَة حينما انحنى لَهَا، وضع الخنجر بخصره وضمها إِلَى صَدْرِه، شعر بدموعها الساخنة تُبلل كتفه فتركها تُخرج مَا ضَاقَ بِهِ صَدْرهَا وَلَا تَسْتَطِيع أَن تُطلقه طوال الفترة الماضية العاصفة.

- مَاذَا الآنَ يا مولاي؟

جَاءَ سؤال أَخْزَم المُتصبب عرقًا، يقف قَرِيبًا مِنْ عَرْش زَارَا الَّذِي لَا يُصدق مَا وصله مِنْ عيونه بدَهَّام، رفع طرف عَيْنَهُ نَحْو أَخْزَم، أطبق يده عَلَى ساعدَي الصقرَين بسخط لَمْ يُدارِه، انتفض واقفًا، لَحْظَة واختفى مِنَ القاعة، وظهر داخل قاعة الحياة!

لَحْظَات وظهرت أمامه، داخل قاعة الحياة بمعبد دَارَا، وقفا مُتقابلَين بذات المكان الَّذِي الْتَقَى بِهِ لأول مرة، يقفان عَلَى بُعدِ خطوات معدودة مِنْ شمعتها المتوهجة بصخب!

سخر داخله، فرغم أَنَّهُ ذَاتَ المكان فإنهما اختلفا، حينها كَانَتْ ضعيفة مذعورة خائفة يكاد قلبها يقف رهبة، بَيْنَمَا الآنَ تقف أمامه نظرتها ثابتة، أقدامها راسخة، سيفها يلتمع بقبضتها، بدت برَأْسِهَا الحليق والدماء الَّتِي تُطلخها شَيْطَانًا!

أَوْغَل النظر بهَا، بدت لوهلة «**هُوَ**» هَذَا أَوَّل مَا تبادر إِلَى ذهنه، أصبحت تُشبهه إِلَى حدٍّ أقلقه، بَلْ وأربكه، يَعْرِف تِلْك الأنفاس الصاخبة بحنقها، والنظرة الساخطة بتمردها، واليد القابضة بانتقامها، نسخة

مكررة منْهُ وهَذَا أَكْثَر مَا أفزعه! حَتَّى إن كليهما حاضر بجسده الآنَ أمام الآخَر، لَا يخشاه، أو يهابه، كأَنَّ حاجز الخوف والرهبة انْكَسَرَ فَلَا يعبآن وَلَا يكترثان إن اشتعل الجحيم الآنَ بَيْنَهُمَا!

سخرت بابتسامة حانقة مِنْ طرف فمها...

- هَلْ ستُعلن استسلامك؟

تبسم بخيَلاء، لتُبادله مثيلتها...

- جَيِّد لأنني لَا أنوي اقتلاع قلبك إلَّا وأنت رَاكع مهزوم، هَكَذَا سيكون الأَمْر مُرضيًا أَكْثَر.

- أَنْتِ مَنْ ستعلن استسلامها، والآنَ.

- هَلْ أبدو لَكَ كشخص أتى ليستسلم!

- لديَّ أُمُّك.

رماها بنظرة شماتة مُنتصرة، وأشار بطَرْف يده ليُنير طرف القاعة المظلم، فظهر طيف زُمُرُّدة مُقيدة فَوْقَ حشيتها، جالسة راسخة لَا تكاد تفرقها عَنِ ابنتها فِي جأشها وصلابتها ونظرتها الساخطة رغم وهن جسدها الخائر! رمت كُلٌّ مِنْهُمَا الأُخْرَى بنظرة لَمْ يفهم معناها، لَكِن أصابه الذهول وعَيْنُهُ تصنمت مِنْ رَدِّ فِعْلِهِمَا الغريب، لترفع سِيًّا حاجبها...

- أَنْتَ حَقًّا أصبحتَ مدعاة للشفقة!

كشر وَجْهُه بغيظ، هزت رَأْسَهَا بنفاد صبر وابتسامة ساخرة...

- ألم يُخبرك أَخْزَم باتفاقنا؟! رأسك مُقابل زُمُرُّدة.

تَملَّكه الذهول، غمزت لَهُ بِطَرْف عينها...

- فِي الحرب لَا تُدر ظهرك لأحد، فالخونة خلف كُلَّ باب، اعتقدت أَنَّك خير مَنْ يَعْرِف هَذَا!

اغتل وَجْهُه سخطًا، استدعى سيفه...

- إما أَن تركعي الآنَ أَوْ سأُعلق رَأْسَهَا ورأسك فَوْقَ الباب الدموي؟

عقدت حاجبيها وأحكمت قبضتها عَلَى السيف...

- لَنْ تفعل، فأنت قتلت الجميع لأجلها!

فغر عَيْنَهُ مبهوتًا، اهتزت يده، زادت خطوة وزادته دهشة...

- سَمعْتَ أَحَد كهنة السر الأعظم يتحدث عَنْ طقوس نقل حماية كتاب القَدَر لزُمُرُّدة، فخططتَ لمذبحة إِلكَاي، أَنْتَ لَمْ تقتلهم لأجل العرش، فالعرش مُجَرَّد شَيْء ثانوي بجوار الكتَاب، فتاة صغيرة يُمْكنكَ السيطرة عَلَيْهَا والحصول عَلَى عوالم بأكملها بَعْدَهَا، لَكِن الغبي نُوَاه أفسد كُلَّ شَيْء، وأضاعها، اختفت الحامية!

تريثت، ترى الذهول يحفر وديانًا بتعابير وَجْهِه المتفاجئ بكونها تعرف، لتَزيده...

- حيْن وجدتَها لَمْ تَسْتَطِع الحصول عَلَى شَيْء، ألم تسأل نفسكَ لِمَاذَا رَغْم كُلِّ سحركَ وتعويذاتكَ لَمْ تَسْتَطِعِ الوصول إِلَى الكتَاب؟

ضَيَّق عينيه، يُحَاوِل تجاوز دهشته بكونها تعرف مَا لَمْ يعرفه أحدٌ غَيْرُه، وفكر أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الوصول إِلَى الكتَاب لأَنَّهُ داخل القاعة، والقاعة مُغلقة بنبوءة رُهَانَا فابتسمت سِيًّا بمكر لِمَا فَكَّرَ بِهِ...

- هَلْ سألتَ نفسك يومًا مَا طقوس السر الأعظم؟

تَجَمَّدَ عقله، تبعثرت أنفاسه، وقَبْلَ أَن يتفوَّه أَحَدُهُمَا بحرف آخَر، شعر بشيء يخترق تعويذته حَوْلَ المعبد! وأصوات مُدوِّية تضرب بكُلِّ مكان، انتفض بموقفه، دُفع باب القاعة ودخل حرسه يصرخون...

- إنهم بكُلِّ مكان، يحاولون فتح الباب الدموي!!

ذُهل بموقفه، صرخة مكتومة تكاد تشق صَدْره خارجًا لَمْ يَسْتَطِعْ إخراجها، لَا يُصدق أَنَّهَا تخترق حصونه!

الْتفت نحوها، رمته بابتسامة ساخطة واختفت مِنْ أمامه، ظهرت داخل القاعة الدخيلة، أمام أمها تضرب السلاسل بسيفها بقوة تُحطمها.

آصَف وكَال كلاهما واقفان أمام الباب الدموي يتراجعان خطوات مَشْدُوهَين، وهُما يُغطيان آذانهما الَّتِي تكاد تُصم، بسبب صوت صرير قفله الَّذِي راح ينزلق، بصوت هدرت لَهُ جُدران القصر بأكمله واهتزت، بَعْدَمَا سكبا فَوْقَ قفله قنينة تمتلئ بدمائها، فدوى صاخبًا وبدأ يُفتح عَلَى مصراعيه.

دَلشيَّر ودَلِين يقتحمان حصون القصر وخلفهما جنود النُّور، شَاتَاي وتيَّام يهاجمان معبد دَارَا بجيش دَهَّام، رُونَا ورَيَّان والرَّوْشَم يسيطرون عَلَى كُلِّ مكان.

يُحَاوِل استيعاب صدماته المتلاحقة، يشعر بهم جَمِيعًا يقتحمون قلاع سطوته، الرَّوْشَم فِي كُلِّ مكان، قُوَّة سحرها تنساب بَيْنَ ردهات رُوسِيل، التعويذة الَّتِي تُحاوط الحجرة الدخيلة تنكسر، الْتفت ليجدهم يقتحمون قاعة الحياة، هَدَرَ بحنق مُستعر وغامت عَيْنُهُ بغشاوتها السوداء وضرب أرض القاعة بيده فسقط الجميع أَرْضًا، واختفى!

ظهر داخل القاعة الدخيلة ليجدها فارغة مِنْ كلتيهما، أطلق صرخته الغاضبة لَمْ يَسْتَطِعْ كبحها أَكْثَر، تتبع سحرها حَتَّى وجدها بنهاية الردهة، فظهر أمامها لَكِنها كَانَتْ وحيدة فلَمْ يكترث!

زادت غشاوته سوادًا، أطلق يده فِي الهواء فأطبق عَلَى عُنقها ودفعها للجدار المقابل فسقطت، تأوهت مِنَ الألم، وقَبْلَ أَن تقف عاود إطباقه عَلَيْهَا، رفعها للأعلى ثمَّ دفعهَا للأرض بحِقْد، لتُشَجَّ جبهتها وتنزف بغزارة، لتشعر بشيطانها يستيقظ، تبسمت بحنق فَهَذَا كُلُّ مَا تنتظره.

أطبق مُجَدَّدًا عَلَيْهَا يسحبها نحوه، لتلبسها غشاوتها وتدفع بقدميها الأَرْض تُوقف اندفاعها نحوه، كأَنَّ حبلًا خَفِيًّا مربوطٌ كلاهما إِلَى طرفه، يسحب بكُلِّ جَبَرُوته وتتمسك بكُلِّ عَزيمَتها، رسخت قدمها بالأرض بمُنْتَصَف المسافة بَيْنَهُمَا، ليزداد اهتياجه، فانطلقت دوامة حَوْلَهَا، تُحَاوِل اقتلاعها عَنِ الأَرْض الَّتِي تتشبث بِهَا.

دوَّت صرخته العاصفة وسط الجدران حِيْن باغتته دفعة قوية فِي ظهره! فرمته عدة أمتار بَعِيدًا، الْتفت ليجد زُمُرُّدة تُحَاوِل الوقوف عَلَى قدميها، رَغْم قواها الخائرة، فإِنَّهَا تُجاهد بكُلِّ اسْتِقْوَائها لتُبعده عَنِ ابنتها، وقف الزمان وسَكَنَ المكان بَيْنَهُمَا.

عادت غشاوته ودفع كفيه باتجاه زُمُرُّدة لتندفع عدة خناجر نحوها، استقرت جميعها بالحائط! طوَّقَتها سِيًّا بذراعيها واختفت مِنْ أمامه لتظهرا خلفه، سقطت زُمُرُّدة أَرْضًا، لَا يقوى جسدُها المسلوبُ القوى على المزيد، أغمضت سِيًّا عينيها، تُوليه ظهرها، تحتضن أمها المسجاة أَرْضًا، حِيْن أطلق نحوها كُلَّ السيوف والخناجر الَّتِي تَمْلأ الردهة، فاصطدمت

جميعها بحاجز الحماية وسقطت حولهما، زاد سخطها، أطلقت غشاوتها فاختفت أمها مِنَ الردهة، وظهرت داخل القاعة المحرمة مغشيًّا عَلَيْهَا.

انْتَصَبتَ واقفة، رمته بنظرة كَراهِيَة «**هيا تُولَاي لنرَ لأيٍّ مدًى لَا تُخطئين هدفًا!**» باغتته بقفزة للأعلى وسحبت قوسًا وأمطرته بوابل مِنَ السهام، لَمْ يُخطئ أيٌّ منهَا هدفه، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِع الصمود أَكْثَر، فاختفى داخل عباءته، وظهر راكعًا قريبًا مِنَ الباب الدموي، فلَمْ يَسْتَطِعْ الابتعاد أَكْثَر، مُخضبًا بدمائه.

ليجد دَلِين أمامه، هاجمته بقَسْوَة فأسقطته أَرْضًا، أشهرت سيفها وقفزت فوقه تطعنه لتجد سيفها يصطدم بالأرض، ظهر عَلَى بُعدِ أمتار مِنَ الباب، لتلمح عَيْنُهُ زُمُرُّدة مُمددة بالداخل!

تَوَغَّرَ قلبه بسواد هزيمته السحيقة، يرى جثث حراسه يملؤون الردهات، ويشعر قُوَّة سحرها يجتاح كُلَّ تعويذاته داخل القصر وخارجه، يشعر بسطوة وجوده تتلاشى عَنْ كُلِّ مكان، وتسْتَوْطِنَ سطوتها، تمتم بوجه حاقد، انتفض وَاقِفًا، فَإِنْ كَانَ الخاسر فَلَنْ يكون الوحيد، ثبت قدميه أمام الباب الدموي، ينظر نحو زُمُرُّدة، وبدأت تزداد تمتماته، ليجد دَلِين وآصَف وكَال يضربون مِنَ الخَلْف ببأسٍ شديد، فالْتفت نحوهم وأطلق غشاوته السوداء، وأطبق عَلَى أعناقهم وألقى بِهِم إِلَى جانبَي الحَائِط، فسقطوا ساكنين.

الْتفت ليجدها أمامه، تقف أمام الباب الدموي، حائلًا بينه وبين أمها، فأطبق عَلَى عُنُقِهَا، يَصْرُخ بِبُغضٍ يغلي بأنفاسه...

- أيتها اللعينة!

ظَلَّ يضربها بالجدران للأعلى والأسفل، حَتَّى سقطت أَرْضًا تنزف بغزارة، فازدادت فورته فِي انتقامه المستعر مِنْهَا، تنظر نَحْو أمها الممددة داخل القاعة، واهنة دموعها تغرق وَجْهَهَا وهِيَ ترى ابنتها تكاد تزفر آخِر أنفاسها.

راحت تزحف سِيًّا نَحْو أمها ودماؤها تغطي الردهة، وهُوَ خلفها لَا يتوانى عَنْ مهاجمتها بقوة، ثُمَّ رفعها عَنِ الأَرْض وألقى بِهَا بكُلِّ شلالات غضبه بالجدار المقابل داخل القاعة، فارتد جسدها مِنْ هول الاصطدام لمُنتَصَف القاعة، دموع أمها تنهمر ونحيبها يعلو وعينها ترى جسد ابنتها سَكَنَ.

ثبتت دُونَ حراك والدماء تسيل مِنْهَا، ظهر أمام جسدها، انحنى وأمسكها مِنْ رَأْسِهَا يُطبق عَلَى عُنُقِهَا، ونحيب زُمُرُّدة وصل للصراخ، تكاد ابنتها تَلفِظُ أنفاسها داخل قبضته، يرفعها للأعلى، يُوجهها نَحْو أمها، ثُمَّ نَحْو كرسي العرش...

- سأُعلق رَأْسَ كلتيكما فَوْقَ ساعديه، سأُصفي دماءك فوقه حَتَّى أحصل عَلَى الكِتَاب.

همست بصوت يكاد يُغادرها مِنْ شِدَّة إطباقه عَلَى عُنُقِهَا بشيء لَمْ يتبيَّنْه، فأرخى يده قَلِيلًا، قرب أذنه مِنْ فمها لتعاود همسها وَمَا زَالَتْ يَدُه عَلَى عُنُقِهَا...

- أَحْمَق مَنْ يبحث عَنْ شَيْء بين يديه طوال الوَقْت.

فغر عَيْنَهُ مشدوهًا مِنْ صدمة مَا تفوَّهَت بِهِ، كشر حاجبيه بِعَدَم استيعاب، قرأتها بعقله «**زُمُرُّدة الحامية، والكتاب أَسْفَل كرسي العرش،**

هُوَ يُوقن بذَلك! فما الَّذي تعنيه!!» ابتسمت بسخرية شامتة، كز أسنانه بسخط، وزَمْهَرَت عينه...

- أَيْنَ الكِتَاب وإلَّا اقتلعت رأسك الآنَ؟

- لَا يُمْكِنك.

فزاد إطباق يده حَوْلَ عُنُقِهَا، همست مُجَدَّدًا لينحني نحوها، فأطبقَت عَلَى عُنُقِه بغتة، تبدلت نظرتها الواهنة لأخرى شيطانية، وجسدها المُدَمَّى الخائر القوى اسْتَوَى بجَبَرُوت وعَزِيمَة، وتجذرت أقدامها أَرْضًا بصَلابَة، وهمست بنبرة أوقفت دماءه «**لأنني أَنَا الكِتَاب**»

قذفته إِلَى أبعد زاوية فِي القاعة، ونبرتها تهز أرجاء القاعة...

- الآنَ دوري!

ضربت الأَرْض بيدها فأغلقت الباب الدموي، أطلقت غشاوتها وصَكَّت قبضتها فِي الهواء فأَوْصَدَت عَلَى عُنُقِه وجرَّته أَرْضًا بطول القاعة الشاسعة، أَلْقَتْ بِهِ بسخط أَسْفَل الكرسي، ليصطدم بسلم العرش يدكُّ عظام ظهره!

حاول الاعتدال يُطلق غشاوته السوداء، فَرَدَت يَدَيْهَا عَلَى امتدادهما...

- مرحبًا بك داخل القاعة المحرمة.

فانتبه أَنَّهُ داخل قاعة رُوسِيل، قاعة النُّور الحقيقية، والَّتِي ترتبط بسحرهم ودمائهم، وهَذَا الفخ الَّذِي أوقعته به، فخ كاد يُكلفها حياتها، لَكن كَمَا أخبرها آصَف كُلَّمَا غَلَا مَا تطمحين لَهُ عَظُم مَا تدفعينه، وقتْل زَارَا يَسْتَحِقُّ، حَتَّى وإن دفعت حياتها ثمنًا، لَمْ تَكُنْ لتترك المَوْت يرحل خالي الوفاض مِنْهُ، وإن أَخَذها مَعَهُ.

فأصبح أعزل مِنْ كُلِّ شَيْء، سحره وقوته وسطوته وعقله الَّذِي ظَلَّ محتجزًا داخل صوتها «**لأنني أَنَا الكِتَاب**»، فَقَلَت تجذبه للواقع والألم، تُغلق عَلَى عُنُقه تكاد تخنقه...

- دعني أُخبرك مَا طقوس السر الأعظم، بَعْدَ ضياع الكتاب بالمرة الأولى وإنهاء حروب الظلام، اكتشفن الراهبات ضياع بَعْض التعاويذ فقررن نقل محتويات الكتاب إِلَى جسد وعقل حاميته، لذَلك لَمْ يَسْتَطِعْ أحدٌ أن يجده بَعْدَهَا، فتصير هِيَ الكِتَاب والكتَاب هِيَ، يمنحها كُلَّ شَيْء وأَيَّ شَيْء، ولأَنَّك غبي أَحْمَق لَمْ تُفكر أَن تسأل كاهن السر الأعظم مَا الطقوس قَبْلَ أن تقتله.

زادت سخريتها الحانقة، تضرب جسده بالجدار...

- حِيْن حملَت بي كَانَتْ تعلم أَنَّهُ لَمْ يعُد أمامها خيار، ولَنْ يكون هُنَاك الوَقْت الكافي ليختار الكِتَاب حاميته الجديدة، فقامت هِيَ بطقوس السر الأعظم ونقلت الكِتَاب لي وأَنَا جنين ببطنها.

دفعته مُجَدَّدًا إِلَى الزاوية المقابلة...

- كَانَتْ مُخاطَرة غَيْرَ محسوبة وغَيْرَ مأمونة العواقب، لَكنَّهَا كَانَت المجازفة الوحيدة المتاحة أمامها، فاتخذتها، غَيْر أَنَّهَا تعرف أَن بكُلِّ مرة تحمل حاميه بجنين يتسرب جزء مِنْ سحر الكتاب عنوة لَهُ، فَكَانَتْ سِيسيليَا حافزها الأكبر لاتخاذ المجازفة.

سحبته مِنْ عُنُقِه وألقته أسْفَل العرش مُجَدَّدًا...

الآن أصبحت تعرف من أين لي تِلْك القوة التي فاقتْهن جميعًا، جميعهن اكْتَسَبْنَها إلَّا أنا وُلِدت بها.

سحبته أسفل قدمها بغضب يتأجج بصدرها....

- أَحْمَق أَن اعتقدتَ أَنَّكَ استطعت الوصول إليها، هِيَ مَنْ تركتك تجدها لتُعيدك إِلَى نقطة الصفر، وإبعادك عَنِ الكتاب والَّذي أَصْبَحَ أَنَا! ألم أُخبرك أَنَّهُ كَانَ أَمَامَكَ طوال الوَقْت! كلتانا كُنا بَيْنَ يديك!

استدعت سيفها ورفعته للأعلى، تطبق باهْتِيَاج عَلَيْهِ، لتصرخ أمها...

- لَا تفعلي.

تزداد إطباقًا وتزداد غشاوتها الْتماعًا، لتعتدل أمها تسترد أنفاسها...

- أَنْت لَسْت مثله.

رماها بنظرة شامتة مستفزة ويصرخ بِغِلٍّ...

- هيا افعليها، كلانا شَيْطَان، وجهان لعملة واحدة، لقَدْ أُريقت عَلَى يديكِ دماءٌ وأُزهقت أرواحٌ فِي أشهر معدودة، أَنَا لَمْ أحصدها فِي سنوات.

زاد غِلُّها، واهتياج شيطانها المتعطش لدمائه، يحثها على أن تفعلها، يدفع كل ذرة بعقلها وجسدها لقتله، لتزحف أمها نحوها...

- لاَ تفعلي... القوة لَيْسَتْ أَن نتجنب الإثم، بَلْ حِيْن يأتينا نستعصم مِنْهُ، لَيْسَتْ أَن ننتقم بَلْ حِيْن يصبح بَيْنَ أيدينا نغفر، حِيْن تواتيك الفرصة لغرس السيف بقلب عدوك لَا تفعل.

اهتز السيف بيدها، وكل اختلاجة بها تصرخ بصراع ينشب مخالبه داخلها، بين ما تتوق له شهوةُ انتقامها، وما تُجاهد للتشبُّث به مما تبقى مِنْ أشلاء روحها المُمزَّقة بَيْنَ طرقاتٍ ما أرادت أن تخطو بها يومًا! بَيْنَ ظلام يركض بداخلها كمفترس جامح لن يتوانى عن تمزيق روحها

الضالة، وبَيْنَ آخِر خيط مِنْ نورٍ واهٍ تتعلق به لعلها تجد يومًا خلاصها وما تبعثر منها على طول المسير!

هدرت صرختها الساخطة وهِيَ تضرب السيف أَرْضًا بجوار رَأْسِه، زَالَتْ غشاوتها، تنفست أمها الصُّعَدَاء، انفتح باب القاعة، دلفوا مُسرعين، تَباطَأَت خُطاهم للمشهد، أمها بالزاوية وسيًّا قريبة مِنَ العرش وزَارَا مُلقًى خلفها تَحْتَ سُلَّمه مَا زَالَ يتنفس، وقَبْلَ أَنْ يزيد أَحَدُهُمْ خطوة، انتفضت العيون وصرخاتهم الفزعة دوَّت بالمكان!!!

الْتفتت لتجد زَارَا انتفض وَاقفًا خلفها مُمسكًا بسيفها يوجهه لظهرها، تَصَلَّبَت، لتجد عَيْنَهُ جَحَظَت ويَبِسَ فجأة، ثمَّ سَقَطَ عَلَى ركبتيه وأمها وراءه تسحب سيفها مِنْ ظهره، فهوى مُضرَّجًا بدمائه بَيْنَ كلتيهما مقتولًا. وعَيْنُهُ مُعلقة بكرسي العرش، طَوَّقَهم الصمت لحظات، قطعته بصوت مبهوت...

- اعتقدت أَن الحامية لَا تقتل؟

خفضت أمها سيفها، تنقل عينها بَيْنَ جثة زَارَا وابنتها...

- الحامية لاَ... لَكِن الأم تفعل أَيَّ شَيْء لحماية أبنائها.

ارتمت سِيًّا بَيْنَ ذراعيها لتضمها زُمُرُّدة إِلَى صَدْرِهَا بحنان.

- أَيْنَ أَخْزَم؟

جَاءَ سؤال دَلِين مُباغتًا للجميع فلَمْ ينتبه لَهُ أحدٌ وسط المعركة، بَعْدَ لَحْظَات دخل دَلشيِّر، بخطًى سريعة وعَقِبَه قائد حرس القصر...

- هُنَاك شَيْء يجب أَن تَرَيْه الآنَ!

تبعته وهُمْ مِنْ خلفها، حَتَّى وصَلُوا معبد دَارَا، هُنَاك بداخل غرفة النقل بأعلى المعبد وقفت أمام بوابة مفتوحة، عينها سابحة بِهَا، استرَدَّهَا صوت آصَف القلق...

- هَلْ أَنْت واثق أَنَّهُ دخل إِلَى هُنَاك؟

هز قائد الحرس رَأْسَه...

- نَعَمْ يا سيدي الكاهن، هرب أَخْزَم إِلَى الداخل.

- إِلَى أَيِّ عالم تقود تِلْك البوابة؟

تساءل رَيَّان، لتُجيبه سِيَّا...

- إِنَّهَا بوابة جديدة فُتحت قَرِيبًا، قَرِيبًا جِدًّا!

ليؤكد الكاهن بإيماءة...

- بالفعل يا مولاتي، لقَدْ فُتحت فجأة، لسنا واثقين تَمَامًا كَيْفَ! وَلَا إِلَى أَيْنَ تؤدي!

حك آصَف ذقنه...

- لَا بُدَّ أَنَّهَا فُتحت حِيْن أُطلقت تعويذة الاستحواذ؟

- أَوْ رُبَّمَا حِيْن كُسرت لعنة الباب الدموي؟

ردت دَلِين، لتُحرك رُونَا كتفيها بِحيرة...

- ورُبَّمَا موت زَارَا؛ فكَانَ متصلًا بِهِ الكثير مِنَ السحر الأسود؟

- لَا يهم أَيُّهُمْ فتحها، المُهِمُّ أَنَّهَا فُتحت، وأَخْزَم فِي الداخل.

جَاءَ رَدُّ سِيَّا بنفاد صبر، تَقدَّمت خطوة نَحْو الباب وأكملت بزفرة ضِيق...

- وَلَا أَحَد يَعْرِف مَا الَّذِي يوجد بِهَذَا الداخل!

- أيمكننا إغلاقها؟

تساءلت دَلِين، تتقل عينها بَيْنَ آصَف وكاهن المعبد، ليرد الكاهن...

- حاولنا ولَمْ نفلح.

- حَتَّى الآنَ.

أكملت سِيًّا، لتحتد نبرة رُونَا...

- لنُبقيها تَحْتَ حراسة مشددة حَتَّى نرى.

فهزت سِيًّا رَأْسَهَا مُوَافَقَةً، وأمرت بتكثيف الحراسة عَلَيْهَا حَتَّى يعلموا مَا الَّذِي يقبع خلفها!

داخل قاعة رُوسِيل المحرمة، ومَعَ اقتراب اكتمال قمر إِلكَاي، تمتلئ القاعة بالأمراء وقواد الجيوش والحرس، وملوك الممالك الأربعة عَلَى رأسهم مِيلَّا بجوار شَاتَاي، الطرائد أكثر مَن تتراقص الفرحة الحقيقية بوجوههم بَعد عودتهم لوطنهم، تصدح الموسيقى بكُلِّ ركن، وتتناقل العيون التهاني والمباركات بانقشاع الظلام وعودة النُّور، وإن كَانَتْ تهاني شفهية، لَكِن أَغْلَب مَا تضمره الصدور هُوَ الخوف والقلق والترقب، خَاصَّة الملوك؛ فيعلمون أنهم عَلَى رَأْسِ قائمة الخونة لَدَيْهَا.

فُتح الباب وأُعلن وصول ملكة عَرْش النُّور والسَّدِيم، لتصمت الموسيقى ويعم صمت مُطبق عَلَى القاعة، دَخَلَتْ بخطًى واثقة ورَأْسٍ مرفوع، تَرْفُلُ فِي ثوب فيروزي اللون، يُزين رَأْسَهَا تاج الشمس تاج أسلافها، ارتفعت درجة

تلو أُخْرَى بثبات ورسوخ فَوْقَ سلم العرش، وقلبها يكاد يُغادر صَدْرهَا رَغْم ثباتها الخارجي، لَكِن بَيْنَ ضلوعها ينتفض قلقًا، فلَمْ تَكُنْ تِلْك اللحظة يَوْمًا مِنْ مُخططاتها، لَمْ تعتقد أَنَّهَا قَدْ تظل عَلَى قيد الحياة حَتَّى تصل إِلَى هُنَا، أَوْ حَتَّى تجرؤ أَن تحلم.

تبعتها رُونَا عَنْ يسارها بزيٍّ فرسان المعبد الذهبي، وسِيًّا عن يمينها بزيها الَّذِي أَبَتْ أَن تتخلى عَنْهُ، ورَأْسِهَا الحليق، تنفست زُمُرُّدة بعمق وجلست إِلَى عرشها لينحني أمامها الجميع، قبضت عَلَى كف سِيًّا بقلب ينتفض، لَا تصدق أَنَّهَا بَعْدَ كُلِّ مَا حَدَثَ تجلس الآنَ ملكة عَلَى عَرْش أسلافها، لتربت سِيًّا عَلَى يدها بحنان، ترميها بنظرة حُبٍّ مشجعة.

رفعت زُمُرُّدة يدها وخفضتها، فدك الحرس أرض القاعة بحرابهم، فاعتدل الجميع وَاقِفًا، هَمَّتْ واقفة، اتجهت نَحْو شُرفة القاعة وأعطت الإشارة لبدء احتفالات الترقي، أُطلق الدخان الأبيض مِنْ داخل أبراج القصر، وصدحت الموسيقى والاحتفالات فِي كُلِّ ممالك السَّدِيم.

وقفت سِيًّا بجوارها بوجه بش وهمس خفيض...

– لَمْ يتبقَّ إِلَّا أَن تستردي صديقك القديم.

فهمت زُمُرُّدة أَنَّهَا تتحدث عَنِ الكِتَاب، ابتسمت وقبَّلتها بخدها وهمست بأذنها...

– يَبْدُو أَنَّهُ راقت لَهُ صحبته الجديدة.

قطبت سِيًّا حاجبيها دُونَ فهم، فزادت ابتسامة أمها الرائقة، أشارت نَحْو قلبها وغادرت دُونَ كلمة أُخْرَى، خلَّفتها وراءها وعادت للحفل، لبثت عَلَى دهشتها وعَدَم فهمها، تنظر داخل القاعة، عينها تُفتش عَنْ أمها

الَّتِي ذابت وسط الحضور المُنتشين بالنصر، ليتراءى لَهَا طيف رُهَانَا قريبًا مِنْ كرسي العرش تبتسم وتهز لَهَا رَأْسَهَا رِضًا وحُبورًا وتقرأ عَلَى شفتيها «**أحسنتِ يا فتاة**».

ابتعدت عَنِ الصخب الَّذِي يملأ القصر إِلَى الشرفة، لتجد آصَف يقف خلفها، ابتسمت، فتنهد بغيظ...

- أَلَا يُمْكِنُ للمرء أَن يُفاجئك وَلَوْ لمرة عَلَى سبيل التغيير!

علت ضحكتها، الْتفتت نحوه، تغمزه بِطَرْف عينها...

- لَا تُحَاوِل، لقَدْ حظيتُ بمعلم باهر، رُبَّمَا أجعله يتولى تعليمك.

جلجلت ضحكته داخل الشرفة، وضع يده عَلَى كتفها...

- رُبَّمَا هُوَ مَنْ حظي بتلميذة استثنائية فِي كُلِّ حياته البائسة.
- كَيْفَ حال رَحِيل الآنَ؟
- تتحسن أسرع، مِن الجيد أَنَّكِ لَمْ تخطئي بتصويب الضربة.
- الفضل كُلُّه يعود لَكَ، أَنْتَ مَنْ وجد التعويذة المناسبة وعَلِم الوَقْت الأمثل لتنفيذها.
- توقف قلبها لِلَحْظَة، وإسالة دمائها المُغلفة بالظلام، مَعَ خيط فجر جديد كفيل بإبطال تعويذة التحكم.
- أقل خيط مِنْ ضوءٍ واهٍ يبدد عتمة دُهمة.

ابتسما كلاهما، اعتدلا عَلَى الشرفة لينظرا نَحْو قمر إِلكَاي...

- أتعلمين لأول مرة أشعر بأنني لَسْت ناقمًا عَلَى مَا تكبدتُه مِنْ خسائر، وَلَا عَلَى كُلِّ مَا مضى، مِنَ الجيد أَن القَدَر ادخرك للنهاية.

ردت بنظرة إجلال ممتنة، فما بقلبها لَهُ لَا يمكنها التعبير عَنْهُ مَهْمَا حاولت أَن تفعل، عادا ينظران للقمر، فتبسم...

- توقعت أَن تتخلَّي عَنِ العرش لزُمُرُّدة!

- لَا أحب الشعر المستعار.

رجت ضحكته الشرفة الخالية، فزادت ابتسامتها الساخرة، خبط كتفها بكفه...

- لَسْت أدرى مَنْ أشار عَلَى الملكة بأن تضع مِيلًّا ملكة لدَهَّام تَحْتَ وصاية شَاتَاي حَتَّى تتم عامها الحادي والعشرين، لَكِنَّهُ بالفعل أحسن بإشارته، فتلْك الفتاة تذكرني بشخص أعرفه كَثيرًا حَتَّى إن كليهما مَا زَالَ مُصرًّا عَلَى أَن يظل حليق الرأس.

ابتسمت حَتَّى ظهرت أسنانها، فهِيَ مَنْ طلبت ذَلك، اعتدلت بوقفتها، تهز رَأْسَهَا بمرح أَنَّهَا لَا تعرف، اعتدلا كلاهما نَحْوَ سور الشرفة، بسط الصمت ذِرَاعَيْه، وعيونهما تتبع قمر إِلكَاي، زادت ابتسامتها، فهز رَأْسَه بغيظِ أَكْبَر، نظر نحوها...

- أَيْنَ هُوَ؟

الْتفتت نحوه، رفعت حاجبها تتساءل عَمَّ يتحدث، لتغتاظ نبرته...

- أيتها المخادعة الصغيرة تعرفين مَا الَّذِي أعنيه... الكِتَاب.

ازدادت نبضات قلبه خفقانًا، كَأنفاسه...

- أَنَا فَقَطْ أريد أَن... أراه لمرة واحدة.

زادت رفعة حاجبها بنظرة ماكرة، وغمزته بطَرْف عينها، انفرج ثغرها عَنْ ضحكة هادئة، رماها بنظرة تشتعل غيظًا، لتنحني عَلَى أذنه...

- كلانا يَعْرِف أَيْنَ الكِتَاب أيُّهَا العجوز المُراوِغ.

قبَّلَته بخده واتجهت خَارجًا، كادت عيناه تغادران مَحْجِرَيْهما، هَلْ مَا اعتقده هاجسًا مجنونًا حَقِيقَةٌ؟! عِنْدَ باب الشرفة الْتفتت نحوه...

- هُوَ أَيْضًا يعتقد أنَّك تستحق فرصة ثانية!

أنعم النظر بِهَا بعيون تشي بِعَدَم الفهم، لتفرك إصبعيها إحداهما بالأخرى، فوجد قنينة صغيرة داخل كفه، نظر نحوها باندهاش، غمزته بِطَرْف عينها بابتسامة مُشَاكسَة...

- انظر جَيِّدًا فِي المرآة قَبْلَ أَن تتجرعها، فربما لَنْ ترى ذَاكَ العجوز مُجَدَّدًا.

انْسَكَبَ نبضه بَين الضلوع، وعَيْنُهُ مُعلقة بالقنينة، حِيْن الْتفت لها مُجَدَّدًا لَمْ تَكُنْ هُنَاك، اتكأ إِلَى سور الشرفة وكُلُّه مبهوت، وعَيْنُهُ الدامعة لَا تبتعد عَنِ القنينة بَيْنَ أنامله.

تقف أمامها تفيض بألف شعور متناقض، ألف سؤال يعصف بِهَا، وعينها مُعلقة بالضوء المنبعث مِنْهَا! شيء بداخلها يُجبرها على الإنصات! يُناديها للعبور! تمامًا كما شعرت مع المخطوطة أول مرة! شعورٌ خفي يسوقها نحوها دون إرادة منها! لَحْظَة وشعرت بهم يحيطونها، ابتسمت دَلِين بخبث...

- أخبرتكم أننا سنجدها هُنَا.

- هربت الأميرة مِنَ الحفل الصاخب.

علقت رَحِيل بسخرية، لتخبطها دَلِين فِي كتفها...

- أعرف تِلْك النظرة جَيِّدًا!

ابتسمت سِيًّا، تنقل عينها بَيْنَ كلتيهما والبوابة الَّتِي دخلها أَخْزَم، لتهتف رَحِيل بفرح، تضم كلتيهما...

- وأَنَا مَن اعتقدت أَن أَيَّام المرح ولَّت.

لَحْظَات وظهر رَيَّان ودَلشيَّر يبتسم ويخبط كتفه...

- ألم أخبرك أَن المرح الحقيقي هُنَا؟!

وقف رَيَّان بجوارها، ضَمَّهَا إِلَيْهِ وعَيْنُهُ مُعلقة بالبوابة...

- لَا شَيْء سيوقفك، فلِمَاذَا الانتظار!

ظهر أمام الجميع، انْدَهَشُوا حيْن وقعت عيونهم عَلَى هَيْئَته الجديدة حَتَّى إنهم لَمْ يعرفوه بسهولة، إلَّا حينما هتفت دَلِين بصوت مَشْدُوه «**آصَف!**»

بَدَا أصغر مِنْ رَيَّان ودَلشيَّر، رمته سِيًّا بنظرة سعادة حقيقية لأجله، ورماها بنظرة امْتنان لَا يَسْتَطِيع أَيُّ كلام أَن يُلخصها، لتزداد دهشة الجميع حِيْن ارتمت رَحِيل بَيْنَ ذِرَاعَيْه والدموع تُغرق وَجْهَهَا.

أَمْسَك دَلشيَّر يد دَلِين فأطبقت عَلَى كفه بحبٍّ وتنهيدة شوق، قطع آصَف لَحْظَات الشجن والدموع بصوته الرخيم الواثق...

- تعلمين أَن زُمُرُّدة ورُونَا ستقتلانك لِهَذَا!

ابتسمت مُصادَقَة عَلَى جملته، وعينها مُعلقة بالبوابة، نظرت نحوهم استدعت سيفها وبابتسامة ماكرة...

- آخِر مَنْ يصل هُوَ الخاسر.

وقفزت، نظرت رَحِيل ودَلِين بمرح واستدعتا سيوفهما، وبنبرة متحمسة، وكُلٌّ مِنْهُمَا تُشِيرُ إِلَى الأُخْرَى...

- أنتِ الخاسرة.

وقفزتا، نظر دَلشيَّر ورَيَّان نظرة يأس متبادل وحركا رءوسهما أن لا أمل فيهن، استدعيا سيوفهما وقفزا، لبث آصَف للَحْظَة يهز رَأْسَه بابتسامة يائسة يُفكر أيلحق بهم إِلَى المجهول أَمْ يعود إِلَى زُمُرُّدة ورُونا!! صَرَخَ بغيظ وسط قاعة النقل الخالية...

«فُرَصُنا مَعَ المجهول دَوْمًا أكْبَر مِنْ فُرَصِنا ضِدَّ المحتوم!»

وقفز!!!!!!!!!!!!!

تمت